رجالٌ صدقوا ٤

الخارجون من الماء

سرد تاريخي أدبي لحياة المحرر من السجون الخليفية محمد طوق

كمال السيّد

رواية

صوت البحرين
VOICE OF BAHRAIN
WWW.VOB.ORG

اسم الكتاب: الخارجون من الماء - رواية المحرر من السجون الخليفية محمد طوق

الراوي: محمد طوق

الصياغة الأدبية: كمال السيّد

نشر: دار الوفاء للثقافة والإعلام

الطبعة الأولى: أبريل 2021 - رمضان 1442 هـ

دار الوفاء للثقافة والإعلام

موقع دار الوفاء للثقافة والإعلام

الفهـــــرس

- مقدمة الناشر « ٨ » .....
- مقدمة الراوي « ١٠ » .....
- سرّي للغاية « ١٣ » .....
- الفصل الأول « ١٩ » وديان .....
- الفصل الثاني « ٥٣ » هاجس الرحيل .....
- الفصل الثالث « ٧٢ » سياط الغربة .....
- الفصل الرابع « ٩٨ » إلى النهرين .....
- الفصل الخامس « ١٣٢ » بلاوداع .....
- الفصل السادس « ١٥٢ » هواجس الثأر .....
- الفصل السابع « ٢١٨ » وراء القضبان .....
- الفصل الثامن « ٢٧٤ » سين جيم ؟! .....
- الفصل التاسع « ٣١٧ » جو .....
- الفصل العاشر « ٣٨٢ » رضا الغسرة .....
- الفصل الحادي عشر « ٣٩٧ » سيوف الثأر .....

أنا لست أدري..

هل ستكتب قصّتي؟!

أم سوف تذروها رحى النسيان..

أو أنني سأكون في تاريخنا متآمراً..

أوهام الأوثانِ

كلُّ الذي أدريه أن تجرّعي..

كأس المذّلة .. ليس في إمكاني

فإذا هويت .. هويت أحمل عزّتي..

يغلي دم الأحرار في شرياني..

الإهداء

إلى الشهيد الباسل..

رضا الغسرة..

بطل الرواية الحقيقي

كمال السيد

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وأفضل الصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

لكل أمةٍ تاريخ، وحفظ التاريخ هو سلاح في يد الشعوب، إن استطاعوا الحفاظ عليه، فسيكونون دائماً في حالة التحصين الداخلي من إعادة التجارب المرّة التي عاشوا فيها، أما إذا استطاع العدو أن يحرّف هذا التاريخ لمصلحته، فسيكون الشعب حينها قابلاً بالمتسلطين والمستكبرين وبحكمهم وحكامهم؛ لأن المستكبرين على مرّ التاريخ يقدمون أنفسهم على أنهم هم الراغبون بتطور الشعوب وتقدمها وتحقيق مصالح الأمة، وهذا كله كذب وافتراء، بل أينما دخلوا نشروا فيها الفساد والفحشاء وقاموا بتخدير الشعوب.

من هذا الباب يسعى دار الوفاء للثقافة والإعلام أن يقوم بحفظ التاريخ من خلال العمل على تجارب أبطال الثورة ومضحيها، وقد عَمل مع الأخ محمد طوق لسرد تاريخه الحافل بالجهاد والتضحية، وها نحن

الآن نقدم هذا التاريخ المملوء بالألم والأمل إليكم أيها الأحبة لتشهدوا بأنفسكم على جرائم هذه الحكومة الفاسدة، وليزيد إصراركم وثباتكم في وجهها، من خلال هذه التجربة الكبيرة، خصوصاً بأن الراوي قد عاش مع الشهداء في طيلة هذه الثورة المباركة، والشهداء هم شعلة هذه الثورة التي لا تنطفئ أبداً.

يحتوي هذا الكتاب على تجربة الأخ العزيز محمد طوق منذ فترة بداية الثورة إلى حين وصوله إلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية بعد نجاح عملية سيوف الثأر، وهي العملية التي هزّت عروش الظالمين بتحرير 10 أسرى من سجن جو المركزي بهجوم مسلح من قبل الشهيد علي العرب والأبطال الآخرين.

ولا ننسى أن نشكر الأخ العزيز الأديب كمال السيّد على كتابة هذا الكتاب بأسلوب روائي مميز وشيّق جداً، سائلين المولى عز وجل أن يوفق الكاتب والراوي لما فيه الخير والصلاح، وأن يسدد خطاهم.

ختاماً نسأل الله الرحمة للشهداء والفرج عن الأسرى بحق محمد وآل محمد.

والحمدلله رب العالمين

دار الوفاء للثقافة والإعلام

مقدمة الراوي

اعلـم أنّ الزمـان لا يثبـت علـى حال، فتـارةً فقر وتارةً غنـى، وتارةً عز وتـارةً ذل، وتـارةً يفرح الموالي وتارةً يشـمت الأعـداء «والعاقل مَن لازم أصلاً على كل حال وهو تقوى الله».

«من وطني تبتدأ الحكاية إلى غربتي إلى سجني، أحكي أملي وألمي، أحكي قوتي وضعفي، أحكي عن الشهداء الذين عرفتهم».

إن الطريق صعبٌ وشائك، ولكن الصعوبة والألم في جنب الله بلسم عذب، فالحق والسير على طريق الرسالة السماوية يتطلب الصبر وتحمل الصعـاب إلـى أن تتحقق رسـالة الله فـي الأرض، فإما أن نكـون على هذا الطريق بكل صعوباته أو نكون من المتخاذلين عن طريق الرسالة.

إنمـا كتبـت كل مذكراتـي لأجـل التاريـخ، فالأعـداء يوظفـون التاريخ لصالحهـم، ومـن هـذا المنطلـق دوّنـت مذكراتـي بألِمِهـا وجمالهـا، وكل الذكريات تصبح جميلة وإن كانت في وقتها مرّة.

هـذهِ حكايـة الشـباب الثائر في البحريـن، المعتقلون والشـهداء كلهم مـرّوا بهـذه الظـروف وأصعـب، وكلٌ يحمـل قصص وحكايات فـي حياته

الجهاديـة، وأنـا أدعـو كل الثوار بأن يدوّنـوا تاريخهم؛ لأن عدونا يسـعى إلـى أن يجعلنـا مـن المتخاذلين عن الوطن والديار، ولكـن بكتابة التاريخ تُحفـظ القضيّـة، وأمـا شـهداؤنا الأبـرار يجـب أن نخـط كلماتهم و سـيرة حياتهـم بِمـاء الذهـب، دماؤهـم هي التي ترسـم حياة الإنسـان بالكرامة والعزة.

محمد طوق

سرّي للغاية

جلس الضابط المجنّس خلف مكتبه الفخم وباشر مطالعته العديد من التقارير السرّية، دخان سيجارته ما يزال يتصاعد، كانت عيناه الضيّقتان تركّزان على السطور؛ وأنفه الحاد يحاول الغوص والنفوذ إلى ما وراء السطور .. كان قد مضى على فراره من «بغداد» ثلاث سنوات وحصل على الجنسية البحرينية عام 2006م!

أما تعاونه مع جهاز الأمن الوطني فقد بدأ مبكراً، في تشرين الأول عام 2003م، ما يزال مشحوناً «طائفياً» في أعماقه المظلمة يستعر حقد دفين ضد «الشيعة» .. فوق مكتبه الفخم في «جهاز الأمن الوطني» عدد من الملفات والأضابير، كان يحرص على مطالعتها منذ أن تم تعيينه في موقع حساس في «الأمن الوطني» لمملكة البحرين .. وكانت مهامه تنحصر في «الأمن السياسي» ومكافحة «النشاط الديني»، اكتشف مبكراً مستويات من التعاون مع الأجهزة الأمنية الصديقة (الباكستانية والأردنية والمصرية والتركية والبريطانية والأمريكية) والاستفادة من تجاربها..

يمتلك هذا الضابط تجربة ثرية جداً في مجال اختراق التنظيمات الدينية، خاصّة في المحافظات الوسطى والجنوبية في العراق، ومع ذلك

فهو عاكف على مطالعة «الواقع الشيعي» أو «المشهد السياسي» للطائفة الشيعية في الجزيرة..

عكف على دراسة الجذور التاريخية لواقع الشيعة في البحرين، ومن خلال التقارير تكوّنت لديه رؤية حول هذا الواقع..

رنّ هاتفه الجوال وكان على الخط أحد رفاقه الهاربين إلى الأردن .. حدثه عن اتصالات مع «ابنة الرئيس» وتواصل مع شخصيات في بغداد تمكنت من التسلل إلى مفاصل الدولة و... .. انتهت المحادثة بإطلاق ضحكة شيطانية..

اشعل الضابط المجنس سيجارة أخرى، وأخذ نفساً طويلاً وراح ينظر عبر النافذة المطلّة على الحديقة .. ليعود يدقق في التقرير الأمني، وكان يشير إلى أفكار «هاني فحص» الذي زار البحرين أكثر من مرّة، والتقى بالمسؤولين الرسميين..

«هاني فحص» يمثل رجل دين «مودرن» فهو يحضر العروض المسرحية والغنائية وله مؤلف حول المسرح..

تحدث التقرير أيضاً عن «مدرسة علم الكلام الجديد» التي ظهرت في إيران واستقطبت العديد من أساتذة الجامعات والحوزات .. وتدعو هذه المدرسة إلى التعددية الدينية والتعايش بين مختلف الأديان والثقافات .. وهناك الكثيرون ممن تأثروا بهذه المدرسة داخل البحرين .. ينعكس هذا التأثر في الجدل الدائر في موقع «بحرين أون لاين» على الانترنت..

يوصي التقرير الأمني بـ«التركيز على بعض القضايا التي تطرحها هذه المدرسة لإحداث هزّات فكرية داخل الوسط الشيعي واستقطاب بعض

الشباب المتأثر بهذه الأفكار».

يوصي التقرير بفسح المجال لهذا الفكر ونشره من خلال صحيفة «الوطن» لإحداث نوع من التحوّل «النخبوي» داخل مناخات الفكر الشيعي.

نهض الضابط واتجه إلى «الثلاجة» الصغيرة حيث يحتفظ في داخلها على عدد لا بأس به من المشروبات الكحولية الأجنبية، كل شيء مستورد في هذا البلد! حتى الشرطة! تجد فيهم الباكستاني والهندي والأردني والسوري!، لم يصادف خلال فترة عمله في «الأمن الوطني» شرطياً من البحرين .. كان يعرف من خلال لهجاتهم بلدانهم الأصلية .. فهذا مصري وذاك أردني ويمني و....

عاد إلى مكتبه ليستأنف مطالعة التقارير الأمنية، ظهر اسم المرجع البحريني الأصل «محمد الأمين زين الدين» الذي يعد الأقرب إلى التيار الإخباري الذي كان سائداً في البحرين قبل انتصار «الثورة الإيرانية»، حيث تحوّل معظم شيعة البحرين إلى التيار الأصولي.

في أحداث التسعينات أفتى محمد الأمين زين الدين بحرمة أعمال «الحرق» و«التخريب» ودعا الشيعة إلى المطالبة «السلمية» .. وقد انحسر تأثيره بعد وفاته في مدينة النجف..

يجب مساندة الشخصيات الشيعية العلمانية ودعمها، وكذلك دعم الشباب الشيعي الذين تأثروا بأفكار «محمد اركون» وحاولوا نشرها عبر موقع «بحرين أونلاين» وتكثيف الحصار والتضييق على «عيسى قاسم» الذي أفتى بإحراق كتب «اركون».

وتقديم رواديد منافسين لـ«حسين الأكرف» وأمثاله، ويخالفونه في توجهاته المساندة لـ«عيسى قاسم»؛ خاصة بعد أن اشتهرت كلمات الأكرف في العزاء الحسيني:

لست في تركيا دستورك اركون

أنت في أرض لها الإسلام قانون

استغرق الضابط المجنس في ملف التجنيس وبدا له موضوعاً جذاباً في مضمار عمله الأمني، يقول التقرير في هذا المجال: مصير البحرين وهويتها ومستقبل أجيالها وثقافتها وتاريخها على المحك إذا استمر تكريس الخلل في التوازن الطائفي للسكان السائد حالياً؛ فالطائفة الشيعية من خلال سلاحها «ع3» المعروف «علم+عمل+عيال» استطاعت بالإضافة إلى عوامل مساعدة أخرى أن تخلّ بهذا التوازن وتضع القيادات الدينية السياسية للطائفة الشيعية موضوع «التجنيس» على صدر قائمة أجندتها التحشيدية والتحريضية من أجل ضمان استمرار هيمنتها الحالية «اقتصادياً» و«سكانياً».

ويحذر التقرير من أن استمرار الفرق الواضح بين الطائفتين سيخلق حالة متصاعدة من المجابهات ويشجع على استهداف نظام الحكم.

ويشجع التقرير على استمرار المفاوضات مع القبائل السعودية في دعم التجنيس المزدوج الذي سيوفر أكثر من ستين ألف شخص.

الاستمرار في عدم تجنيس الأفراد الشيعة من أصول إيرانية أو عراقية، يجب الاستفادة من «التجربة الإسرائيلية» وتبني منهجها بحسب الظروف، فقد اتجهت إسرائيل إلى شرق أوروبا وإلى أفريقيا واستطاعت

في فترة وجيزة تجنيس مليون روسي وحصلت على يهود «الفلاشا» في زمن قياسي، (300,000) من السودان وأثيوبيا، و(150,000) من جنوب أفريقيا وتوجهت إلى الهند بعد اكتشافها مجموعات يهودية هناك.

يجب وضع الخطط الكفيلة بتجنيس 20,000 سنوياً ومن ثم رفع هذه النسبة إلى 50,000 سنوياً، ويجب الأخذ بنظر الاعتبار تنفيذ الخطط تحت أعين وبصر المعارضة وحملاتها الإعلامية المستمرة من خلال طرح الموضوع باعتباره جزءً من استراتيجية الحفاظ على «هوية البحرين».

التركيز على ثلاثة مصادر رئيسية لدفع عملية التجنيس: سنة العراق والآسيويين (البلوش والبنغال تحديداً) واليمنيين، وغالبية هذه الجنسيات يحلمون بظروف اقتصادية أفضل في البحرين.

يتواجد حالياً ما يزيد عن 120,000 سني عراقي هارب من «جحيم العسف والاضطهاد الشيعي» في العراق؛ ويمكن الاستفادة من هذا الكم في تسهيل حضور 30,000 على الأقل منهم في البحرين وعلى الرغم من جفاء طباعهم عن أهل البحرين، ولكنهم سيزيدون من رفع حرارة الشارع السني البحريني، وإشاعة الخوف في نفوس السنّة بأنهم سيواجهون مصيراً مماثلاً إذا ما تسنى «للبحارنة» السيطرة على البلاد!

عضّ الضابط المجنس على أسنانه غيظاً ولكنه استمر في متابعة التوصيات الأمنية التي اختتمها التقرير بالتركيز على تجنيس الذين ولدوا في الكويت والسعودية (فئة البدون تحديداً) لسهولة اندماجهم في البحرين واكتسابهم العادات الخليجية بسهولة..

وأخيراً التشديد على عدم السماح بفتح ملف التجنيس في مجلس

النواب تحت أي ظرف كان.

نجحت المعارضة في تأسيس واجهات عمل فاعلة (قانونية وشبه قانونية) ومحاضن تكوين سياسي وعقائدي في أوساط الشباب، نجحت المعارضة في استقطاب الشباب الذين يواجهون مخاطر كبيرة تتمثل في البطالة والمخدرات والخطاب الاستقطابي.

الشباب البحريني يشكل حالياً أضعف حلقات الأمن الوطني ويهدد «الشرعية السياسية» و«استقرار المملكة» ونظامها وثوابتها، حماية الشباب من الاختراق الفكري هو العمود الفقري لتأمين مرتكزات الأمن السياسي في البحرين.

نهض الضابط المجنس وغادر مكتبه عبر ممر يفضي إلى الحديقة وسط تحيات حرس من مختلف الجنسيات!

الفصل الأول: واديان

الإنسان ابن البيئة يستنشق كل شيء فيها كما يستنشق الهواء، يتشرّب ثقافتها، وتجري في عروقه كما الدماء في العروق والنسغ في الأشجار، وينمو الإنسان كما تنمو الأشجار في جزيرة «سترة» شرق البحرين في قرية «واديان».

ولد في ربيع 1991م صبي أطلق عليه أبواه أجمل وأحلى اسم عربي «محمد» اسم يتألق نوراً سماوياً وينطوي في طيات حروفه عبق رسالات الله إلى الإنسان الذي ارتقى إلى ذروة الكمال التي يمكن أن يبلغها الكائن البشري..

ترتسم على وجه «محمد» لوحةٌ من البراءة، والحياء ظلت ترافقه على مدى عقدين من الزمن..

عجيب صمته وهدوؤه! لا يريد أن يتحدث عن طفولته .. ثمة صورة توثّق تفوقه في الصف الثالث الابتدائي في مدرسة ابن النفيس الابتدائية.

تعلق مذ كان فتىً بتربية الخيول .. يمتطي صهوة جواده وينطلق في البرية .. يتشرّب روح الحرية .. يتألق في وجدانه «ذو الجناح» وملحمة الهجوم الأخير برغم الجراح .. والصهيل الذي امتزج بصرخة «الحسين»: هيهات منا الذلة!

لا أحد يعرف سرّ تعلقه بالخيل؟! هل هي المشاهد التي ترسمها منابر الخطباء في موسم عاشوراء؟! مشاهد من أبي الفضل العباس وهو يشنُّ هجومه الأخير! أم عندما هوى الحسين على الثرى بعد أن تلقى قلبه الكبير سهماً ذا ثلاث شعب؛ فانبعث الدم كالميزاب! وراح الفرس يحمحم حول الفارس الصريع ويمرغ ناصيته بدمه!

على أية حال فهذا الشباب الهادئ الذي بلغ العشرين تراه هادئاً، لكن أعماقه تنطوي على بركان غضب يستعر في مواسم الحزن الكربلائي، التي تبلغ ذروتها في ذكرى يوم عاشوراء أطول يوم في التاريخ..

نشأ «محمد» في ظلال أسرة كانت تغمره بالحنان والعطف وتشعره بالدفء العائلي .. في منزل يقع بالقرب من حسينية «المرزوق» .. حياة بسيطة في ظلال أبوين طيبين وأخوات عطوفات وأخ شقيق هو في الحقيقة رفيق وصديق..

يجد متعته في المزرعة مع الخيول العربية الأصيلة ومعه أبناء عمومته..

في مطلع عام 2011م حصل محمد على عمل في «صيدلية وائل» كعامل مخزن يقوم بنقل الأدوية إلى بعض المستشفيات..

هكذا كانت حياة محمد وهو على وشك الدخول في العشرين ..

في طريقه إلى مستشفى السلمانية كان يشاهد بعض الشباب الغاضب يشعلون النار في الإطارات ويغلقون الطرق .. كان يستغرب جدّاً!!

يتساءل في نفسه لا أحد يسمع استفهاماته: «دلين ويش يسوون .. ويش يستفيدون» .. صحيح أنه كان يشاهد التلفزيون ويتابع ما حصل من تغيير في تونس ومصر..

جزيرة سترة الصغيرة الواقعة شرق البحرين كانت تشهد «مخاضاً» والأيام القادمة سوف تكشف عما يجري من تغيّرات في العمق الاجتماعي..

محمد يلجأ إلى المزرعة .. ملاذه المفعم بالسكينة والهدوء والسلام .. يمتطي صهوة جواده وينطلق في البرّية..

في هذه المرة وجد أبناء عمومته يتحدثون عن «ناس» يقومون بالتحشيد للنزول إلى الشارع والخروج في مسيرات شعبية كبيرة! تكون بداية لانطلاق «الثورة»! يجب أن تكون المسيرات في كل مكان .. نعم في كل مكان!

محمد يستغرب وكان في داخله صوت مكبوت: «مستحيل»! مستحيل أن تصبح ثورة .. ما يحصل «فورة عاطفية» عابرة .. هؤلاء الشباب «شافوا» الشباب في تونس وفي مصر فجرفتهم العاطفة .. ربما يخرج الناس في مسيرات .. ربما يستطيع الشباب إغلاق بعض الشوارع .. يحرقون الإطارات .. كل هذا ممكن .. أما أن تحصل ثورة .. فهذا مستحيل .. نعم مستحيل .. مستحيل أن تصير البحرين مثل تونس أو مصر! قالها محمد لابن عمه «محمود» .. لكن محمود قال لابن عمه

«محمد طوق»: لا يا ابن عمي! هذي المرّة غير!

تحدث محمود عن يوم 14 فبراير .. «الناس بالمئات راح ينزلون للشوارع ويطالبون بحقوقهم المسلوبة»..

قال محمد طوق: هذا كلّه كلام .. حتى لو صارت مسيرات في يوم 14 فبراير .. ما بتكون ثورة .. يعني بتكون مسيرات في بعض المناطق .. وخلاص .. الناس بعد المسيرات بترجع لبيوتهم .. مستحيل تصير مثل تونس أو مصر!

قال محمود مؤكداً لابن عمه: ما تشوف الثورات في العالم؟! أكيد في البحرين بتكون ثورة..

ابتسم محمد طوق وظهر على ملامح وجهه المفعم بالبراءة عدم اقتناعه بما قاله ابن عمه..

يعود محمد إلى أهله، كان ذلك في أصيل يوم الثالث عشر من فبراير 2011م .. يشاهد التلفزيون .. تنتقل عيناه على صفحات التواصل الاجتماعي .. نسي حواره مع ابن عمه .. يأوي إلى فراش النوم .. في عالم الأحلام يرى نفسه ممتطياً حصانه ينطلق في البراري الواسعة .. يسمع صهيلاً قادماً من جهة البحر .. يرهف سمعه .. ما يزال الصهيل يتناهى إليه قادماً من بعيد .. يستيقظ من النوم..

سمع أمه تقول: اليوم بعد صلاة الفجر .. «خرج» أستاذ عبدالوهاب حسين[1] ومعه أهالي منطقة «نويدرات» .. خرجوا في مسيرة..

1. الأستاذ عبدالوهاب حسين هو مفجّر الثورة في البحرين، خرج في فجر يوم الرابع عشر من فبراير في عام 2011م وقاد التظاهرة الأولى للثورة، وهو الشخص الذي رسم

هكذا تولّد لديه انطباع أستاذ عبدالوهاب .. يريد كسر الطوق لإشعال «الثورة» .. يريد أن تعم المسيرات الشعبية في كل أنحاء البحرين .. خاصّة المناطق الساخنة..

سحب الثورة الشعبية تتراكم في سماء الجزيرة .. الخبر يهز وجدانه هزّاً عنيفاً! هذا اليوم لن يكون عادياً في حياته .. نفض الخبر غبار النوم تماماً .. كان ذهنه متوقدّاً!

أستاذ عبدالوهاب بنفسه ينزل للشارع!!

من المؤكد أن الناس سوف ينزلون للشارع بقوة، لم يتحمل «محمد» ضغط التساؤلات التي بدأت تطفو كالفقاعات في بركة تتلقى أمطار الربيع..

اتصل على ابن عمه محمود جاسم، سأله عن المسيرة في جزيرة سترة، أين ستنطلق؟ ومتى؟

قال محمود وقد تهدج صوته بسبب الحماس: الساعة الثالثة عصراً .. هل ستشارك؟! هل ستحضر؟!

قال محمد: سآتي معك..

وهكذا اتفق محمد أن يرافق ابن عمه في هذه المسيرة .. والحماس يغمر كيانه .. هذه أول مشاركة له في مظاهر الاحتجاج ضد نظام آل خليفة..

طريق للثورة وقاد الثورة لذلك من التسميات التي يسمونها به: أستاذ البصيرة ومهندس الثورة، وهو الآن موجود في السجن من مارس 2011م إلى يومنا هذا، فرج الله عنه وعن جميع المعتقلين يا رب - الراوي

وصل محمد ومحمود إلى المكان المحدد قبل الساعة الثالثة .. قبل موعد الانطلاق .. ورأى محمد حشود الشباب من أهالي «سترة» .. كانت المشاركة الشعبية واسعة جداً .. أطفال وشباب وشيوخ ونساء .. تحركت المسيرة وعلت أصداء الهتافات الحماسية..

مشاعر وأحاسيس تموج في أعماق «محمد» .. ما يجري على الأرض من أقدام تسير وإقدام وإرادة .. تطلعات .. أحلام .. آمال .. آلام .. أصداء هتافات وحناجر في مواجهة الخناجر .. كل تفاصيل المشهد المثيرة تغوص في أعماقه وتحدث طوفاناً من المشاعر في أعماق ذلك الشاب الذي كان يخطو في العشرين ربيعاً .. «هذي أول مرة أشارك في حياتي .. أحضر حدث من هذا النوع».

وصلت المسيرة الغاضبة إلى مدخل سترة الرئيسي .. «عند وصولنا إلى المدخل .. رأيت عدداً كبيراً من المرتزقة وكان معهم ضباط كثيرون».

لم يتهيّب المتظاهرون مشهد المرتزقة المدججين بالسلاح! ظلّوا يواصلون تقدّمهم .. تحولت هذه الحشود إلى كيان متوقد وإنه لأمر مدهش حقاً! كيف تندمج الأجيال في كيان واحد .. أطفال ونساء وشيوخ وشبّان من مختلف الأعمار والمشارب والأذواق كلها تنصهر في بودقة الثورة لتحرير الأرض والإنسان من نير طغاة يتشدّقون بـ«النظام الوطني» وهو في الحقيقة «وثني» حتى النخاع!

«محمد» في الساعة الثالثة عصر يوم 14 فبراير هو ليس عصر الأمس .. منذ صباح اليوم وهو يعيش عنفوان تحولات في أعماق هذا الشاب .. من يراه .. ويرى ملامح وجهه الهادئة وسكونه .. وصمته يستبعد أي

تصور عما يجري من طوفان يتفجّر غضباً .. وإذا ما أراد المرء أن يتلمّس جذور ما يجري من تحولات في أعماق هذا الشاب .. سيلمح وهجاً من شمس «عاشوراء» وسيصغي إلى صهيل «ذو الجناح» قادماً من كربلاء .. ستتألق أمامه لافتات لأسماء كالنجوم والأقمار والكواكب .. «الحسين بن علي .. زينب الحوراء» .. تلك السيدة العظيمة التي من جوار مرقدها يخاطب عميد المنبر الحسيني[1] الإمام الحسين»ع» في كربلاء: «فأنت هناك بكل علاك .. هنا قد تجسّدت في زينب» زينب التي تخاطب سلطان الشرق الأوسط بازدراء قائلة له: ولئن جرّت الدواهي عليّ يا يزيد مخاطبتك .. إني لاستصغر قدرك!!

أجل سيلمح أسماءً تتألق بالنور تسطع تحت شمس الكرامة والشرف والإباء..

«أبو الفضل العباس .. علي الأكبر ابن الإمام الحسين .. حبيب بن مظاهر الأسدي .. مسلم بن عوسجة .. الحرّ الرياحي .. عابس بن شبيب» و.. .. أسماء عديدة سطرت أكبر ملحمة إنسانية في تاريخ البشرية على الإطلاق..

في كربلاء .. في يوم عاشوراء ولد الضمير الإسلامي الذي سيحسم قصة الصراع المثير.. الصراع بين شرعية القوّة وقوة الشرعية ويكتب الفصل الأخير من نهاية التاريخ..

هذه الحشود الغاضبة جزءٌ من ملايين المؤمنين بسورة المقاومة .. الذين يتطلعون إلى يوم الخلاص .. كل هذه الحشود تسير .. تترقب

1. للدكتور الشيخ أحمد الوائلي رضوان الله عليه

الذي يأتي .. تترقب ظهور «ابن آخر الأنبياء في تاريخ الإنسان» .. تنتظر ابن الحسين .. الحسين الذي أضحى «ثار الله»..

«محمـد» الـذي تموج فـي أعماقـه ثقافة عاشـوراء يعيـش إرهاصات الميلاد الجديد..

سـتة عناصر أو أبعاد تتألف منها الشـخصية الإنسـانية، وعندما تتآلف هذه العناصر وتنسجم تصبح شخصية سوية، فالإنسان فطرة وعقل وقلب وضميـر وإرادة وأهـواء .. الفطرة التي هي مسـتودع السـرّ الإلهي بما يميز الكائن البشـري وآدميته وإنسـانيته، والعقل الذي يمثل القانون الأخلاقي المودع في أعماق البشر، والقلب مركز العاطفة الإنسانية والجزء النابض الـذي يتلقى الإشـراق والوعي، والأهواء البشـرية التي تمثـل طاقة الحياة حيـث تحتـدم الغرائـز الظامئـة دومـاً والتـي تنشـد الارتـواء والإشـباع .. والإرادة التي تعبّر عن حريّة الإنسان ومسؤوليته في نفس الوقت..

ومـن المؤكـد أن «محمـد» ذلـك الشـاب العشـريني قد مرّ فـي تجربة ومخـاض، وكانـت أعماقـه قـد شـهدت مخاضـاً عندمـا قرر المشـاركة في مسـيرة الرابـع عشـر من فبرايـر .. في تمام السـاعة الثالثة عصـراً اندلعت شرارة ثورة شعب قرر المطالبة بحقوقه منتهجاً طريق السلام..

الحناجر الغاضبة تصرخ من أجل أن يسمع العالم .. العالم كلّه!

وصلت «مسيرة سترة» إلى المدخل الرئيسي وأصبحت على بعد أمتار معدودة من حشـود المرتزقة .. تقدّم ضابط باتجاه الشـباب وقال: ابي اتكلم مع أحد من كبار الحاضرين!

كان يقصد قادة المسـيرة أو رجل تخطى مرحلة الشـباب .. يتصوّر أن

الإنسان في هذا العمر يفكر بطريقة (عقلانية)؛ فالحوار مع الشباب لا طائل من ورائه .. «الشباب» تدفعه العاطفة كاندفاع العاصفة..

برزت ما بين الجموع عدة شخصيات؛ قال الضابط متوعداً: لديكم دقائق فقط لتفريق التجمع .. وإلّا..

كان صوته يعكس روح العدوان والشعور بالقوّة أمام الناس العزّل!

كانت ردّة فعل الشباب قويّة وتأججت روح الحماس وانطلقت الحناجر تهتف بالصلاة على «محمد وآل محمد» تبعتها هتاف يكشف عن هوية المسيرة: سلمية! سلمية! سلمية!

شهد محمد بكل كيانه معركة غير متكافئة .. وتجلى مشهد الصراع التاريخي بين قوة الشرعية وشرعية القوة..

بدأت قوات المرتزقة العدوان ضد الناس العزّل الذين كانوا يهتفون بسلمية الاحتجاجات ويرفعون أعلام البحرين دخان القنابل المسيّلة للدموع يملأ المكان .. وأطلق المرتزقة الرصاص وهوى بعض الشباب جرحى..

محمد يشاهد الشباب الغاضب يواجه بصدور عارية قوات المرتزقة المدججة بالسلاح وبالرغم من عنف المواجهة كان الشبّان في غاية البسالة والشجاعة والإقدام .. واستمرت المعركة الغير متكافئة إلى الغروب .. وخفّت حدّة الصراع .. ومع ارتفاع صوت الأذان يدعو المؤمنين إلى الصلاة .. توقف الصراع .. عاد محمد مع العائدين إلى بيوتهم .. بعد صلاة العشاء .. انتشر خبر استشهاد «علي مشيمع»[1] .. كان محمد

1. الشهيد علي مشيمع هو أول من سقط شهيداً في ثورة البحرين المباركة - الراوي

يتصفح مواقع التواصل .. وشاهد مقطع فيديو يصوّر عدداً كبيراً من الناس في «مستشفى السلمانية» في قسم «المشرحة» وظهرت أم الشهيد قوية ثابتة تخاطب الحاضرين .. تحثهم على مواصلة الطريق..

في اليوم التالي تم تنظيم تشييع مهيب للشهيد .. لم يشارك محمد في موكب تشييع الشهيد .. لديه التزام بالعمل .. إلّا أنّ ما حصل من تفاعل دفعت الشاب إلى متابعة تفاصيل «المشهد» .. كان يتابع أخبار التشييع الذي تحوّل إلى مسيرة احتجاج ضد النظام..

سقط شهيد آخر هو «فاضل متروك»[1]!!

ويعود محمد إلى البيت بعد انتهاء «الدوام» .. يتصل بابن عمه محمود .. عرف منه أن المحتجين المشاركين في موكب التشييع توجهوا إلى دوّار اللؤلؤة الذي أطلق عليه فيما بعد بـ«ميدان الشهادة» .. في دوار اللؤلؤة كان «المشهد» ساخناً جداً بسبب الحماس .. حماس العشرات من الشباب .. اقترح محمود على محمد التوجه إلى الدوّار .. إلى ميدان الشهادة .. هناك اندمج محمد في قلب المشهد .. وهنالك آمن بأن البحرين مقبلة على ثورة عارمة .. دماء الشهيدين .. ودماء الجرحى ستكتب بلونٍ قانٍ مستقبل هذا الوطن الأسير .. أصبح «محمد» جزءً من المشهد في دوّار اللؤلؤة .. يقول محمد أنه في يوم 16 فبراير اصطحبت معي أخي الصغير «مرتضى» وابن عمي «علي سلمان» إلى دوّار اللؤلؤة .. وكنت قد قررت المرابطة في الدوّار! والمبيت في «ميدان الشهادة»..

1. ثاني شهيد في ثورة البحرين المباركة، استشهد بعد أن تم استهدافه من قبل المرتزقة برصاص الشوزن الانشطاري - الراوي

لكنه في الساعة العاشرة يقرر إعادة شقيقه وابن عمه إلى سترة .. راوده شعور بأن مرتزقة النظام سيهاجمون الدوّار .. كان يخشى على حياة أخيه وابن عمه الصغيرين .. في البيت فكّر محمد أن يبات وينطلق إلى الدوّار صباحاً..

وفي الفجر أيقظت الأم ابنها محمد .. كان صوت أذان الفجر من «مسجد الغدير» ينفذ إلى البيوت .. حيّ على الصلاة! حيّ على الفلاح! حيّ على خير العمل! .. وفي طواياه دعوة رابعة: حيّ على الجهاد! .. أيقظت الأم تخبره بأنّ مرتزقة النظام هاجموا الدوار .. قالت الأم:

«الشغب» هجموا على الناس في الدوّار .. قم وتوجّه إلى الدوار .. ينهض محمد يتصل على محمود يدعوه إلى التوجه معاً إلى الدوّار .. لكن الأخبار تؤكد استحالة الوصول إليه بسبب شدّة الحصار والوصول إلى «المشهد» والالتحام بالثوّار بات مستحيلاً .. فتوجها إلى مستشفى السلمانية .. يشعر محمد بـ«الصدمة» في وجدانه جرّاء ما يرى من «مناظر» دامية تمزق القلب .. شباب جرحى أصيبوا بـ«الشوزن» وناس يبكون على أصدقائهم!! وشاع خبر استشهاد «علي خضير»[1] و«محمود أبو تاكي»[2] إثر ذلك انفجرت موجة غضب شعبي وانطلقت الجماهير

1. أحد الشهداء الذين سقطوا في مجزرة الخميس الدامي بعد هجوم المرتزقة غدراً على الشعب أثناء منتصف الليل، لاقى ربه بعد أن اخترقت شظايا الشوزن جسده الشريف - الراوي

2. أحد الشهداء الذين سقطوا في مجزرة الخميس الدامي بعد هجوم المرتزقة غدراً على الشعب أثناء منتصف الليل، وصل إلى معشوقه بعد أن تفتّت بدنه المبارك بالسلاح المحرّم دولياً «سلاح الشوزن الانشطاري» - الراوي

باتجاه الدوّار وهناك جرت اشتباكات عنيفة مع مرتزقة النظام .. كان يوم الخميس دامياً قانياً بعد سقوط شهداء آخرين .. فقد هوى «الحاج عيسى»[1] من منطقة كرزكان والشاب «علي المؤمن»[2] من جزيرة سترة التحق بالشهيدين على خضير ومحمود أبو تاكي..

في يوم الخميس الدامي قرر «محمد» الثورة ضد نظام آل خليفة .. «قررت أن أكون جزءً من هذه الثورة»!

هذا الشاب الذي يخطو باتجاه ربيعه العشرين يقرر الثورة .. يقرر أن يكون له دور فعّال في «الحراك الثوري» الجماهيري .. «يجب إسقاط هذا النظام المستبد .. الذي يقتل الشباب والأطفال ويضرب النساء» «هذا النظام لا يمكن التعايش معه أبداً!! نظام قمعي يبطش بمن يرفع صوته مطالباً بحقوقه كإنسان!».

تسجل الذاكرة كل ما يجده المرء مهماً في حياته .. تسجل الصورة والصوت والطعم والرائحة .. وتمّر السنوات ويقع العديد من الحوادث .. لكن بعض الحوادث تبقى تشعّ في ذاكرة «محمد» .. وفي مقدمة الحوادث ثورة 14 فبراير الجماهيرية ويوم نزول الجيش وحصار الدوّار .. وإعلان حالة «السلامة الوطنية» ومشاهد البطش والقتل والخطف والتعذيب الوحشي لشباب احتجوا في مسيرات سلمية!!

1. أحد الشهداء الذين سقطوا في مجزرة الخميس الدامي بعد هجوم المرتزقة غدراً على الشعب أثناء منتصف الليل، انتقل إلى العلي الأعلى مهشوم الرأس - الراوي

2. أحد الشهداء الذين سقطوا في مجزرة الخميس الدامي بعد هجوم المرتزقة غدراً على الشعب أثناء منتصف الليل، اشتهر بكلمته الشهيرة قبل انطلاقة ثورة الرابع عشر من فبراير وهي: «نخرج هنا وأعيننا على القدس» - الراوي

لقد دخل الصراع الدامي مرحلة جديدة .. صراع بين شعب أعزل ونظام مدجج بكل أسلحة القتل وأدوات التعذيب!

كان جالساً في بيته المفعم بالدفء العائلي .. ربما كان في هاجسه ما حدث في يوم 14 فبراير .. يوم لا يسنى أبداً .. لقد مرّ شهر على انطلاق ثورة شعب ينشد حياة حرّة كريمة .. شمس 15 مارس (آذار) تبزغ من جهة البحر تغمر جزيرة «سترة» بالنور .. تغمر قراها السبع .. قرية واديان الحالمة تستيقظ من خدر النوم .. فجأة تنطلق نداءات من «مسجد الغدير»:

يا أهالي «سترة» هبّوا إلى الشوارع!

كانت النداءات تحذر من هجوم وشيك سوف تتعرض له جزيرة «سترة»!

استحالت أرض سترة إلى ميدان كبير .. كل أهالي سترة كانوا مستعدين لأي هجوم قد يشنّه مرتزقة النظام الغاشم!

ومع ارتفاع أذان الظهر ظهرت قوات المرتزقة وبدأت عدوانها الوحشي، وتصدى الشباب للعدوان وسقط العديد من الثوار جرحى وأصابت رصاصة الغدر رأس «أحمد فرحان»[1] واستشهد على الفور .. انطفأت أنفاسه كما تنطفئ الشموع عند هبوب العاصفة!

تحولت «سترة» إلى مسرح رهيب لعمليات دموية رهيبة..

---

1. استشهد في مجزرة سترة البشعة بعد أن قاوم الاحتلال السعودي، فلم يتحمّل الاحتلال السعودي جرأته وشجاعته فأقدم على تهميش رأسه بأبشع صورةٍ ممكنة، وتحوّلت صورة رأسه المهشّم إلى صورة عالمية يتداوله الجميع - الرواي

يروي «محمد» ذكرياته عن هذا اليوم الدامي:

كنت إلى جانب أحد الشباب الثائر .. كنت مع «ن.ح» .. «ن.ح» يهوي فوق أرض المعركة .. أردته رصاصات «الشوزن» صريعاً خضبته الدماء .. كان يواجه المرتزقة وجهاً لوجه .. محمد يبادر إلى صديقه ورفيق دربه الدامي المرير .. أخذ بيده وقاده بصعوبة إلى أحد البيوت .. المرأة التي فتحت الباب انصدمت للمشهد الدامي «كان ن.ح ينزف دماً من رأسه إلى قدميه» قالت المرأة:

- لا تدخله! .. خذه إلى المستشفى بسيارتي!

في الطريق إلى المستشفى .. أجرى محمد اتصالاً مع «جلال الوزير» أخبره بأنه متوجه إلى المستشفى .. وجاء صوت جلال يحذره من التوجه إلى المستشفى:

- المستشفى محاصر ويتعرض للهجوم من المرتزقة!

محمد يقود السيارة نحو البيت، كان «ن.ح» قد فقد وعيه بسبب النزف .. محمد يسترق النظرات إلى رفيق الدرب .. كان ساكناً تماماً .. ساورته هواجس أن يكون قد انتقل إلى رحمة الله .. واصل طريقه إلى البيت .. عشرات البيوت بل مئات البيوت في جزيرة سترة كانت مشرعة الأبواب للثوار .. وجد محمد من يساعده .. مع ارتفاع أذان المغرب رفع الحصار عن مستشفى سترة .. بادر محمد إلى حمل صديقه إلى المستشفى..

يا للهول! أرضية المستشفى مصبوغة بالدماء .. دماء عشرات الشباب المتناثرين في الممرات .. الأطباء ينتحبون .. نفذت هذه المشاهد الدامية في تلافيف الذاكرة .. إنه يوم لن يُنسى أبداً..

في اليوم التالي 16 مارس هاجمت قوات من الجيش «الدوار» واحتلت جميع الشوارع المؤدية له وكان القتل والخطف بالمجان! وتم الإعلان عن حالة الطوارئ «حالة السلامة الوطنية»، تصورت سلطات النظام الخليفي الغاشم أنها قد قضت تماماً على الحراك!

انتهت حالة السلامة الوطنية واستأنف أهالي سترة حراكهم السلمي في مسيرات شعبية يتم تنظيمها في بعض القرى .. وكانت قرية «مهزة» مسقط رأس الشاب الباسل «أحمد فرحان» في طليعة قرى سترة وكان الحراك فيها مستمراً..

«محمد» كان يداوم الحضور في تلك القرية الثائرة، ويقرر محمد مع رفاق الدرب «علي فيصل»[1] و«علي بداح» و«جلال الوزير» و«محمود العرادي» وغيرهم تفعيل الحراك في قريته .. قرية «واديان».

وجرت مشاورات حول تشكيل مجموعة لإدارة الحراك في «واديان» وثم توزيع الأدوار؛ كل شخص يتحمل مهمةٍ ما.

«علي بداح» كان صوت الثورة، يطلق هتافات الشعب، «محمود العرادي» كانت مهمته إعداد الصور واللافتات وأعلام الوطن، و«علي فيصل» و«جلال الوزير» يقومان بتنظيم مسار المسيرة.

ويتحدث محمد طوق عن نفسه فيقول: أنا كان دوري التواصل مع قرى جزيرة سترة والتنسيق مع شبابها حول توقيتات المسيرات وعن شعاراتها وعناوينها..

---

1. شهيد مقاوم وقائد ميداني في منطقة واديان، وحيد الأبوين، وسيتم ذكره في الكتاب كثيراً - الرواي

كانـت البدايـة تنظيـم جـداول حـول الفعاليـات علـى مـدى الأسـبوع يتضمـن المسـيرات والأمسـيات الدعائيـة والوقفـات التضامنية لمسـاندة المعتقلين خلف قضبان السجون..

فـي الأيـام الأولى كان الحضور والتفاعل من قبل الناس ضعيفاً .. ربما بسبب الإعلام؛ لذلك عمد شباب الحراك إلى استثمار نظام «البلاك بيري» من أجل التواصل مع الناس وتعبئتهم وتحشـيدهم وحثهم على التضامن مـع الحراك الشـعبي؛ والإطلاع على التوقيتـات في تنظيم الفعاليات وفي الطليعة تنظيم المسيرات الجماهيرية..

يـروي «محمـد طوق» ذكرياته حول رسـالة شـفهية نقلهـا إليه صديقه «جعفر ناصر»:

الأخـوة فـي أحد الجهـات الثورية يـودون الاجتماع مـع مبعوثين من القرى في جزيرة سـترة .. من كل قرية يحضر شـخصان .. وكان الاجتماع في قرية «مهزة».

يعـد يومين يذهب محمد طـوق إلى قرية مهـزة للاجتماع بمندوبين مـن الجهة الثورية، كانوا ثلاثة أشـخاص وانعقـد الاجتماع بحضور ممثلى قرى سترة..

دار الحديـث حـول الدعـم المالـي للحـراك الثـوري ومسـاندة ودعـم المطلوبين وبرامج الثورة الشعبية..

في الاجتماع طلب محمد من مندوبي التيار التواصل مع التيار مباشرة منسـقاً لـه فـي قريـة واديان..مـرّت ثلاثـة أيام .. فـي اليـوم الثالث تلقى «محمد» إضافة من شخص يدعى «عماد» .. ومن خلال البلاك بيري بدأ

محمد طوق تواصله في التنسيق للحراك الثوري في قريته «واديان».

لقد مرّت فترة طويلة عليّ تلك الأيام .. لكنها من قوة التأثير في الضمير بحيث لا يمكن أن تنسى .. عادة ما يتراكم غبار النسيان وتغطي أتربة السنين الكثير من الحوادث التاريخية وتبقى بعض الحوادث تشع في النفس الإنسانية أبداً تنفض عن نفسها غبار التاريخ .. إن بعض الحوادث تواكب حركة التاريخ بل وأن بعضها يصنع التاريخ .. تحطم قضبان الزمن .. الماضي والحاضر .. وتصنع المستقبل..

محمد طوق يدخل مرحلة جديدة اصبح أكثر نشاطاً وأكثر فاعلية، ثمة شعلة تتوقد في أعماقه ونداء يضج في داخله يهتف به «إن على الإنسان ألا يموت دون معركة» .. تنامى الحراك الشعبي وبدأ يشكل تحدياً خطيراً لسلطات النظام الغاشم وبدأ التصادم مع المرتزقة يأخذ أشكالاً أخرى إلى جانب استمرار المسيرات الشعبية..

قاد محمد ورفاقه الثوار هجمات على مركز شرطة سترة حملت هذه الهجمات رسالة واضحة للنظام الغاشم .. يجب أن يفهم هذا النظام الجائر أن لدينا أنياباً ومخالب وعندما يقوم بقمع مظاهر الاحتجاج السلمي فإنه لن يبقى من خيار سوى المقابلة بالمثل!

وإنها لمحنة كبرى أن يكون الراعي ذئباً! وهنا تكمن مآسي الشعوب المقهورة فالهيئة السياسية التي يفترض أن تؤدي وظائفها الإدارية وتكون في خدمة الشعب تتحول إلى ذئب ووحش كاسر يتلذذ بالتهام ضحاياه من المواطنين!

يروي «محمد» ذكرياته في هذه الفترة من الصراع ضد مرتزقة النظام

.. كانت الأسلحة عبارة عن «أسياخ حديدية» وكان الثوار يقومون بجمع الزجاجات الفارغة ثم يقومون بملئها بالأصباغ واستهداف مركبات المرتزقة وقوات «المرتزقة» .. ثم بدأ العمل في استخدام «الملتوف»..

طبعاً كان الكثير من أهالي سترة يرفضون استخدام هذا السلاح الحارق!

مع إن شعار الثوار كان منذ البداية استخدام «أسياخ الحديد» والزجاجات المليئة بالصبغ وقنابل «الملتوف» التي هي عبارة عن زجاجة مليئة بالبنزين ومزودة بالفتائل! حتى الحجارة كانت تستخدم كسلاح لمواجهة الآلة العسكرية للنظام الخليفي..

يتذكر محمد طوق أول عملية مشتركة كانت إحراق مركبة تابعة للداخلية في قرية «الخارجية» .. مايزال يتذكر جيدا بعض التفاصيل..

جاء «ح.س» ليخبر محمد طوق قال له: سنهاجم مركبة للداخلية .. المركبة كانت متمركزة في «شارع الشهيد علي المؤمن» بالقرب من مزرعة «أستاذ إبراهيم» والمطلوب منا المشاركة .. محمد يتساءل عن «المخطط» وعدد محاور الهجوم .. أخذه «ح.س» بالسيارة إلى موقع العملية وأطلعه على التفاصيل!

- سيكون الهجوم من ثلاثة محاور و....
- المطلوب منا!
- المشاركة في الهجوم

هز محمد طوق رأسه وقال:

- سأتصل بالشباب

يروي محمد طوق كيف اتصل بـ«علي فيصل» صديقه الحميم والاجتماع مع الشباب في «مضيف أهل البيت» في قرية «واديان»..

في اليوم المحدد للهجوم تمت العملية بنجاح والتهمت النيران المركبة بالكامل .. وكان ذلك اليوم عيداً بالنسبة للشباب .. تبادلوا التهاني والفرحة تملأ نفوسهم، في اليوم التالي قام جلاوزة النظام بمداهمات على خلفية هجوم «مخربين» على مركبة تابعة لوزارة الداخلية .. تم اعتقال عدد من الشباب وملاحقة عدد وأصبحوا في عداد المطلوبين .. كان «صادق تقي» و«علي بداح» من ضمنهم وكذلك «محمد طوق» الذي يقول أن حملة المداهمات زادت من عزيمتي ومن إصراري على مواصلة الطريق .. طريق الثورة!!

في خياله خطط وخطط لعمليات هجومية .. في أعماقه يوجد ثائر عنيد يلوّح لآل خليفة: أنتم لا تفهمون إلا لغة القوة نحن كالمسامير لن تزيدنا المطرقة إلا ثباتاً!

الشاب البالغ من العمر الحادية والعشرين يدخل مرحلة جديدة في حياته .. يخوض تجربة مثيرة هو الآن مطارد ومطلوب للنظام..

مجموعة من الشباب الثائر في نفوسهم غضب مخزون من كربلاء .. في عيونهم أمل بالمستقبل .. عالم الغد الأخضر .. ثقافة عاشوراء شمس تسطع بالكرامة والشرف والإباء .. الحسين نشيد الملايين. .. لبيك ياحسين!

نداء قادم من أعماق التاريخ .. هيهات منا الذلة!

وصوت قادم من المستقبل .. من نجل الحسين من الذي يأتي في آخر الزمان..

هؤلاء الطواغيت حمقى لا يعرفون من يحاربون! إنهم يحاربون رجالاً أشداء يستقون صبرهم من صبر الحسين .. ويمدهم الأمل القادم من الوعد الحق بيوم الخلاص بالعزيمة والثبات والمقاومة..

يروي محمد طوق ذكرياته عن الحراك الثوري في قريته واديان، كان المرتزقة قد نصبوا كميناً وأثر هذا الكمين قبضوا على «محمود جاسم» و«حسين نوح» .. وتم نقلهم بعد أيام إلى سجن الحوض الجاف ويتلقى محمد طوق اتصالاً من «محمود» .. طلب محمود من رفيق دربه أن يحتاط في تحركاته ويكون في حالة حذر .. قال له: الضابط الذي حقق معي كان يسألني عنك باستمرار!

قال محمد في نفسه صرت مطارداً .. لا أحد يعرف المشاعر التي تموج في قلب شاب في ظروف محمد عندما يكتشف أنه بات ملاحقاً ومطلوباً من أجهزة أمن النظام!

محمد أصبح أكثر حذراً حتى عندما يعود إلى بيته كان يستطلع المكان جيداً .. وعندما يشعر بخلوه من «الغرباء» عندها يدخل البيت ويشعر بالأمان والدفء العائلي..

وعندما يتلقى أخباراً عن بدء مداهمات للمنازل كان يغادر البيت ويتوارى في مكان ما بعيداً عن «كلاب السلطة»!

لم أعد حراً .. لم أعد أشعر بالحرية .. أصبحت مطارداً! هذه هي مشاعر محمد .. كعصفور شريد يبحث عن عش دافئ .. محمد يودع

مرحلة الرخاء وفراغ البال .. هو الآن يحمل قضية .. قضية وطن يرزح تحت نير الاستبداد .. وطن يحاول النظام سلخه عن هويته .. هو الآن مطارد لا يشعر بالأمان بينما هؤلاء القادمون من الهند وباكستان ونفايات البعثيين يجنسون ويمنحهم النظام الخليفي الامتيازات!

يقال إن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم! جاء أحمد عبدالله إلى محمد وحصل اللقاء في إحدى الليالي .. أخبره أنه بصدد التخطيط لعملية هجوم على مركز شرطة سترة وشرح له المخطط سيكون الهجوم من ثلاثة محاور والسلاح هو زجاجات المولوتوف..

سوف يكون الهجوم من جهة «واديان» و«مركوبان» و«أبوالعيش» .. من هذه القرى الثلاث سنقوم بتشتيت انتباه العدو وإحداث أكبر عدد من الإصابات .. محمد يوافق على الفور .. أصبح شعاره أن على المرء ألا يموت دون معركة .. بدأ التنسيق مع الشباب في مناطق سترة .. وتم تعيين ساعة الصفر: السابعة صباحاً في يوم 25 آب 2012م..

وفي هذه الساعة المبكرة من الصباح بدأ الهجوم على مركز شرطة سترة ممتزجاً بتلاوة آية من القرآن الكريم..

عناصر الشرطة تفر مذعورة في كل اتجاه .. كان الهجوم قوياً .. تمكن الشباب من غنم شنطة مليئة بالقنابل المسيلة للدموع .. ردت السلطات باستنفار أمني مكثف في المنطقة المحيطة بالمركز وبعد ساعات صدر بيان عن وزارة الداخلية يفيد بقيام خمسين إرهابياً بالهجوم على مركز شرطة سترة بقنابل المولوتوف وأن التحريات ما تزال مستمرة لتحديد هويات المهاجمين..

تبادل الشباب أحر التهاني وسادت الفرحة جراء إذلال العدو .. هذه هي الحقيقة أن أعداءنا عبارة عن فئران وجرذان .. مرت ثلاثة أيام بالضبط .. كان محمد ما يزال نائماً عندما تلقى اتصالاً من صديقه محمود العرادي يطلب منه مغادرة المنزل فوراً .. واديان تتعرض لحملة شرسة للقبض على المطلوبين .. غادر محمد البيت على وجه السرعة ابتعد حوالي مئتي متر عندما شاهد الشرطة تحاصر البيت كانت أم محمد وحدها في البيت..

رفس شرطي الباب وسط صيحات جنونية بفتحه فوراً .. أبو محمد كان قد توجه إلى عمله وأخوة محمد ذهبوا إلى مدارسهم..

اقتحموا الغرف وكانوا يظنون أنهم سوف يقبضون على محمد .. حطموا محتويات المنزل .. كان الهجوم بقيادة الضابط «تركي الماجد» الذي بادر الأم بالسؤال:

- أين ابنك؟!

- ما أدري!

هذه إحضارية .. أفضل أن يسلم نفسه للعدالة لأنه مطلوب ولا يمكنه مغادرة البحرين ولا يمكنه الاختفاء..

وهنا صاح شرطي:

- سيدي هذه رصاصة

الأم وهي تبتسم بسخرية:

- هذه ليست رصاصة .. ليتر تدخين .. لكن أنتم من الخوف

تشوفوها رصاصة

قال أحد الجلاوزة:

- الله هداكي .. محمد ياخذ ليتر جدي؟!

تسلمت الأم إحضارية تلزم ابنها بالحضور في مبنى «التحقيقات الجنائية» .. غادر مرتزقة النظام المنزل .. عرف محمد أن الشرطة داهمت منازل العديد من الشباب المطلوبين من بينهم مطلوبين جدد مثل «علي فيصل» و«محمود العرادي» وآخرين!

يشعر المرء المطارد من قبل الأجهزة الأمنية والكلاب البوليسية أن الأرض تبدو ضيقة .. ضيقة جداً .. المطارد الذي لا يمكنه أن يجد المأوى الآمن .. والمكان الذي يستقر فيه يشعر بوضوح أن الأرض تضيق وتضيق .. وقد يغامره شعور بضرورة الهروب .. الهجرة إلى مكان آمن!

وتمر الأيام والأسابيع .. كان محمد يتواصل مع رفاقه من خلال «البلاك بيري»..

أطل شهر رمضان المبارك كان ذلك في نهايات شهر حزيران 2013م..

وفي أول يوم من هذا الشهر الكريم التقى محمد عمه الذي بادره بالقول:

- تعال في كل ليلة لتفطر معي! لا تنسى ذلك يا بن أخي! في كل ليلة..

- يا عمي لا أستطيع .. قد يداهمون البيت ويقومون باعتقالي!

أصر العم على موقفه وقال:

- لن أفطر حتى تأتي لتفطر معي!

مـرّت الليالـي ذات ليلة لم يسـتطع محمد الحضـور في بيت عمه ربما كان يمنعـه الحيـاء! وإذا بابـن عمـه يبحـث عنه ثم يخبره بـأن والده لم يفطر وهو ينتظرك!

يروي محمد ما جرى في مساء يوم 13 تموز 2013م كان ليلة قدر في أواخر شهر رمضان المبارك..

بعـد أداء صـلاة المغرب .. مدت السـفرة للإفطـار .. قبل أن يمد يده تلقى محمد اتصالاً عبر «البلاك بيري» كان «إبراهيم المؤمن» على الخط..

- محمد عندي خبر غير جيد .. وأريدك تتأكد منه..
- خير ان شاء الله؟!
- محمـود العـرادي تعرض لحادث قـوي!! أريـد أن تتأكد من صحة الخبر
- من أين سمعت بالخبر؟!
- أحد الأصدقاء اتصل وأخبرني
- لا أتصور .. مع ذلك أتأكد وأخبرك!

في نفسه رغبة عارمة بتكذيب الخبر.. مد يده للطعام تناول تمرة .. إبراهيم يعاود الاتصال:

- مع الأسف!! الخبر صحيح .. استشهد محمود

لم يتحمل محمد الصدمة .. نهض وهو يسأل:

- في أي شارع؟!

جاء ردّ إبراهيم حزيناً:

- على شارع قرية «العكر»

العم عيسى يخاطب ابن أخيه المفجوع:

- ماذا بك!! اجلس وكل فطورك

- أنا رايح فعلا .. ارجع..

غادر بيت العم .. رجلاه تخوناه وهو يتوجه إلى بيت محمد رضي .. كان محمد يعرف أن محمود يفطر في بيت محمد رضي في كل ليلة..

دموعه تسيل وهو يركض .. كان محمد رضي جالساً عند الباب .. محمد يبادره بالسؤال وهو مبهور الأنفاس:

- وين محمود؟!

- سيأتي

- من أين تعرف أنه سيأتي

- قبل نص ساعة اتصل وأخبرني أنه سيأتي

- سمعت أنه تعرض لحادث .. وإصابته خطيرة جداً!!

تغيرت ملامح وجه محمد رضي ونهض:

كيف ومتى؟! هو أخبرني أنه قادم .. أنا هنا بانتظاره!

- تعال لنذهب إلى مكان الحادث ونتأكد..

وصل محمد طوق ومحمد رضي إلى مسرح الجريمة .. كان المرتزقة قد فرضوا حصاراً على المكان .. وفي الأثناء تلقى محمد على النقال صورة محمود .. كان قد لفظ أنفاسه .. التفت إلى محمد رضي وأخبره:

- محمود .. توفي!!

توجها إلى منزل الشهيد «محمود العرادي» وانتشر الخبر في جزيرة سترة .. وكان الناس متجمهرين أمام البيت المنكوب!

أمضى محمد لياليه مطارداً .. كانت «المزرعة» مأوى مثالياً بالنسبة له .. هل كان يخامره شعور ما عندما يجد نفسه بين «الخيل» و«الليل» و«البيداء»!

هل كان يشعر بالأمان؟!

كان أبناء عمومته يقولون له: لا تنام هني! لأن خطر عليك .. المزرعة في مكان خالي .. بعيد عن السكان .. في وسط البراري..

كانت هواجس تساورهم من هجوم قد يقوم به مرتزقة النظام .. ولا يكون باستطاعة محمد الإفلات منهم..

كان محمد يطمئنهم بالقول:

- سأبحث عن مكان أفضل ان شاء الله!!

أبناء العمومة لا يعرفون بأنه ليس من السهل أن يحصل المرء على مكان آمن .. مكان يأوي المطارد ويقيه خطر المطاردة..

عيون المخبرين تتلصص وأنوفهم كما هي أنوف الكلاب تستطيع الكشف عن المطلوبين والقبض عليهم .. أحياناً كان محمد يبات في

بيته .. ولاحظ قلق والديه .. كانت أمه تمضي الليل قرب النافذة تسترق السمع فقد يهاجم الشرطة البيت .. تساوره المخاوف وتسرق من عينيه حلاوة النوم..

وكان محمد يتألم لمعاناة والديه .. ولكن ما في اليد حيلة!!

عندما يعود محمد للبيت .. كان يقصد الدار في وقت متأخر من الليل .. يفعل ذلك حتى لا يعكر صفو النوم على والديه .. يا لعذاب الأمهات!!

ما يزال محمد يتذكر كيف يتمدد في فراشه في غرفته..

عيناه مغمضتان وقلبه مفتوح .. ولاحظ أن والدته كانت تفتح باب الغرفة كل خمس عشرة دقيقة .. لتطمئن على ولدها!

كان محمد يمضي ساعات الليل إلى وقت متأخر مع رفاق الدرب «جلال» «صادق» و«علي» وعندما يشعر بالنعاس والتعب جراء السهر الطويل كان يقول لرفاقه أنه ذاهب إلى المكان الذي يختبئ فيه! وكان في الحقيقة يتوجه إلى بيته ويدخل الدار على أطراف قدميه!! لا يريد أن يوقظ والديه ويتسبب في إثارة مخاوفهم! هكذا كان الشباب المطاردون يوهم بعضهم بعضاً!

بعد فترة أخبر صادق تقي «محمد طوق»: وجدنا منزلاً نأوي إليه! أنا وأنت وعلي فيصل وجلال .. وهكذا كان الشباب يقصدون المنزل ليلاً لكي يناموا في أمان وسلام .. في المساء وبعد ما تأوي العصافير إلى أعشاشها .. يلتقي الأصدقاء في هذا المنزل .. أمضوا أياماً .. ولكن هذا المكان يبقى مؤقتاً في كل الأحوال .. فالظروف لا تسمح بالاستقرار فترة

طويلة حفاظاً على الشباب من الاعتقال وأيضاً خوفاً على أصحاب المنزل من تبعات إيواء مطلوبين للنظام!

كان محمد متوجها إلى قرية واديان .. قريته ومسقط رأسه وربوع ذكرياته .. ذكريات طفولته ومهد صباه .. وصادف امرأة يخفق قلبها للثورة وكانت تتعاطف مع المطلوبين كانت هذه المرأة تعرفه جيداً .. تعرف أنه في طريقه إلى واديان للمشاركة في المسيرة .. قالت له وهي تحاوره!

عندنا شقة فارغة .. بإمكانكم أن تستقروا فيها!

تدفق نبع من الفرح وأضاء الأمل في قلبه ليس لعثوره على مكان يستقر فيه مع رفاقه! بل أيضاً لهذا الموقف المساند وهذا التضامن مع الثورة .. أدرك محمد أنه ومعه كل الشباب ليسوا وحدهم إنهم يحظون بمساندة الشعب وهذا شيء مهم جداً في حياة الشباب الذين نذروا أنفسهم للخلاص من نير الطغاة..

قال في نفسه: وأخيراً حصلنا على مكان يحفظنا ويحمينا من الاعتقال والتشرد في منتصف الليل..

ومن التسكع في الدروب الغارقة في الظلام .. محمد ليس الوحيد من يعيش هكذا ظروف صعبة .. كل المطاردين يمرون بهذه الظروف..

لهذا فهو عندما يروي قصته .. فإنما يريد رواية قصة هذا الجيل من شباب البحرين .. قصة محمد طوق لا تمثل قصة شاب تعرض للمطاردة بسبب رفضه للطغيان والاستبداد .. إنها قصة وطن مكبل بالسلاسل والأغلال يريد حكامه المستبدون سلخه عن هويته .. يريدون مسخ

ثقافته من خلال قمع أهله الأصلاء وتجنيس الغرباء!

أخبر محمد أصدقاءه ورفاق الدرب المرير: بعثوره على شـقة .. كانوا خمسة شبّان تخفق قلوبهم للوطن والحرية والكرامة الإنسانية..

«محمد طوق» و«علي فيصل» و«جلال الوزير» و«صادق تقي» و«علي بداح» .. قدر لهؤلاء الشباب أن يعيشوا تحت سقف واحد..

يتحسر «محمد طوق» الذي طوّحت به الأيام فيما بعد، على ذكرياته مع رفاقه .. ذكريات مريرة وأخرى حلوة .. «علي فيصل» بوجهه البشوش ومزاحه الحلو..

ابتسـامته التـي أصبحـت جـزءً أساسـياً من ملامـح وجهه حتـى عندما ينام .. كانت الابتسـامة لا تنفك .. تشـع على وجهه كشـمس توشك على المغيب!

«علـي بـداح» كان يطهـو الطعـام وكان لا يعجـب مذاقـه، بعضهـم كان يتأفـف .. وعلـي بـداح يتوعدنـا إذا سـخرنا من طعامـه بالعودة إلى بيت والده وعندما يعتقلونه فإنه سـوف يدل على الشـقة!! وكان الرفاق يستغرقون في الضحك .. ومحمد طوق يحمّل صادق تقي ويقول له أنت السبب في ذلك!

وتتـوارد الذكريـات كشـريط يمـر أمـام عينيـه يسـتعيد ذكريـات الأيام الخوالـي .. أيـام الراحـة .. كل شـيء يمضـي ويسـير بانتظام .. كل شـيء متوفر .. يستيقظ صباحاً يصحو من النوم .. يجد الفطور جاهزاً على طبق من حنان الأمومة ذلك النبع السـماوي الفياض .. وعندما يعود من عمله ظهراً يجد غداءه على مائدة الحب تغدقه الأمهات دونما حساب والآن

يشعر بالحرمان فجأة!! كل هذه الأشياء فقدها بعيداً عن حنان الأم .. بعيداً عن دفء الأمومة وظلال الأبوة .. كنبتة برية عليه أن يعيش .. يجهز طعامه بنفسه .. كان يطبخ لنفسه ولرفاقه .. هناك شعر بالجهد والعناء الذي كانت والدته تعانيه .. كانت تجهد نفسها لتصنع من البيت واحة مفعمة بالحب والدفء والسلام، كان همها راحة أولادها .. تطهو الطعام وتغسل الثياب أما الآن فعليه أن يطهو طعامه ويغسل ثيابه..

بالأمس عندما كان يشعر بوعكة في بدنه وكان أبواه يسهران من أجله وتمريضه ويتربع على العرش ويسجد في طاعته والداه!! أما الآن فهو وحيد .. يعاني صحياً فلا يجد من يسهر على تمريضه ولا يرى إلى جانبه أحدا!!

بالأمس القريب .. كان يضع رأسه على الوسادة وينعم بسكينة الليل وهدوئه .. هادئ البال لا هواجس ولا قلق .. أما الآن فلا تغمض عيناه .. أحياناً يبقى ساهراً حتى الصباح يسلبه القلق حلاوة النوم .. لا يدري متى سيشن المرتزقة هجومهم .. ربما كشف النظام مخبأهم ولعل جلاوزة أجهزة الأمن قد استكملت خطة الهجوم .. كان مهدداً بالاعتقال في أيّة لحظة .. سوف يساق إلى أقبية التعذيب في سجون آل خليفة!

كم ذرف دموع الحنين إلى والدته وهو يقوم بغسل الصحون وتنظيف الحمامات .. صورة والدته لا تفارق خياله والآن يدرك جيداً معاناة الأمهات..

في قرارة نفسه كان يشعر بأنه كان ملكاً أطيح به وأنزل من علياء عرشه .. في قرارة نفسه كان يشعر بأنه كان في نعمة كبرى من نعم

الله سبحانه..

فيما مضى عندما كان يهل شهر رمضان مبتسماً .. كان يبتسم ويتطلع إلى لياليه الحالمة مستشعراً بدفء الأسرة وحنان العائلة ودفء الأهل .. كل الناس كانوا يفطرون مع عوائلهم يلتئم شمل الأسرة حول السفرة وفيها ما لذ وطاب! يفطرون فرحين..

«أما أنا فلا أستطيع الذهاب والعودة إلى منزلي» قالها في أعماقه بحسرة وألم!

كان فيما مضى وبعد الإفطار يذهب إلى بيت عمه .. ليحضر مجلسه الخاص بقراءة القرآن الكريم..

أما الآن فإنه يفطر على «سندويش» ويتسحر بـ«سندويش» لم يكن همه الطعام .. كان يتحسر لأنه لم يعد يستطيع العيش كما مضى..

أحيانا يتلقى اتصالاً من والدته ويتحدث معها من خلال «البلاك بيري» .. تسأله عن أحواله وأخباره وكان يطمئنها كان يقول لها: أنا بخير .. اطمئني يا أمي الحبيبة!

يقول ذلك بينما عيناه تغرقان بالدموع كسماء ممطرة!

أدرك «محمد» معاناة أبويه!

يحن إلى تلك الليالي عندما كان يجلس مع والده وعمه «سلمان» عند باب البيت .. ويشعر بنكهة الأحاديث وابتساماتهم المشرقة..

آه أنا لا أستطيع بعد اليوم أن أجلس معهم!!

أحيانا يشده الشوق إلى تلك الجلسات الجميلة .. فتقوده قدماه

.. ومـن بعيـد ينظر بحسـرة إلى أبيه وعمه يتجاذبان أطـراف الحديث .. فيبكـي شـوقاً ويبكـي حنيناً ويشـده الشـوق إلـى بيته .. تشـده العواطف الفياضـة .. ولكن سـيف الاعتقـال والتعذيب يمنعه حتى من الاقتراب .. كمسـافر مجهـد .. كظامئ ينظـر إلى واحة محاصرة بالذئـاب إنه لا يجرؤ على الاقتراب .. هكذا كانت حياة «محمد» في أيام المطاردة..

آه أيـن تلـك الأيـام الجميلـة! أيـن تلـك الأماسـي الحالمة مـع الأحبة وأبنـاء العمومـة فـي المزرعة .. أيـن الخيل والليل والانطـلاق في البراري حرّاً طليقاً!

لقـد تغيّـرت حياتـه .. أجـل تغيـرت كثيـراً .. أحياناً يتلقـى اتصالاً من والدته تسأله عن أحواله وعادة ما كانت تتصل بعد صلاة الظهر..

كان يطمئنها .. تسأله عن غداءه .. عن نوع الغذاء .. فيحوّل الجواب إلـى سـؤال يقولها: أخبريني أنـتِ عن غدائكم فتخبـره .. هنالك يقول لها إن غـداءه مشـابه .. يقـول لهـا ذلـك حتـى تتنـاول غداءها وتهنـأ به! إنه يعلم جيداً إذا أخبرها بغدائه .. إذا قال لها أن غداءه خبر و«روب» فإنها ستغص بطعامها وتعزف عن الأكل..

أصبح محمد كثير الاهتمام بالمناسبات .. يترقب حلول المناسبة قبل أيـام .. يعـدّ السـاعات .. إنها فرصته الوحيدة للقـاء والده وأخوته .. كان يتوجـه إلـى «مضيـف أهل البيـت» في قريتـه الحبيبة «واديـان» من أجل لقاء والده الحبيب .. يجلس إلى جانبه يسـتمتع بحنانه .. يشـعر بالأمان .. فالمرتزقة لا يجرؤون على مهاجمة هذه الأماكن في المناسبات .. أما لقاء الأم فكان يتم أثناء الفعاليات..

ما يؤلمه أنه لا يستطيع رؤية أمه إلّا في الشارع هنالك يهفو قلبه إليها وينطلق نحوها بشوق وكانت الأمن تحتضن ولدها بلهفة وحب وحنان .. كان يشعر بالأمان

- عندما أراها أتوجه إليها .. تحضنني وأشعر بالأمان في حضن أمي..

كان محمد يعمل في «صيدلية وائل» وكان يقوم بنقل الأدوية إلى بعض المستشفيات والصيدليات .. وخلال العمل أحب زملاءه وأحبوه .. وأحب العمل معهم .. لكن محمد اضطر إلى ترك العمل! لقد أصبح مطارداً .. مطلوباً من أجهزة أمن النظام .. الشوارع مليئة بنقاط التفتيش .. المرتزقة يتمركزون في جميع الشوارع الرئيسية .. لهذا اضطر محمد إلى أن يترك عمله .. أصبح محمد عاطلاً عن العمل يعاني من الحرمان .. لم يعد لديه «دخل»!

لا أحد يدري متى وكيف راودته فكرة الهجرة .. نداء ضج في أعماقه لا بد من الرحيل!

لم يعد له مكان في هذه الجزيرة .. لم يعد لديه مكان في هذه القرية وصدق الله حيث يقول: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾[1].

الهندي والباكستاني والفلبيني ونفايات البعثيين يمنحون الجنسية البحرينية .. أما ابن البلد الأصيل فيعاني من المطاردة والتشرّد .. ويهدد بإسقاط جنسيته!

---

1. النمل: ٣٤

آل خليفة يجعلون من الوطن سجناً للأحرار .. ومرتعاً للأغيار! آه يا وطني المحتل!

اشتدت حملات الاعتقال .. وكان المعتقلون يتعرضون للتحقيق والاستجواب والسؤال دائماً عن محمد طوق!! الدائرة تضيق وتضيق .. وتحذيرات من الشباب أن أخرج قبل فوات الأوان .. نصبت أجهزة الأمن بعض الكمائن .. الدائرة تضيق أكثر فأكثر .. وهاجس الهجرة يشتد ويشتد .. لا بد من الرحيل .. أجل لا مناص من ترك البلاد!!!

الفصل الثاني: هاجس الرحيل

وتعود الذاكرة إلى سبع سنوات خلت .. إلى عام 2013م وقد اشتد الحراك الشعبي في مناطق واسعة ومن أرض الوطن المقهور .. المقاومة تتسع .. تنتشر .. تنفذ في وجدان المجتمع .. في قريته «واديان» الشبّان البواسل يتحركون بقوّة .. ليكون خيار المقاومة في هذه القرية الصامدة .. الدائرة تضيق على «محمد طوق» .. الشبّان الذين يتعرضون للاعتقال يخضعون للتحقيق والاستجواب والاسئلة (الأمنية) تتجه إلى شاب في مقتبل العمر اسمه «محمد طوق»..

محمد أصبح أحد المطلوبين لأجهزة النظام الأمنية .. المخبرون ينتشرون في أماكن عديدة .. ينصبون الكمائن هنا وهناك .. يروي «محمد طوق» عن تلك الأيام فيقول:

في قريتي .. في واديان كان النظام يركز على جميع من له دور في الحراك .. وراح يشدد مراقبته .. ويقوم بالمداهمات والاعتقالات، ويتركز التحقيق مع المعتقلين حولي .. كانوا يجمعون المعلومات التي تمكنهم من الوصول إليّ .. نصبوا عدداً من الكمائن، ذات يوم كنت

مع صديقي ورفيق الدرب «علي فيصل» ومعنا «جلال الوزير» و«صادق تقي» وأصدقاء آخرين .. كنا جالسين في أحد مضائف قريتي «واديان» .. كانت عيون المخبرين تلاحقنا .. فجأة ظهرت سيارات المرتزقة تحيط بالمكان .. بادرنا بالهروب ودخلنا أحد المنازل .. المرتزقة يحاصرون المنازل ويداهمون الدور .. ووصلوا إلى المنزل الذي اختبأنا فيه .. لجأنا إلى السطح واختبأنا في المخزن .. اتصلت على «الشباب» في القرى المجاورة طلبت النجدة .. كانت الدقائق تمضي بسرعة والمرتزقة يقتربون من القبض علينا! فجأة تناهى إلى أسماعنا أصوات إطلاق الرصاص!

- هبّ الشبان البواسل لنجدة رفاقهم في طريق المقاومة .. الشباب المقاوم يشددون الهجوم على المرتزقة لكسر طوق الحصار عن محمد طوق ورفاقه..
- استمرت المعركة حدود ساعة كاملة واضطر المرتزقة للانسحاب .. ادركوا أنهم يخوضون معركة خاسرة مع شباب يستبسل في القتال .. يستمدّ عزمه وإصراره من عدالة قضيته!
- تلقى محمد طوق اتصالاً من خلال «البلاك بيري»: المرتزقة انسحبوا .. غادروا المنزل بسرعة..
- خرجنا من المنزل ورأينا الشباب الذين هبّوا لنجدتنا .. شعرت بالاعتزاز .. كان نصراً كبيراً..
- كثفت أجهزة أمن النظام من المراقبة .. عيون المخبرين تلاحق محمد طوق ورفاقه .. بعد يومين وعندما حلّ الظلام وكان محمد

طوق وعلي فيصل في المخبأ .. قال علي:

- لنذهب إلى المطعم ونشتري عشاءً..

توجها إلى المطعم وفور وصولنا إذا بسيارات المرتزقة تصل على وجه السرعة .. كانوا كالمجانين ركضا بأقصى سرعة ليغيبا في الأزقة القريبة، وبسبب السرعة والارتباك شاء اللطف الإلهي أن تصطدم إحدى سيارات المرتزقة بالجدار وهذا وفر لنا فرصة للفرار والإفلات..

كانت فترة عصيبة .. يقول محمد طوق وهو يروي حوادث تلك الأيام..

- كانت هذه الفترة من أصعب الفترات في حياتي .. كنت لا أستطيع زيارة قريتي إلا عندما يحصل نشاط ويقوم الشباب بإحدى الفعاليات من مسيرات احتجاجية .. وعندما تنتهي الفعالية يعود محمد طوق إلى المكان الذي يختبئ فيه ليكون بأمان من الاعتقال!

يروي محمد طوق ما جرى من حوادث في السادس من تموز عام 2013م؛ عندما جرت مواجهة بين الشباب المقاوم ومرتزقة النظام في قرية «واديان» و«الخارجية» ودوّى انفجار مهيب، يقول «محمد»:

- بعد نصف ساعة من انسحابنا من الساحة، شاهدت في «الجوّال» البيان الذي أصدرته وزارة الداخلية يفيد بوقوع انفجار في «سترة» في قرية واديان؛ وأشار البيان إلى سقوط أحد عناصرها قتيلاً!

إنّ على أجهزة أمن النظام الخليفي أن تدرك أن لنا أنياباً ومخالباً وأن

الضغـوط الأمنيـة والقهـر والتعسـف ومصـادرة الحقوق لا بـدّ وأن تؤدي انفجار الغضب الشعبي..

وإن الجماهيـر دائمـاً هـي أقوى من الطغاة .. مهمـا تفرعن الطغاة .. وقد تصبر لكنها لن تستسلم..

في المساء عندما خيّم الظلام على سترة وقراها .. تعرض العديد من المنازل إلى مداهمات وحشـية، بما في ذلك منزل «أبو محمد» في قرية واديان..

«محمد طوق» بعد هذا الانفجار أصبح في عداد «المطلوبين الأوائل» .. اسـتحال منـزل «محمد طوق» إلى قلعة صغيـرة تتعرض للهجوم يومياً والمطلـوب القبـض علـى «محمد» الذي اضطـر للاختباء في أحـد المنازل ولـم يعـد قادراً علـى مغـادرة «المخبأ» .. المخبـرون والمرتزقـة يبحثون عنـه .. تعـرّض الكثيرون ممن اعتقلوا في هـذه المداهمات إلى التعذيب القاسـي لكشـف عن المكان الذي يختبئ فيه .. وعندما يفرج عنهم كانوا يوجهون رسائلهم وتهديداتهم باغتصابه .. وقتله..

لـم يبـق أمامه إلّا أن يفكر بالرحيل .. الهجرة هي طريق الخلاص من كل هذه المعاناة:

- خطرت في بالي فكرة الهجرة والهروب إلى خارج البحرين

ابـن عمـه ينقـل إليـه أخبـار المداهمـات اليوميـة للقبض عليـه .. وقد أصبح الآن متهماً بقضية التفجير ومقتل أحد عناصر المرتزقة!

ابن العم الذي كان يتابع أحوال محمد ويهتم لمصيره هو الآخر اقترح

عليه الخروج ومغادرة البحرين .. بل كان يصرّ عليه .. لم يعد البقاء في البحرين أمراً صحيحاً..

محمد لم يحسم أمره .. ما يزال يتهيّب «الهجرة» هواجس الغربة والعيش بعيداً عن الوطن والأهل والأحبّة مجازفة قد يصعب تحملها وتحمل تداعياتها..

حقاً إن الغربة أقسى من وجوه الجلادين .. بعد أيام يلتقي محمد «علي بداح» وعلي يخبره بأنه ينوي الخروج من البلاد .. ليس وحده؛ هناك مجموعة من الشباب يستعدون للخروج، قال علي بداح:

- إذا أردت الخروج فعليك أن تتواصل معهم!

ترسخت لدى محمد فكرة الهجرة وراح يفكر في الوجه الآخر من الهجرة .. السفر إلى أرض علي والحسين .. العراق بلد العتبات المقدسة .. الهجرة تعني زيارة مشهد الإمام علي بن موسى الرضا وشقيقته فاطمة المعصومة! الهجرة لا تعني الغربة فقط!

أجنحة الخيال تأخذه بعيداً .. تعبر به «البحرين» إلى أرض المقدسات .. وسرعان ما تساوره هواجس الغربة! هل يمقدوره مفارقة «سترة» و«واديان» .. هل استطيع مفارقة أرض البحرين وسمائها؟!

من الطبيعي أن تكون فكرة الهجرة إلى الخارج هاجساً مقلقاً لشاب في مثل ظروف محمد الذي يواجه أولى تجاربه المثيرة!

هذه أول مرّة في حياته .. لذلك كانت الأفكار تتراكض في خياله كخيول مجنونة .. أحياناً يجنح به الخيال فيرى نفسه في أرض العراق ..

أرض علي والحسين عليهما السلام وأحياناً يجد نفسه في أرض إيران يزور مشهد الإمام الرضا عليه السلام وشقيقته في ميدنة قم .. ثم تتهشم هذه الصور أمام فكرة السفر في قارب عبر البحر بعيداً عن عيون المرتزقة الذين باتوا يطاردون خطواته الضائعة في كل مكان..

أخبره بعض من له خبرة أنّ الرحلة في القارب سوف تستغرق ست ساعات تقريباً .. تكمن خطورتها عندما يكون القارب في المياة الإقليمية لاحتمالات وقوعها في قبضة الشرطة!

وأخيراً حسم محمد مسألة الهجرة وحزم أمره وعزم وتوكل على الله .. تعيّن عليه أن يخبر والديه وبعض أصدقائه بقراره وعزمه!

انتظر محمد اجتياز الوقت منتصف الليل لكي يأخذ طريقه إلى المنزل .. كان الظلام قد نشر أجنحته وخيّمت السكينة .. سكينة الليل على واديان قريته الحبيبة ومهد صباه .. لم ينتبه أحد إليه وهو يدخل البيت..

دخل على أبيه اللذي فرِحَ بقدومه وابتسم له رغم النعاس..

قفز طائر الكرى وغادر الجفون عندما أخبر محمد والده بعزمه على مغادرة البلد .. قال له وهو يحاوره:

- ترى الأوضاع التي أمر بها جيّداً .. في هذه الفترة ازدادت الكمائن والمداهمات والآن أواجه قضية تفجير .. ووصلتني تهديداتهم من خلال المعتقلين .. يهددوني بالقتل .. لهذا اتخذت قراراً بالهروب إلى الخارج..
- إلى أين؟!

قالها الأب بقلق ومرارة!

قال محمد:

- إلى إيران .. لا يوجد بلد يمكن اللجوء إليه إلّا إيران

نزل الخبر كالصاعقة على أبيه!

ابنه وفلذة كبده يريد السفر إلى المجهول في رحلة مليئة بالمخاطر .. مخاطر البحر! يريد الهروب من البحرين إلى عرض البحر!

النظرات تلتقي .. العيون تبدو كسماوات مشحونة بالغيوم الممطرة .. القلوب يعتصرها الألم .. وخيّم صمت مهيب كسره الأب وهو يقول:

- يصعب عليّ فراقك يا ولدي .. ويصعب عليك فراق الوطن والأحبة والديار .. لكن في سفرك نجاة من هؤلاء الأشرار .. ستعيش هناك في أمان..

الأب الحنون هزّ رأسه مجدداً، قال متسائلاً:

- هل فكرت جيّداً يا بنيّ؟! هل بمقدروك تحمل الغربة؟!

قال محمد بإصرار وعزيمة:

- نعم .. لقد فكرت ألف مرّة في هذا الموضوع .. الظروف تضطرني الآن إلى مغادرة البلد..

قال الأب بحزن:

- إذن توكل على الله يا ولدي..

واستدرك قائلاً:

- لا تخبـر أحـداً بأنك تنوي الهروب من البلد .. حتى أخواتك وأخاك .. لا تخبر أحداً أبداً!

امتد بهم الحديث إلى السـحر .. أشـار الوالد على ابنه أن يغادر البيت قبل طلوع الفجر .. فقد يداهم المرتزقة المنزل في أية لحظة!

فـي اليـوم التالي ومن خلال «البلاك بيري» أجـرى محمد طوق اتصالاً وتحدث إلى صديقه «ج» وفاتحه بقضية السفر والهروب إلى خارج البلد وطلـب منـه المسـاعدة مـن خلال ربطـه أو توصيله إلى شـخص يسـتطيع تقديم المساعدة!

«ج» سـجّل موقفـه المعارض بشـدّة، لكن محمد شـرح الظروف التي تحيطه..

أذعـن «ج» للأمـر الواقـع ووعـد صديقه الحبيـب خيـراً .. أجرى «ج» اتصالات مع عدد من أصدقائه وبعد يومين من التواصل والحصول على من يثق بهم .. أخبرصديقه وزفّ إليه البشـرى .. تسـلّم محمد «الوصلة» علـى البـلاك بيـري ومن خلال هـذه الوصلة تعيّن على محمـد أن يتواصل مع ذلك الشخص الذي عبّر عن استعداده لتقديم العون..

لم يكن محمد يعرف هويته ومن يكون .. قال له أنا اتصل من طرف «ج» .. الشـخص طلـب مـن محمـد أن ينتظـر .. تحـدث الشـخص برويّة وهدوء .. قال له:

- أنـه يعـرف هـذا الموضـوع .. أخبرنـي «ج» ببعـض التفاصيل .. لا تقلـق أبـداً .. سـوف اتصـل عليك في وقت لاحـق .. ومن جانبك عليك أن تستعد من الآن!

مـرّت أيـام .. وتلقـى محمد طوق اتصالاً من ذلك الشـخص .. محمد لم يكن يعرف من يكون هذا الشخص! لم يكن يعرف «سيد مرتضى»!

«سيد مرتضى» أخبر محمد طوق أن يكون على أهبّة الاستعداد وقال له:

- هناك عملية في القريب لـ«تخريج الشباب» من البلد وستكون أنت معهم بإذن الله..

قال له أنه سيعاود الاتصال لإطلاعه على الوقت المحدد!

كان محمـد يفكر في «الشـباب» الذين سـيغادرون البلد! هل يعرفهم .. بعـد أيـام تواصـل «سـيد مرتضـى» مع محمـد وأخبره بـأن يتواصل مع شـخص اسـمه في البلاك بيري «شـهادة» .. سـوف يتم التنسيق معه وهو من سيحدد الجهة التي يجب أن يتوجه إليها..

سيقوم «شِهادة» بتحديد «نقطة الصفر» .. النقطة التي سيتم الانطلاق منها نحو الشرق..

يقول محمد أنه عرف من يكون «شهادة» .. يدعى جعفر يحيى الذي تقرر أن يتصل به ويحدد له موعد الانطلاق نحو الأرض التي تشـرق منها الشمس!

فـي التاسـعة مسـاءً اتصل «شـهادة» وطلب منه التوجـه إلى منزل في قريـة «الخارجيـة» .. عليـه أن يسـتقر في ذلك المنزل لحيـن موعد عملية الخروج ومغادرة أرض الوطن والديار..

توجـه محمـد نحو قريـة الخارجية ووصـل المنزل المحـدد .. وعندما

دخل المنزل وجد فيه رفاقه من الشباب في هذه الرحلة المثيرة .. عرف بعضهم وكانت له معهم علاقة سابقة وفي طليعتهم «علي بداح»! و«جاسم» و«مهدي السندي» و«أحمد الحر» .. كانت لمحمد علاقة مع هذه الثلّة من الشباب الذين اضطرتهم الظروف لمغادرة أرض الوطن! أما بقية الشباب فكان يعرفهم عن بعد وعلاقته معهم علاقة سطحية..

استقر محمد مع الشباب ولفت انتباهه شاب لم تكن حالته الصحية على ما يرام .. يبدو كأنه يعاني من علّة ما .. سأل «علي بداح» عنه .. فأخبره أنه يدعى «صادق الحايكي» من بلدة «البلاد القديم» .. تساءل محمد عمّا إذا سيكون معهم في «الخروج من البلد»! وكان الجواب بالإيجاب!

«الحايكي» يعاني من مرض السكلر فقر الدم المنجلي - الذي انهكه كثيراً! شعر محمد بالخوف على هذا الشاب العليل! ماذا لو حدث لنا شيء في وسط البحر؟! هكذا تساءل محمد في أعماقه! ماذا لو قُبض علينا! ماذا سيكون حال هذا المسكين!

وجد محمد نفسه مضطراً إلى أن يسأله بنفسه .. قال له مشفقاً:

- هل أنت متأكد من قرار الخروج وأنت في هذا الحال؟!!

أجاب «الحايكي»:

- هذه فرصة قد لا تتكرر .. أنا قررت الخروج معكم!

تدفق نبع من الرحمة في أعماق «محمد» وبدأ يهتم به ويحاول رعايته .. وكان يسأله عما إذا كان يحتاج إلى شيء!

محمد انسحب إلى داخله مستغرقاً في تأملاته وأفكاره .. الشباب كانوا يتجاذبون أطراف الأحاديث وكانوا يضحكون .. كان محمد يبتسم لهم ولا يعرف على أي شيء كانوا يضحكون..

جسمه في ذلك المنزل في قرية الخارجية أما روحه فكانت في مكان آخر .. عقله ووجدانه خارج المنزل يسيحان في واديان في مرابع الصبا .. أضحى رأسه مسرحاً للهواجس والأفكار والتصورات .. سؤال يضج في أعماقه؛ هل سأترك البحرين حقيقة؟ موعد الخروج يقترب وسأغادر البحرين!!

ماذا عن الحراك الثوري! ماذا عن أهلي وأصدقائي! الأفكار والتصورات تأخذه إلى عرض البحر .. ماذا لو قُبِض علينا في وسط البحر .. وقد ثارت الأمواج الغاضبة! ماذا وماذا وماذا؟!

حتى وقت السحر امتد بنا السهر وما زلت غارقاً في أفكاري وهواجسي .. لم ينشلني من كل ذلك إلّا صوت «أبو حسين» يهتف بنا:

- قوموا لنتوجه إلى البحر .. لننطلق!

وكان ذلك قبل مطلع الفجر!

وصلت إلى الشاطئ لنستقل القارب الذي سيقطع بنا عرض البحر في رحلة قالوا أنها قد تستغرق ست ساعات .. كان البحر هادئاً ونسيم عليل يداعب الوجوه..

وبدأ القارب يمخر مياه البحر في رحلة تنطوي على مخاطر الهجرة «غير القانونية»!

بالرغم من إرهاق السهر.. كان ذهن محمد متوقداً .. يستعيد حوادث آخر يوم له في أرض الوطن..

عندما تلقى اتصالاً من «شهادة» يخبره بأن عملية الخروج ستكون غداً! توجه محمد إلى منزل والديه في الظهيرة .. حياهما وكانا لوحدهما .. كان شقيقه وشقيقاته خارج البيت .. جلس إلى أبويه يريد الارتواء من النظر إلى هذين الوجهين الحبيبين!

تساءل الأب وقد أدرك ما يموج في نفس ولده!

أطرق محمد برأسه وقال:

- سيكون خروجي من البحرين في هذه الليلة وقد جئت لأودعكم .. إلى أن يكتب الله لنا اللقاء من جديد!

خيّم حزن ثقيل لم يتحمل الأب فراق ولده .. فتح ذراعه وضمّه .. كان يريد أن يدخله في فؤاده الذي أضحى فارغاً!

غرقت عيناه بالدموع كسماوات مشحونة بالمطر.. لم يتحمل محمد رؤية الفجيعة في عينيّ أبيه فقال:

- إذا كنت لا تريدني أن أخرج .. فلن أخرج .. سأبقى هنا يا أبي!

قال الأب بأسى:

- وهل هناك أب يريد فراق ولده!! ولكن ما باليد حيلة! لا أستطيع أن أحميك من أيدي «الظُلّام» .. ولا يوجد مكان آمن .. أنا أخاف عليك يا ابني .. اذهب إلى الإمام الرضا والسيدة المعصومة .. هناك ستجد الأمان..

عانق محمد والده وقبّل يده وذهب إلى غرفته التي غادرها منذ فترة ليست بالقصيرة .. أخذ «جوازه» واتجه إلى باب البيت .. كان ينظر إلى والده بحزن وأسى .. في قلبه تشتعل نار فراق طويل..

كعصفور شريد اضطر لمغادرة عشّه الدافئ .. إنه يودع بيته وعشّه وسوف يفتقد حنان الأبوين ودفء الأهل..

«محمد» لم يسافر .. لم يجرّب الفراق ولو لوقت قصير .. فكيف بالسفر إلى المجهول!

وهكذا غادر محمد عشّه الدافئ لفترة لا يعلم مداها إلّا علّام الغيوب!

عندما غادر البيت وجد صديقه الحميم «علي فيصل» ينتظره في السيارة؛ قال محمد دون مقدمة:

- لنذهب إلى مقبرة واديان .. أريد زيارة قبور الشهداء..

توقف عند قبورهم وجلس عند قبر الشهيد «محمود العرادي» وانهملت الدموع لفراق الأحبة:

- محمود يا محمود يا أخي الحبيب قتلتك قوى الظلام والظلّام .. قتلوك وأحرقوا قلوب أحبتك!

وساد الصمت لحظات..

- جئت لأودعك الوداع الأخير .. لا أستطيع زيارتك بعد اليوم يا حبيب قلبي..

كان «علي فيصل» ينظر إلى صديقه الحميم نظرات استغراب .. تساؤلات واستفهامات تموج في داخله .. ينظر إلى صديقه نظرات

حائرة! ماذا يقول «محمد»؟!!

ماذا دهاه يا ترى! هذا اللقاء الأخير! هذه آخر زيارة! ما معنى هذا؟

نهض محمد ولم يمنح فرصة لصديقه علي ليبدي استغرابه مما يرى! محمد يأخذ بيد صديقه إلى شجرة في إحدى زوايا المقبرة، قال له بوقار:

- علي! انظر جيدّاً عند جذع هذه الشجرة ست قطع سلاح «شوزن»! احفظ هذا المكان جيّداً!

ثم أخذ بيده إلى إحدى الجهات وقال له:

- وهنا يوجد «شوزن محلي الصنع» احفظ هذا المكان أيضاً!

تسائل علي وقد ارتسمت ملامح الدهشة على وجهه البريء:

- ولماذا تخبرني الآن؟! .. إننا معاً دائماً .. هل افترقنا يوماً!

قال محمد وهو يتحاشى النظر في عينيّ صديقه الحميم:

- عليك أن تحفظ هذه الأماكن! هذا ما أريده منك..

لاذ علي فيصل بالصمت وما تزال علامات الاستغراب بادية على وجهه!

محمد لم يجرؤ على إطلاع صديقه وحبيبه على موضوع خروجه من البحرين؛ لأن لا طاقة له بوداعه! صعب عليه أن يودع أخاه الحبيب وصديق العمر!

لم يكن محمد ليعلم أنه لن يلتقي صديقه الحبيب أبداً .. لقد فارقه دون وداع!

أمضى محمد السـاعات الأخيرة قبل موعد التوجه إلى قرية الخارجية فـي قريتـه «واديان» .. يسـير في أزقتها .. وينظر إلـى الأماكن التي يلتقي فيهـا أصدقـاءه .. «واديـان» أرض الذكريات الجميلة .. واديان ربوع الصبا ومهد الطفولة!

كانت أعماقه مسرحاً لصراع محتدم بين الرغبة في البقاء وإلغاء فكرة الهجرة والرحيل وبين الظروف الصعبة التي تضطره إلى الخروج ومغادرة أرض الوطن..

الذكريات والعلاقات وشـذى الوطن وعبير العواطف تشـدّه إلى أرضه وديارة..

بينما الظروف «الطاردة» تزداد ضراوة؛ عاطفته تشدّه إلى البقاء وعقله يأمره بالرحيل وكان على محمد أن يحسم هذا الصراع قبل فوات الأوان!

- آه مـا أحلـى العيـش فـي ظـلال الوطـن! ما ألـذ الحياة مـع الأحبة والأصدقـاء! .. مـا أصعـب الغربـة! مـا أقسـى الحياة غريبـاً بعيداً وحيداً!

تنبعـث فـي أعماقـه أصـداء .. مـا أشـقى الإنسـان يعيش مشـرّداً في وطنه! ما أتعس العيش تحت نير الطواغيت! الشعور بالطمأنينة والسلام هو من يهب الحياة نكهتها وجمالها!

- إذا بقيـت فسـتعود كوابيـس الليالـي .. ليالـي الخـوف .. وتمـرّ اللحظات مريرة في منتصف الليل!

وأخيراً ثمة نداء يضج في أعماق محمد يدعوه إلى الرحيل .. وشـعر

محمد بالسكينة في أعماقه تترقرق كساقية في الحقل!

ارتفع أذان المغرب من مئذنة مسجد الغدير .. التقى محمد أصدقاء الطفولة «صادق تقي» و«جلال الوزير» و«علي فيصل» .. كان محمد يريد أن يرتوي من النظر إلى وجوههم المفعمة بالبراءة .. أمضى محمد معظم أوقاته معهم .. كانوا لا يفترقون .. توحدت قلوبهم .. وتناغمت أرواحهم .. انصهروا في كيان واحد .. عاشوا حياتهم معاً أكثر مما عاشوا مع أهليهم .. يأكلون معاً .. ينامون تحت سقف واحد .. عاشوا فترات جميلة من حياتهم وعانوا من الظروف المريرة معاً!

لهذا قرر محمد أن يمضي الساعات الأخيرة قبل رحيله معهم يرتوي من فيض نظراتهم الحالمة .. كانوا أجمل مفردات الوطن وأكثرها ألقاً!

لذلك قرر في نفسه ألا يودعهم أبداً .. سيرحل دون وداع .. حسه المرهف ومشاعره الفيّاضة لن تدعه يتحمل آلام الفراق والوداع!

عندما افترق الأصدقاء .. كان الجميع يتصورون أن اللقاء القادم سيكون بعد سويعات!

محمد هو الوحيد الذي يعلم أنه لن يلتقي أصدقاء العمر بعد الآن!

سيتوجه إلى قرية «الخارجية» فهناك مكان ما من سواحل «سترة» توجد «نقطة الصفر» .. سينطلق قارب الهجرة هذه الليلة نحو المجهول!

محمد يشيّع بنظراته الحزينة أصدقاء العمر!

في ذلك المنزل في قرية الخارجية؛ أجرى محمد اتصالاً من خلال البلاك بيري مع صديقه «جلال الوزير» قال له بحزن ومرارة:

- بعد ساعات قليلة سأخرج من البحرين!

جاء صوت جلال فيه مزيج من الدهشة والألم والحزن:

- لماذا لم تخبرني؟! كنت معك .. على الأقل من أجل أن أودعك!

- جلال! لا أستطيع أن أودعك! أعني لا أستطيع أن أودعكم!

وهكذا قرر محمد أن يفارق أصدقاءه دونما وداع؛ ربما لأنه كان لهم مكان في قلبه .. يشعر أنهم معه أينما رحل! أو لأنه احتمل إخفاق المحاولة أو حتى إلغاء فكرة الهجرة في اللحظات الأخيرة..

أوصى محمد صديقه الحميم جلال أن يعتني بنفسه وطلب منه أن يدعو الله سبحانه أن يفتح على المهاجرين برحلة آمنة..

كان القارب يشق طريقه نحو الشرق .. وقد أشرقت الشمس منذ أكثر من ساعتين!

القارب ما يزال يمخر مياه البحر المغمورة بأضواء الشمس الباهرة .. مضت خمس ساعات ونصف .. وكان محمد يتطلع إلى الأفق البعيد علّه يرى الساحل الإيراني .. خُيّل إليه أنه يرى جبالاً ومرتفعات باهتة .. تراءت له كلوحة فنية باهتة الألوان .. التفت محمد إلى رفيق الهجرة «مهدي السندي» وبادره قائلاً:

- انظر جيّداً! هل ترى جبالاً!

أمعن مهدي النظر في الأفق البعيد .. حدّق جيّداً ثم قال:

- نعم! إنها جبال..

شعر محمد بالارتياح! لقد وصل المهاجرون إلى الشواطئ الإيرانية بسلام!

كان محمد خلال الرحلة يتفقد حالة الحايكي .. وكان يعاني خلال الرحلة ربما بسبب القلق ومشاعر التوجس..

سائق القارب خفف من سرعته عندما لمح عدداً من قوارب الصيد..

كان صيادو السمك منهمكين في عملهم وقد أصبحت الشواطئ في مرمى البصر..

اقترب السائق من أحد الصيادين وخاطبه بالفارسية .. محمد لا يعرف الفارسية لكنه خمّن أن السائق يسأل الصياد عن مركز تابع للدولة..

أشار الصياد بيده وأجابه بالفارسية بكلمات مقتضبة والسائق اتجه إلى حيث أشار الصياد وراح يقود القارب على هون باتجاه الشاطئ .. من بعيد لاح بناء قديم يبدو وكأنه قلعة أثرية .. وظهر عدد من رجال الشرطة جاؤوا يتراكضون نحو القارب الذي رسا عند الشاطئ الرملي..

كانوا يطلقون صيحاتهم بالفارسية .. عرف محمد من خلال المشهد ان قارب المهاجرين هو الأول الذي يرسو في هذه المنطقة!

عرف محمد فيما بعد أنها تدعى «ديّر»!

تحدث السائق بالفارسية ليبرر لهم دخوله منطقة محظورة على الأجانب دخولها أو الاقتراب منها .. لأنها انتهاك للسيادة!

قال سائق القارب:

- نحن نعمل في الصيد وقد انتكست صحّة أحدنا ولذا اضطررنا إلى

اللجوء وطلب المساعدة منكم! هل بإمكانكم إسعافه؟!

جاء الجواب:

- نعـم! أمـا أنتـم فسـوف نتحفّـظ عليكـم لأنكـم انتهكتـم القانون ودخلتم المياه الإيرانية دون تصاريح قانونية!

الفصل الثالث: سياط الغربة

محمد بطبعه لم يكن يرتاح لوجوه الشرطة ولم يكن يسعده أبداً رؤية وجوههم الكالحة؛ فصورة الشرطي في ذهنه سلبية لما عاناه من ملاحقة ومطاردة!!

كان ينظر في وجوه الشرطة الإيرانية ويستغرب لملامح الشبه، هل حقاً أن الشرطة يتشابهون في أنحاء العالم!!

نقل «صادق الحايكي» إلى مستوصف قريب لإسعافه؛ واقتاد الشرطة المهاجرين إلى ساحة المركز القديم .. ربما كان فيما مضى قلعة؟!

قال شرطي بلهجة فيها فظاظة وغلظة:

- اجلسوا هنا! لا تتحركوا من هذا المكان!

بعد حدود نصف ساعة جاءت سيارة إسعاف نزل شخص يبدو عليه أنه مضمد .. أخبر رفاق «الحايكي» بأن معالجته وإسعافه كلفت ما يعادل عشرة دنانير بحرينية..

قالوا: لكننا لا نملك درهما!

قال المضمد: إذن لن نسمح بنزول المريض!!

شعر محمد بالصدمة لهذا التصرف الذي يفتقر إلى اللياقة! والمشاعر الإنسانية .. لم يكن المضمد يختلف كثيراً عن رجال الشرطة..

بادر شرطي عربي من مدينة الأهواز وسدد الثمن من جيبه الخاص، هذا التصرف حطم تماماً الصورة السلبية التي انطبعت في ذهن محمد! ينبغي على المرء ألا يتسرع في إصدار الأحكام ومع ذلك ثمة سؤال يقفز فجأة هل يمكن لنبتة تجتث من تربتها أن تعيش في أرض أخرى؟!

هل يمكن للعصافير أن تهجر أعشاشها؟!

أفرغ ثلاثة من أفراد الشرطة ثلاجة القارب .. كان فيها سمك وروبيان؛ وراحوا يعدون الطعام! في البداية تصور محمد أنهم يطبخون لإطعام المهاجرين .. كان محمد ورفاقه جائعين وكانت رائحة السمك تملأ الفضاء .. وتحلق الشرطة حول الطعام والتهموه بشهية وشره ولم يكترثوا لهؤلاء القادمين من عرض البحر!

- كانت معاملتهم لنا شديدة!! لأننا دخلنا المياه الإيرانية من دون تصريح!!

لقد انتهكوا القانون الدولي!! هذه هي ذريعة الشرطة في تبرير فظاظتهم!!

أما هم فقد انتهكوا القانون الإنساني!! يصادرون طعام المهاجرين ويتركونهم جياعاً يتضورون!

لام محمد نفسه لقد تسرع في إصدار الأحكام .. إيران لا يمكن اختزالها في هؤلاء المساكين .. إنهم لا يدركون ماذا يجري من ظلم في بلدان الجوار .. لا يدركون محنة الإنسان في البحرين!

لا يشعرون بما يشعر به محمد ورفاقه كيف يضطرون لترك الديار تحت ضغط النظام الخليفي الذي يستقدم من هب ودب من أصقاع آسيا شرقاً وغرباً ليمنحهم الجنسية .. وفي المقابل يقوم بإسقاط الجنسية وسلبها من المواطنين الأصلاء!!

أجل لا يمكن لهؤلاء المساكين أن يدركوا معاناة الأحرار في أوطانهم المقهورة!

كان محمد ورفاقه جالسين في ساحة مركز الشرطة القديم منذ الساعة العاشرة وحتى الساعة الرابعة عصراً وكان أحد أفراد الشرطة جالساً بالقرب منهم يراقبهم عن كثب ومهمته الوحيدة ألا يسمح لهؤلاء أن يتحركوا!!

في حدود الساعة الرابعة جاء أفراد من «الحرس الثوري» واستقروا في إحدى الغرف وراحوا يقومون بمهمة التحقيق معهم..

كانوا يستجوبون المهاجرين فرداً فرداً وكان السؤال الكبير عن سبب دخولهم إيران من غير تصريح؟!

أدخل محمد على المحققين وكان أحدهم يقوم بمهمة الترجمة وبدأ التحقيق بالسؤال:

- لماذا جئت إلى إيران؟!

- أنـا مطارد من قبل النظـام الخليفي في البحرين! أنا محكوم غيابياً في عدد من القضايا
- لماذا لم تذهب إلى إحدى دول الخليج؟!
- دول الخليج كلها تسـاند النظام الخليفي!! ولن تتردد في تسـليمي إلى النظام!
- كم استغرق الوقت .. نعني وقت الرحلة
- حدود ست ساعات!
- هل تعرف أن هناك من مواطني البحرين لاجئين في إيران؟
- نعم!
- في أي مدينة؟
- أتصور في مدينة قم المقدسة
- برأيك لماذا مدينة قم المقدسة؟
- لوجود مرقد السيدة فاطمة المعصومة
- تفضل!

نهض محمد بينما استطرد المحقق قائلاً:

- منذ الآن اعتبروا أنفسكم ضيوفاً أعزاء في الجمهورية الإسلامية!

قال ذلك وهو يبتسم بودٍّ ومحبة وأردف:

- سـوف ننقلكـم إلـى مـكان آخـر تسـتقرون فيـه إلى حين اسـتكمال

بعض الإجراءات!

قبيل ارتفاع أذان المغرب أخبرونا بالاستعداد للذهاب للانتقال إلى دار للضيافة..

وصلت سيارتان لنقلنا، صعد محمد ومعه ح.ط ومهدي السندي وصادق الحايكي، في إحداها كان السائق يتحدث العربية فسأله محمد عن وجهته أجاب السائق باقتضاب!

- مدينة بوشهر!

أخبرنا السائق ونحن ندخل المنزل أننا سنبقى عدة أيام لاستكمال الإجراءات وبعدها سوف يقومون بنقلنا إلى مدينة قم المقدسة!

مرّت أربعة أيام أمضاها محمد في رعاية صادق الحايكي..

خلال هذه الأيام كان شعور الندم يتسرّب في أعماقه!!

تساؤلات تطفو كفقاعات تنفجر الواحدة تلو الأخرى:

- لماذا جئت إلى هنا!! لماذا هاجرت!! هل أستطيع تحمل الحياة في الغربة .. أنا غريب .. كيف سأعيش بعيدا عن أهلي .. أحبتي .. أصدقائي!!

وانفجر سؤال مدوي هز أعماقه في الصميم:

- هل أنا خائن؟! .. لماذا تركت الثورة؟! لماذا خذلت الثوار والشباب الأحرار في «سترة» في «واديان»

وأطلق محمد آهة حرى:

- آه! ما كان عليّ أن أخرج من البحرين!!

بعـد أربعـة أيام جاء أحدهم ليخبرهم أنه غداً صباحاً سـوف نأخذكم إلى مدينة قم المقدسة!

وفي صباح اليوم التالي جاءت سيارتان لتأخذهم إلى محطة للباصات..

كان محمـد يتصـور أن مسـافات السـفر داخـل إيـران لا تختلـف عمـا هـي عليـه فـي البحرين .. لـم يكن يـدري أن إيران هي بلاد «المسـافات الطويلة»!

سـأل محمد الشـخص الذي يوصلهم إلى محطة الباصات عن المسافة بين «بوشهر» و«قم» فجاء الجواب كالصاعقة 17 ساعة تقريباً!!

كان الجواب صدمة لـ«محمد طوق» الذي قطع البحر في حدود سـت ساعات في القارب .. والآن عليه أن يتحمل سبعة عشرة ساعة من السفر في باص إلى أن يصل إلى المدينة المقدسة!

في حدود السـاعة التاسـعة صباحاً تحركـت «الحافلة» قبل أن يصعد المهاجرون أوصاهم الشخص الذي أوصلهم قائلاً:

- إذا سألكم أحد من أي البلدان أنتم؟ قولوا له من العراق!

استغرب محمد ورفاقه من هذه التوصية؟!

لماذا نقول نحن من العراق؟! ولماذا لا نقول له: نحن من البحرين؟!

الشخص منح كلاً منهم مبالغ مالية قال إنها توصلكم إلى قم المقدسة!!

مـن خـلال النافـذة كان محمد يراقب المشـاهد وهي تمـر أمام عينيه

كشريط سينمائي .. كان الباص يتهادى في سيره خلال شوارع المدينة إلى أن استوى على الطريق الخارجية صوب الشمال!

واستمر محمد ينظر من خلال زجاج الحافلة إلى المشاهد التي تمر أمام ناظريه .. مشاهد بيوت قديمة متهالكة وبراري واسعة مد البصر .. تارة يغمض عينيه وأخرى يفتحها وما يزال الباص يشق طريقه باتجاه الشمال .. انتصف النهار وحان وقت صلاة الظهر وتوقفت الحافلة في إحدى المحطات داخل مدينة لا يعرفها .. وترجّل المسافرون للصلاة..

قال «ج» بعد الفراغ من أداء الصلاة:

- لنذهب إلى المطعم!

واتجه المهاجرون جميعاً .. ولم يسألهم أحد من أي البلدان أنتم؟

كانوا يجهلون الفارسية لذلك كانوا يتحدثون بلغة الإشارة وتناولوا غذاءهم .. وبعدها اتجهوا إلى الحافلة التي كانت تنتظر عودة المسافرين .. تأكد مساعد السائق من صعود الجميع .. وتحركت الحافلة لتستوي على جادة الطريق تستأنف رحلتها صوب مدينة قم المقدسة .. وتتكرر مشاهد البراري الواسعة والمرتفعات .. والحافلة تتهادى في طريقها نحو الشمال..

كانت الشمس تهوي باتجاه المغيب وتلامس الأفق البعيد ليصبح القرص المستدير بلون يشع حمرة قانية بجراح الشهداء .. وشيئاً فشيئاً كان القرص المهيب يغطس وراء الأفق إلى أن غاب تماماً!

وكانت الحافلة تقترب من إحدى المدن وقد تأهب المهاجرون وتاقوا

إلى التوقف في المحطة الثانية لأداء صلاة المغرب..

وبعد الصلاة استأنفت الحافلة التي تقل أكثر من أربعين مسافراً طريقها نحو المدينة المقدسة..

عديدة هي المدن التي مرّ بها محمد ورفاقه .. لم ينتبه إلى أسمائها .. في أعماقهم هاجس الوصول إلى مدينة قم التي تشع في وجدانهم لأنها تضم مرقد السيدة فاطمة المعصومة التي يتوق الشيعة إلى زيارتها..

كان محمد يتخيّل مشاهد المدينة المقدسة .. لم يعد قادراً على متابعة مشاهد الطريق فقد غمر الظلام كل شيء باستثناء ما تبدده أضواء الحافلة من أسفلت الطريق .. وأضواء السيارات..

هومت عيناه وأغمض عينيه ليستغرق في نوم عميق لم يوقظه إلا صوت مهدي السندي رفيق الدرب:

- قوم! وصلنا قم!

فتح عينيه كانت الحافلة قد استقرت عند مدخل المدينة المقدسة ..

وتبددت خيالات محمد وأحلامه .. كان يتصور أن هناك من سيستقبلهم .. لكن لا شيء!! لا أحد!! سوى سواق سيارات التاكسي يحومون حول هؤلاء الغرباء ويعرضون عليهم خدمات النقل .. في البداية لم يدرك لا محمد ولا رفاقه ماذا يريد هؤلاء الذين يحاولون التعامل مع هؤلاء المسافرين القادمين في ساعة السحر؟!

وأخيراً وبعد أن نظم «جاسم» أفكاره فيما يبدو قال لأحدهم بالإشارة وبكلمات مختصرة:

- نريد الذهاب إلى الحرم! حرم السيدة المعصومة!

واستقل المهاجرون المتعبون سيارتين .. أخذتهم إلى حرم السيدة المعصومة .. لاحت القبة الذهبية للسيدة الجليلة .. شعر محمد بالارتياح كما لو أن نبعاً يتدفق بالسكينة يترقرق في أعماقه .. هذه أول مرة يزور فيها محمد مراقد أهل البيت الكرام عليهم السلام ..

عند بوابة المرقد الطاهر للسيدة المعصومة توقفت السيارتان وكان صوت أذان الفجر يرتفع من فوق المآذن الشماء..

أخذ المهاجرون طريقهم لدخول المرقد .. لكن البواب منعهم وأشار عليهم بأنه يمنع إدخال الحقائب وبلغة الإشارة أرشدهم إلى المكان الذي تودع فيه حقائب السفر!

يقول «محمد»:

توجهنا إلى المكان المقصود وسلمنا الحقائب للموظف المسؤول عن إيداع الأمانات في غرفته الصغيرة، ثم عدنا إلى الحرم الطاهر لأداء صلاة الفجر وزيارة المرقد الطاهر لتلك السيدة الجليلة..

كان غبش الفجر ما يزال يحتضن المدينة المقدسة!!

المهاجرون القادمون من البحرين عبر البحر هم الآن في أحد «مرافىء» أهل البيت وقد استولت عليهم الحيرة..

والآن إلى أين المصير؟!

وتفجّر إحساس بالغربة في أعماق الشاب القادم من قرية «واديان» الغافية في جزيرة سترة شرق البحرين.

إحساس الغربة هذا لم يقتصر على هذا الشاب .. إنه إحساس غمر الجميع .. وهذه حقيقة مرّة! إننا غرباء! غرباء لا نعرف أين نذهب وإلى أين نتجه؟ نحن غرباء لا نعرف لغة البلد!

إلى أين نلجأ؟!

ويبدو أن «ح.ط» وهو أحد المهاجرين قد تأخّر داخل الحرم ولم يحضر في الوقت المحدد، حيث اتفق الجميع على مكان يتجمعون فيه بعد أداء مراسيم الزيارة..

كان «ج» محتقناً جداً من شدة التوتر، وخوفاً من التفرق وضياع أحدهم..لأنهم لم يكونوا يملكون أية وسيلة للتواصل!

يروي محمد ذكرياته حول هذه اللحظات بعد الفراغ من الزيارة والصلاة، فيقول:

- ذهبنا جميعاً للبحث عن ملجإٍ مؤقت نلجأ إليه؛ فلاح لنا إعلان أحد الفنادق قرب حرم السيدة المعصومة..

يبدو أن «ج» كان هو المسؤول أو أنه يشعر بالمسؤولية تجاه رفاقه .. لذا كان هو المتحدث باسمهم؛ دخلوا الفندق وبلغة الإشارة قال أنه يريد استئجار غرفة له ولرفاقه؛ كان جاسم قد تحدث مع رفاقه على أنه يهدف إلى النزول في الفندق مؤقتاً ريثما يمكنهم البحث عن رفاق لهم سبقوهم بالهجرة إلى إيران واختاروا قم للإقامة فيها، قال لهم:

- ننزل في الفندق مؤقتاً إلى أن نجد طريقة للتواصل مع الأخوة المتواجدين في قم.

يشير محمد إلى أنه أياً منهم لم يكن يعرف الفارسية ولا يعرف العملة الإيرانية، لذا قام جاسم بعرض المبالغ التي بحوزتهم أمام صاحب الفندق ليأخذ حقه؛ فأخذ جزءً منها وأعاد الباقي، ولا ينسى محمد أن يشير إلى أنه لا يعلم إن كان صاحب الفندق قد أخذ أجرته بالتمام أو أقل أو أكثر!!

بعد استراحة قصيرة .. اتفق المهاجرون على الخروج مجموعة مجموعة .. يعني تخرج مجموعة ثم تعود لتخرج مجموعة أخرى..

ويخرج محمد طوق مع مهدي السندي و«ج» في المجموعة الأولى للاستطلاع والبحث عن أخوة لهم من البحرين أو العثور على أي شخص يتحدث العربية ولديه معلومات عن أماكن إقامة البحرينيين القاطنين في مدينة قم .. سواء كان طالباً في الحوزة العلمية أو أحد المهاجرين الفارين من ظلم النظام الخليفي..

يقول محمد في روايته ذكرياته:

- سألنا أحد المارة عن أماكن تواجد العرب فأرشدنا إلى سوق قديمة تدعى: «سوق العراقية»..

طبعاً لا يعرف محمد ولا حتى رفاقه عن هذه السوق ولا عن تاريخها!

لا يعرف أنها تدعى في الأصل «گذرخان» والـ«گذر» اصطلاح يطلق على الممرات المسقفة .. وسوق العراقيين هذا بدأ يتشكل منذ نهاية السبعينات من القرن الماضي حيث بدأ نظام البعث المجرم في بغداد حملات التسفير القسري والتهجير للعراقيين من أصول إيرانية..

كان حرم السيدة فاطمة المعصومة ملاذاً ومكاناً يلتقي فيه العراقيون

ومنذ وقت مبكر بدأت الدكاكين والمتاجر الصغيرة التي يعمل فيها العراقيون المهجرون تفتح أبوابها ليصبح الـ«گذرخان» سوقاً عراقية ينادي فيها العراقيون على ما يعرضونه من فاكهة وخضار وافتتح البعض مطاعم صغيرة .. حتى أن الداخل إلى هذه السوق يتخيل نفسه أحياناً أنه في إحدى المدن والأحياء العراقية!

وبعد سقوط النظام البعثي في 9 نيسان 2003م أقفرت السوق بل وأقفرت مدينة قم المقدسة من العراقيين الذين هزّهم شوق العودة إلى الوطن والديار بعد غربة امتدت إلى أكثر من عشرين سنة..

على أية حال لا محمد طوق ولا أي من رفاقه يعرفون شيئاً عن تاريخ هذه السوق..

توجه محمد وجاسم ومهدي إلى سوق العراقيين الصغيرة..

يقول محمد:

- دخلنا .. رأينا أمامنا شخصاً في أحد الدكاكين كان يبدو من ملامحه أنه عربي..

ساورتهم بعض الشكوك في كونه عربياً! .. لذا بادر محمد بالسلام عليه قائلاً: السلام عليكم!

سيكون رد التحية جواباً على هويته!

أجاب الرجل:

- عليكم السلام هلا بيك!

تأكدوا أنه عربي من أصول عراقية، سأله محمد عما إذا كان يعرف

أحداً من البحرين المقيمين في مدينة قم!

بدت على وجهه ملامح استغراب وربما مخارف والتزم الصمت لحظات قبل أن يقول:

- لا والله ما عندي علم بالبحارنة!

شعر محمد أن الرجل لديه معلومات حول أماكن تواجد البحرينيين في هذه المدينة..

تولّد انطباع لدى محمد بأن الرجل قد ساورته مخاوف لأنه لا يعرفهم..

ذاكرة العراقيين تحتفظ بقضايا مدهشة حول إرسال نظام صدام المقبور جواسيسه وكان بعضهم ضباطاً في جهاز المخابرات العامة وقد كان أعلى جهاز أمني .. وقد ظهر صدام في التلفزيون يسخر من المجاهدين العراقيين في إيران، قال مرّة حول المجاهد العراقي في قم:

- اسمو شكبرو «أبو سكينة الغضنفري»! يدخل الگذر وما بجيبو تومان واحد!!!

لعلّ هذا الرجل العراقي قد ساورته مخاوف حول هذا البحريني الذي يسأل عن المهاجرين الفارين من جحيم نظام آل خليفة لذا «شكّ في أمرنا»، هكذا قال محمد طوق الذي كان في قرارة نفسه أن هذا العراقي لديه معلومات أو على الأقل لديه رأس الخيط كما يقال!

غادر محمد ورفيقاه المكان إلى داخل السوق .. استفسروا هنا وهناك وكانت الإجابات بالفارسية أو بإشارات النفي!

قال محمد لرفيقيه:

- أنا متأكد بأن الطريق سيكون من خلال ذلك الشخص!

عـادوا إليـه مـرة أخـرى وعاودوا السـؤال الـذي جاء في أسـلوب رجاء أخوي، قال محمد له وهو يحاوره:

- أخبرنـا إذا كنت تعـرف أي معلومات حول أخوتنا المتواجدين هنا .. لأننا وصلنا قبل قليل ونحن غرباء .. ولا نعلم إلى أين نذهب؟!

مـرّة أخـرى رفـض .. هـزّ رأسـه نافيـاً .. لـذا غادرنـا خائبين وفـي نيتنا العودة إلى الفندق!

يبدو أن هذا الرجل العراقي قد أدرك صدق هؤلاء الشـباب وربما قرأ في وجوههم آثار التعب والإجهاد والشعور بالغربة والحيرة .. لهذا نادى بصوت جهير:

- تعالوا! تعالوا يمي!

عـاد المهاجـرون والفرحـة تشـرق علـى وجوههـم المكـدودة، كانـوا يتبادلون النظرات .. نظرات البشارة والأمل .. قال لـ«محمد طوق»:

- أنت موالي لآل خليفة أو معارض إلهم!

قال محمد:

- أنا معارض لآل خليفة..

أدرك محمد أنه كانت لديه مخاوف من أن يكون هؤلاء عملاء للنظام وجواسيس على شباب البحرين هنا..

ومع ذلك قال لهم أنه لا يملك معلومات دقيقة، لكن يعرف إحدى الحسينيات الخاصة بال«البحارنة» .. راح يصف لهم عنوان هذه الحسينية، قاطعه محمد قائلاً:

- أنهم لا يعرفون شيئاً في هذه المدينة .. لقد وصلنا قبل قليل!

قال لهم أنه سيوصلهم بـ«الماطور» أي بدراجته النارية..

- تعالوا راح أوديكم بالماطور! وإن شاء الله يفيدوكم!

- ان شاء الله

تقرر أن يعود «ج» إلى الفندق لإطلاع الشباب بأنه قد يمكن العثور على مكان تواجد أخوتنا!

ركب العراقي دراجته النارية وأردف محمد طوق ومهدي السندي وراءه .. قال «ج» لرفاقه:

- محمد ومهدي أخذهما أخ عراقي إلى مكان يتواجد فيه «شيوخ بحرينيين».

أوقف العراقي دراجته أمام منزل ولاحت لافتة باهتة الألوان يبدو عليها القِدم مكتوب فيها باللون الأخضر: «الحسينية البحرانية» .. ضغط محمد على الجرس، وبعد لحظات خرج شاب معمم وبعد إلقاء التحية والسلام تساءل محمد:

- ما تعرف رقم أحد الشباب المهجرين؟ أو عنوان بيت للشباب المهاجرين؟ أو رقم السيد مرتضى السندي أو عنوان بيت سيد مرتضى السندي!

بدت على وجه المعمم ملامح الارتباك وقال:

- ما أعرف أحد هني لأني توني جاي لإيران .. من فترة بسيطة!

شعر محمد بحالة من الانكسار والخيبة!

تبادل محمد مع العراقي نظرات مبهمة وبدت على وجهه إشارات توحي بخيبة أمل! كما لو أنه كان يشاركهما الهموم!

ما إن ابتعدوا عن الحسينية البحرانية حتى قال العراقي بمرارة وبلهجته العراقية:

- هوه يعرف .. بس ميريد يعلمكم بمكانهم .. لأنه خايف!!

قام العراقي بإيصالهما إلى الفندق وقال لهما:

- إذا ما وصلتوا إلى حل ورايدين شيء مني تعالوا .. وإن شاء الله أخدمكم بالّي اگدر عليه!

دخلا إلى الفندق حيث يتواجد الشباب وبدأ الحديث عما جرى من لقاء الشيخ البحريني الذي رفض أن يدلّهم على مكان تواجد الشباب أو أرقامهم!

إحساس بالحيرة والغربة يغمر الجميع حتى أنهم لاذوا بالصمت الذي كسره «ج» بقوله:

- سأذهب إلى الرجل العراقي وآخذ منه تلفون لكي اتصل بأحد أقاربي في البحرين حتى يعطيني رقم جعفر يحيى..

في البداية رفض الشباب هذه الفكرة حفاظاً على سلامة الشخص

المتواجد في البحرين .. لأن الأجهزة الأمنية تتنصت على جميع المكالمات الخارجية وخاصّةً من إيران!

لم تكن هناك حلول لهذه المشكلة، لذلك أذعنوا لفكرة جاسم الذي اصطحب معه علي بداح للقاء الرجل العراقي من أجل إجراء مكالمة تلفونية..

يروي محمد قائلاً:

- خرج جاسم ونحن بقينا في الفندق ننتظر.. أنا كنت متعباً ومرهقاً، وكذلك الشباب .. وبعد قليل عاد جاسم وعلي ومع جاسم «النقال».

محمد يسأل جاسم:

- الرجل العراقي أعطاك التلفون؟!

أجاب جاسم:

- اي أعطاني التلفون عشان اسوي اتصالات وليـن خلصت من الاتصالات كامل برجع ليه التلفون!

قام جاسم بإجراء اتصالات مع أحد أقاربه وطلب منه رقم جعفر يحيى .. وحصل على الرقم .. بعدها اتصل «حسين» بـ«جعفر» وأخبره بوصول الشباب إلى قم فجراً وبقائهم حيارى لا يعرفون إلى أين يتجهون؟!

قال جعفر يحيى:

- توجهوا إلى بوابة حرم السيدة المعصومة وانتظروني عند النافورات

.. سوف آتي حالاً..

توجه الشباب إلى النافورات داخل الصحن ووقفوا يترقبون وصول جعفر؛ بعد دقائق وصل جعفر يحيى وحيا الشباب المهاجرين وقال لهم بحرارة:

- سآخذكم إلى بيت الشباب

كان محمد يشعر بالفرحة .. تغمر كيانه كنبع يتدفق مياهً عذبة باردة صافية!

شعر محمد بأنه يأوى إلى أهله ورفاقه مع أنه لم يكن يعرف أيّاً من الشباب في ذلك البيت .. ومع ذلك فقد كان هذا الإحساس يملأ نفسه .. فهؤلاء الشباب المهاجرون قادمون من وطنه وديارة .. أنهم من البحرين .. من تلك الجزيرة الحبيبة..

أدار جعفر المفتاح في القفل ودعا الشباب إلى التفضل بالدخول .. كان متحمساً لوصولهم حتى أنه راح يوقظ الشباب النائمين قائلاً:

- قوموا واستقبلوا الشباب

نفض الشباب ضباب النوم وقاموا للترحيب برفاقهم القادمين من أرض الوطن .. وقد ترك الاستقبال الحار والصميمي لهؤلاء الشباب في نفس محمد انطباعاً إيجابياً للغاية .. وبادر الشباب إلى عرض خدماتهم، وقد سادت روح الأخوة والتعاون بين الجميع:

- هل تحتاج إلى ملابس؟!

- هل تحتاج إلى تلفون للتواصل مع أهلك في البحرين؟ حتى

تطمئنهم ويطمئنون على وصولك إلى إيران بسلام؟!

كانـوا يسـألون عـن أي شـيء يحتاجـه المهاجـرون الذين وصلـوا قبيل ساعات!

غمر الشـعور بالارتياح جميع الشـباب .. كانت روح المحبة والتعاون تسود الأجواء في بيت الشباب!

شـعر محمـد بـأن أعصابه المشـدودة قد بـدأت بالاسـترخاء حتى أنه غفا وانزلق في خدر النوم هادئاً مطمئناً وكان السلام يرفرف بأجنحته في ذلـك البيـت الكائن في شـارع «صفائية» القريب من حرم السـيدة فاطمة المعصومة!

ارتفـع أذان الظهر ونهض الشـباب للصـلاة، وبعدها جلس الجميع إلى «السفرة» وراحوا يتناولون غداءهم على مهل ويتجاذبون أطراف الحديث .. أخوة متحابين متآلفين..

قال «أحمد يوسف»:

- سـنخرج للتسـوّق وشراء ما يلزم من ملابس وغيرها، وبعد التسوّق نعود إلى البيت وسأطلعكم على بعض القوانين في بيت الشباب!

وهكذا خرج المهاجرون متجهين إلى السوق..

وبعـد العودة من التسـوّق وشـراء مـا يلزم من أشـياء .. تحدث أحمد يوسف حول القوانين في بيت الشباب، قال:

- عندنـا جـدول أسـبوعي يلتزم به الشـباب؛ ونحن نتقاسـم الأعمال المنزليـة فـي البيـت؛ مثـلاً فـي كل يوم يتحمـل اثنان من الشـباب

أعمـال المنـزل؛ اثنان لطهـو الطعام واثنان لغسـل الصحون واثنان لتنظيف المنزل من كنس وترتيب واثنان لغسل الثياب..

يقول محمد وهو يصغي إلى كلام أحمد يوسف:

- هذا الشيء ولّد عندي انطباعاً بأن الشباب متعاونون في كل شيء .. وسأستطيع العيش معهم!

في وقت متأخر من الليل يضع محمد رأسـه على الوسـادة في المكان المخصص له .. شعر بأنه قد وضع عصا الترحال في هذه المدينة المقدسة .. تبدد ذلك الشـعود بالضياع .. الشـعور بالحيرة! تبددت مشـاعر الغربة .. وراح يسترسل في أفكاره .. يقول محمد وهو يتحدث عن مشاعره:

- عند وصولي إلى قم المقدسة لم يكن هناك من أحد في استقبالي؛ فبقيت في حيرتي .. السيدة فاطمة المعصومة هي أول من آوتني في غربتي .. منذ أن وضعت قدمي في حرم السيدة شعرت بأنني لسـت غريبـاً وأنـا في رحاب هذه السـيدة التي قدّر لهـا الوفاة في هـذه البقعـة من أرض الله .. أحسسـت بالأمان وأنـا داخل الحرم حيث تظلل مئات المرايا الضريح الفضي..

كان المـكان يغـصّ بالزائريـن والأكف تمتد إلى شـبابيك الضريح تبركاً والجميع يتوسل إلى الله بجاه هذه السيدة لاستجابة الدعوات..

محمـد يمـدّ يـده إلـى شـباك الضريـح .. يمـلأ صـدره بشـذى جنـات الفردوس .. يخاطب السـيدة بنت الإمام موسـى الكاظم وشـقيقة الإمام علـي الرضـا وعمة الإمـام محمد الجواد .. يعاهد هذه السـيدة المظلومة المقهورة:

- سيدتي! أيتها الغريبة المظلومة .. يا بنت رسول الله .. يا بنت أمير المؤمنين .. يا بنت فاطمة الزهراء وخديجة الكبرى!

- سيدتي نحن على نهجك سائرون .. وها نحن اليوم غرباء في هذا البلد! إننا في حضرتك وفي رحابك لسنا بغرباء سيدتي! اشفعي لنا عند الله .. سيدتي نريد الوصول إلى إخوتنا!

بعد تلك الزيارة شعر محمد بنبع من السكينة يترقرق في أعماقه .. لقد كان واثقاً بأن الله سيسهل أمورهم وسيلتقي بأخوته المهاجرين الذين سبقوه بالهجرة إلى هذا البلد!

ها هو الآن يغفو بسلام في بيت الشباب .. هذا البيت لذي تسوده أجواء الأخوة والمحبة والتعاون .. شعر كما لو أنه في وطنه في البحرين .. في قريته الحبيبة «واديان».

يروي محمد طوق ذكرياته عن تلك الأيام:

- كان على رأس برنامجي في مدينة قم زيارة السيدة فاطمة المعصومة .. في كل يومين كنت أتوجه لزيارة الحرم الطاهر .. اقرأ الزيارة وأصلي ركعتي الزيارة .. وكان الوقت المفضّل قبل غروب الشمس بدقائق .. فكنت أصلي صلاة العشائين في الحرم الشريف.

ويستطرد قائلاً:

- السيدة فاطمة المعصومة كانت ملاذاً لي ولجميع الشيعة .. عندما أشعر بالضيق .. عندما تنتابني هواجس الغربة كنت أتوجه

على الفور إلى حرم هذه السيدة الجليلة .. عندما أدخل إلى الحرم .. وعندما أكون تحت القبة التي تسطع بالأنوار .. كنت أشعر بأن السيدة تمسح على قلبي فتتبدت مشاعر الضيق .. ما إن امسك بشباك الضريح حتى أشعر بنبع من الطمأنينة والسلام يترقرق في داخلي!

في هذا المكان الطاهر حيث ترفرف أجنحة الملائكة مثنى وثلاث ورباع .. كان محمد طوق يشعر بالسكينة والهدوء .. وكانت بوصلة القلب تنتظم وتتجه إلى نقطة ما هي مركز الوجود .. هنالك تنطلق الدعوات وفي طواياها أمل ورجاء .. من هذا المكان المقدّس تنطلق الآمال والأمنيات لا يحدّها حدود ولا تقف في طريقها سدود!!

حتى عندما كان يذهب إلى زيارة مشهد الإمام الرضا عليه السلام كان يشعر بالحنين إلى قم .. مشاعره تمتزج بين الحنين إلى بيت الشباب وبين الشوق لزيارة السيدة فاطمة .. وكان شوقه لزيارتها جارفاً..

رفاقه وأصدقاؤه كانوا يظنون أنه قد اشتاق لرؤية أخوته في بيت الشباب .. والحقيقة كان حنينه لزيارة الحرم الشريف للسيدة متوقداً في أعماقه!

حتى عندما كان في المعتقل .. كان يجلس وحده ويسرح بخياله الوثاب ليعبر أسوار السجن ويعبر البحر ويغادر البحرين ,, ويتجه شمالاً إلى مدينة قم ويتصوّر نفسه وقد ولج الحرم الطاهر .. رآه مرّة «ض.م» هكذا جالساً لوحده! قال له:

- ماذا بك جالس لوحدك وتفكر؟!

فيقول له:

- لقد اشتقت إلى زيارة السيدة المعصومة!!

ثم يروي له ذكرياته ويرسم في خياله مشاهد الجمال وأجواء الروحانية والأنوار الشفافية وكيف تنطلق الأرواح إلى عوالم بعيدة .. إلى ما وراء العالم الدنيوي المادي، ثم يتنهد قائلاً:

- بمجرد أن أخرج من السجن سأسافر إلى هناك!

ولكن ما بالنا نستعجل الحوادث ومحمد طوق ما يزال في إيران حرّاً طليقاً تنتابه بين الحين والآخر مشاعر الغربة والبعد عن الديار يشدّه الحنين إلى البحرين!

وتمرّ الأيام .. ومشاعر الشوق إلى الوطن تستعر في أعماقه وتصبح هذه المشاعر أكثر إلحاحاً بمرور الأيام إلى أن استحالت إلى هاجس .. خاصّة عندما يتمدد في فراشه للنوم .. وقد غمرت الوجود غلالة من السكينة .. العصافير عادت إلى أعشاشها والطيور إلى مأواها منذ المساء .. العابرون عادوا إلى بيوتهم حيث ينشر الدفء العائلي بستائره الموحية!

وحدهم الغرباء يسهرون .. لا يستطيعون النوم .. حقاً إن الغربة أقسى من وجوه الجلادين!

وتنطلق تمتمات ومناجاة الذين يشعرون بصقيع الوحدة:

- يا حبيب من لا حبيب له! يا أنيس من لا أنيس له!

محمد راقد في فراش النوم وروحه تحلّق بعيداً تأخذه أجنحة الخيال .. يقطع المسافات الطويلة .. يعود إلى الأحبة والديار..

فجأة يضج في أعماقه تساؤل: لماذا لا أعود إلى البحرين؟! ويحلّق بروحه يقطع المسافات الطويلة .. يجتاز البراري ويعبر البحر .. يصل إلى أرض الوطن! ولكن ماذا سيفعل؟!! هنالك يصحو من استغراقه في رحلة الخيال ليجد نفسه في الفراش .. وهكذا إلى أن يحط طائر الكرى؛ فيغمض عينيه وينزلق في بحيرة النوم وعالم الأحلام!

في عالم المنام رأى محمد نفسه قد عاد إلى الديار .. إلى أرض قريته واديان .. في المزرعة يمتطي صهوة جواده وينطلق في البراري .. باتجاه ساحل البحر حيث تبزغ الشمس من المياه المتموجة!

فجأة يتذكر موعد المسيرة .. عليه أن يشارك مع رفاقه وأخوته في مسيرة «واديان»؛ لذلك لوى عنان جواده وراح ينهب المسافات للعودة إلى واديان .. قرر هذه المرّة أن يهاجم مرتزقة النظام وهم بكامل أسلحتهم .. أما هو فلا يملك سوى راية خضراء مكتوب عليها «نصرٌ من الله وفتحٌ قريب» .. همز جواده وهتف بأعلى صوته: تحيا البحرين والموت لآل خليفة العملاء..

استيقظ محمد على صوت أذان الفجر ليجد نفسه في فراش النوم .. شعر بالأسف على فراقه أخوته ورفاقه..

نهض ليسبغ وضوءه ويؤدي الفريضة ودعا الله سبحانه أن يخرجه من هذه الحيرة..

هاجس العودة إلى البحرين يكبر وشوقه إلى الأهل والأحبة وربوع الوطن يتأجج في أعماقه ومشاعر الغربة تلهبه..

من أجل هذا كان قلبه يهفو لزيارة السيدة فاطمة .. كان يقطع

الطريـق ماشـياً يشـعر أن خطواتـه ضائعـة ولكـن مـا أن يضـع قدميه في الصحـن ويقـف قبـال بـاب المرايـا حتى تتبـدد أحاسـيس الغربة ويشـعر بالسكينة والطمأنينة والسلام!

وفـي داخـل الحـرم قـرر أن يتوجـه لزيارة مشـهد الإمـام الرضا عليه السلام .. خاصّة وأنها ستكون زيارته الأولى للإمام الثامن من أئمة أهل البيت عليهم السلام؛ مـن يـدري قـد يعود إلى البحرين ومن العار ألا يكـون قد زار الإمام الرضا في غربته في شرق خراسان!

ويشـدّ محمد الرحال نحو الشـمال الشـرقي .. قطع تذكرة ومن مطار مهرآباد في طهران .. أقلعت الطائرة نحو مشهد حيث استغرقت الرحلة حدود ساعة..

هبطـت الطائـرة فـي مطـار مشـهد كان صديقـه أحمد قـد أعطاه رقم تلفـون أحـد الشـباب في مشـهد .. في هـذه المدينة المقدسـة ثمة بيت للشباب البحريني .. ولذلك استأجر سيارة تاكسي أقلته إلى عنوان البيت..

كان محمد قد سمع بأن الإمام الرضا عليه السلام هنا يعرف بـ«شمس طوس» و«أنيـس النفـوس»، عندمـا اسـتقر فـي بيت الشـباب شـدّه الشـوق لزيارة الإمام الرضا عليه السلام..

دخـل إلـى الصحـن المعـروف بـ«صحـن الإمـام الخمينـي» واتجه إلى الحـرم الطاهـر.. عندمـا أصبـح تحـت القبـة المزيّنـة بـآلاف المرايا شـعر بالراحة كعصفور عاد إلى عشّه؛ حقاً أن الإمام عليه السلام أنيس النفوس..

لامسـت كفـاه الضريـح المضمـخ بشـذى جنـات الفـردوس .. تصـوره جالساً يستقبل زواره القادمين من كل حدبٍ وصوب..

انبعثت في أعماقه دعوات خالصة كما لو أنه يخاطب الإمام قائلاً:

- يا سيدي ويا مولاي يا بن رسول الله اشفع لي عند الله فإنّ لك عند الله جاهاً وأي جاه وشأناً وأي شأن! اشفع لي عند الله سبحانه أن يعينني على تحمل آلام الغربة..

شعر محمد بنبع من الطمأنينة يترقرق كساقية في وادٍ ظليل! حتى أنه نسي كل شيء .. كان هادئاً وقد انتظمت مشاعره واسترخت أعصابه كما لو أنه طفل في المهد!

ويعود بعد بضعة أيام وليال إلى مدينة قم ليعاود برنامجه اليومي في زيارة السيدة فاطمة شقيقة الإمام الرضا عليه السلام .. إلى مشاركته في بعض الفعاليات التي يقيمها شباب البحرين .. الشباب هنا يحملون هموم الوطن .. يتابعون ما يجري في أرض الوطن! لذلك تجد لهم نشاطاً دؤوباً في مجال الإعلام والنشر والتوثيق ويحاولون بشتى الوسائل فضح ممارسات آل خليفه العملاء..

وتمرّ الأيام ويقرر محمد طوق السفر إلى العراق مرفأ الأئمة الأطهار عليهم السلام .. لقد تاقت نفسه إلى زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام في النجف وزيارة نجله الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء وزيارة أخيه أبي الفضل العباس عليه السلام وزيارة الإمامين موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد عليهما السلام وزيارة الإمام علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام في سامراء!

الفصل الرابع: إلى النهرين

حزم محمد طوق حقيبة السفر وتوجه إلى مطار الإمام الخميني الذي يقع على بعد حوالي مئة كيلومتر على الطريق بين قم وطهران .. ومن المطار الدولي أقلعت الطائرة إلى العراق لتهبط في مطار النجف الدولي .. لم يكن محمد يصدّق أنه في طريقه إلى بلاد ما بين النهرين .. من البحرين إلى ما بين النهرين .. إلى أرض عليٍّ والحسين..

كانت الأقدار تسوق محمد طوق الذي بلغ من عمره أربعاً وعشرين سنة!

في مطار النجف الأشرف استأجر سيارة تاكسي تقلّه إلى مرقد أمير المؤمنين علي عليه السلام .. قلبه يخفق لزيارة «أسد الله الغالب» هكذا يتألق اسم الإمام عليه السلام في وجدانه..

أودع شنطته في «الأمانات» وخلع «نعليه» .. قلبه يكاد يفلت من بين أضلاع القفص الصدري؛ كطائر حبيس ينشد الحريّة .. يروي محمد ذكرياته عن هذه الزيارة، فيقول:

- كانت هذه أول زيارة لي في حياتي!

يقول إنه عندما دخل الحرم الطاهر أحسست بسيل من الطاقة الإيجابية .. شعر بتيار من القوة ينفذ إلى أعماقه، يقول:

- إنه عندما تلوح لك قبة أمير المؤمنين، عندما «تشوف» قبة هذا الأسد الشامخ أسد الله الغالب، هذي بس تعطيك روح واندفاع بشكل مو طبيعي!

كان من المقرر أن يتصل بـ«حسين آدم» أحد البحارنة المقيمين في مدينة كربلاء المقدسة وكانت لدى محمد علاقة طيبة معه .. أخبره أنه قد فرغ من زيارة الإمام علي عليه السلام ويريد التوجه إلى كربلاء وجاءه الجواب:

- أي سيارة تاكسي تأخذك إلى كربلاء .. أنا أخبر السائق في أي مكان تنزل!

هذا ما حصل؛ تحدث حسين آدم مع السائق وقال له:

- نزّله في باب طويريج

التفت السائق إلى محمد وأخبره بأن صديقه ينتظره في باب طويريج .. ابتسم محمد وهو يشعر بالرضا .. كان ما يزال تحت تأثير زيارته التاريخية للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وها هو الآن في طريقه إلى مدينة كربلاء .. هذه الأرض التي شهدت أعظم معركة بين الحق والباطل في تاريخ البشرية على الإطلاق .. في يوم عاشوراء تجلّى الصراع .. مجد الصراع الخالد بين قوة الشرعية وشرعية القوة .. وشهد الضمير الإنساني

كيف ينتصر الدم على السيف..

ثـورة الحسـين هـي ثورة العشـق الإلهي .. نهضة خالـدة من أجل الله سـبحانه والحـب الحقيقـي يتجسـد فـوق الثـرى .. عندمـا تقطـع أوصال الإنسان إرباً إرباً..

تركت الخلق طراً في هواكا

وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعتني بالحب إرباً

لما مال الفؤاد إلى سواكا

وجـد محمد طوق نفسـه وهـو يصغي في أعماقه إلـى أصداء قصيدة بصوت الشيخ حسين الأكرف:

- خذني وياك .. أريد أبقى وياك!
- غربة هالدنيا .. غربة بلاياك!
- جيتك بحنيني .. ليش ما تجيني!

وصلـت السـيارة إلى «باب طويريـج» ووجد «محمد» مـن ينتظره في هـذا المـكان الـذي يشـهد في ذكرى يـوم عاشـوراء تدفق ملايين البشـر! المتهافتين على زيارة الإمام الحسين عليه السلام في الظهيرة العظمى!

مـا إن وصـل محمـد إلى مكان السـكن حتى وضع حقيبته وكـرّ عائداً، فوجئ حسين آدم:

- إلى أين؟! وين بتروح؟!

قال محمد وقد تهدج صوته:

- بروح الإمام الحسين عليه السلام كعبة العشاق! كعبة الأحرار!

تأثر حسين آدم حتى أنه التزم الصمت وقد اكتسى وجهه هالة من الخشوع!

شعر محمد بأنه يضع قدميه في الجنّة .. هنا جنّة الأرض .. كان ينقل خطواته على مهل وقد فاضت أعماقه بالأحاسيس الإنسانية السامية .. شعور بالكرامة .. إحساس بالعزة والشرف والإباء .. مجد الدماء .. دماء الأنبياء! صهيل قادم من يوم عاشوراء .. أطول يوم في تاريخ الإنسان .. في هذه البقعة الطاهرة خاض الإمام الحسين وأنصاره وهم اثنان وسبعون أعظم ملحمة في التضحية والفداء .. وكان على الحسين أن يُذبح من أجل أن يوقظ بدمائه التاريخ والحضارة الإنسانية!

راودته فكرة ماذا لو يقيم هنا في العراق؟! ماذا لو يعيش في ظلال الإمام الحسين؟! كربلاء وطن لكل الأحرار .. هنا مهوى أفئدة كل إنسان يعشق آل رسول الله!

وتمرّ الأيام وقد ارتوى من تلك الأجواء العابقة بشذى الحب الإلهي وعبير النبوات .. هنا يرقد وارث آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد .. هنا تعبق كلمات التوراة وتتردد أنغام الزبور وتتألق بشارات الإنجيل وتصدح تراتيل القرآن العظيم!

ولكن ما بال قلب هذا الشاب البحراني؟! ما الذي أصابه فبدا كبوصلة تائهة؟! .. شوق جارف يشدّه إلى البحرين .. إلى واديان..

يبدو لوهلة وهي أننا نسكن في الوطن تم تتجلى الحقيقة بقوّة عندما يُهاجر .. فإذا بالوطن يسكن فينا!!

وهو لا ينفك يضرم في أعماق المهاجرين جذوة تتقد اشتياقاً .. تلهب في الوجدان حلم العودة! واحتدم الصراع مرّة أخرى وأصبحت أعماق محمد مسرحاً لشتى التجاذبات..

وشيئاً فشيئاً كانت أشواق العودة إلى أرض الوطن تحسم الصراع! لهذا شعر «محمد طوق» بـ«طوق النجاة» ينقذه من طوفان المشاعر المتصارعة وأعاصير التجاذبات المحتدمة!

وهكذا اتخذ محمد قراره النهائي لكنه انطوى على نفسه .. فوجئ حسين آدم عندما أخبره محمد بأنه قرر السفر في الصباح الباكر!

قال حسين آدم مستوضحاً:

- وين بتروح؟!

- بروح البصرة!

- ؟؟؟!!!

كان محمد في حقيقة الأمر قد عزم على المغامرة! لأنه لم يكن متأكداً من نجاحه في العبور إلى دولة الكويت .. وهناك احتمال كبير في أن يتم اعتقاله!

قال حسين وقد بدت المفاجأة على وجهه:

- ليش بتروح البصرة؟!

كان السؤال معقولاً جداً! لماذا البصرة؟!

لهذا قال حسين بهدوء وروية:

- محمـد! اسـألك سـؤال وجاوبني بصراحـة! أنت ما بتـروح البصرة! أنت تبغى ترجع للبحرين

بادر محمد نافياً:

- لا

- نعم أنت تريد الرجوع للبحرين!

- أنا ما برجع للبحرين

- وين بتروح؟!

- أنا بروح الكويت

- الكويت؟!

قـال محمـد ذلـك لأن حسـين آدم رفـض بشـدة فكـرة العـودة إلـى البحريـن فـي هـذه الظـروف، قـال له أنـت مطلوب ومطـارد، لذلـك أراد محمد الإفلات من هذا الضغط فقال: أنا بروح الكويت .. قال ذلك لأنه لا يستطيع العيش في إيران!

- ليش تبغى تروح الكويت؟!

- بـروح اشـتغل هنـاك وادور ليـي على وظيفـة في الكويـت وأعيش هناك..

بدا حسين مقتنعاً إلى حدٍّ ما، لهذا قال:

- أنت متأكد تقدر تمرّ؟ تقدر تعبر بسلام من غير ما يعتقلونك؟

لم يكن محمد متأكداً لكنه أراد كسب موافقته فقال:

- نعم أنا متأكد!

- ويش درّاك؟!

- أنا متأكد ما بيعتقلوني ولا بسوون ليي شي!

في الصباح الباكر غادر محمد بيت الشباب إلى گراج كربلاء حيث سيارات التاكسي والباصات التي تقلّ المسافرين من وإلى كربلاء..

ركب محمد أحد الباصات إلى البصرة .. محمد هو المسافر البحريني الوحيد بل هو المسافر الوحيد الذي لم يكن عراقياً .. الباص يطوي المسافات الطويلة متجهاً إلى الجنوب .. في رحلة تستغرق ست ساعات!

وخلال الطريق كان بعضهم يسألون عن وجهته في مدينة البصرة فيقول لهم أنه ينوي العودة إلى بلده البحرين عن طريق الكويت..

سألوه عن البحرين والحياة في البحرين .. راح يتحدث معهم بصفته زائر يريد العودة إلى وطنه بعد أداء مراسيم الزيارة .. ومع ذلك أشار في حديثه إلى ما يجري في البحرين من اجتجاجات ضد النظام الخليفي .. لم يذكر لهم أنه مطلوب وملاحق .. أنه مجرد مسافر يروي لهم بعض المشاهدات مما يجري في بلده من ويلات وعما يعانيه شعب البحرين من محن!

لم يذكر محمد كيفية وصوله الحدود العراقية مع الكويت، يقول:

نزلت اتمشّى .. كانت فيه باصات فيها زوار ما يحق لي أن أروح

اركـب وياهم فجيت اتمشـى إلـى الحدود العراقية، فسـلمت جوازي إلى الموظف العراقي .. هو استغرب جاي مشي! فقال لي: أنت ويه حملة؟

- قلت له: لا، بروحي
- قال: شلون أنت جاي مشي؟!
- قلت: اي بدش الكويت ومن الكويت داخل باخذ تكسي!

ما يزال الموظف مستغرباً كيف يسافر شخص من دولة إلى دولة مشياً على الأقدام!!

ختم الموظف العراقي على جواز السفر «مغادرة»..

كان محمد نفسـه مسـتغرباً .. المسـافرون ومن خلال زجاج الباصات يتفرجون على هذا المسـافر الغريب الذي يسـحب حقيبته فوق أسـفلت الطريق العام متجهاً نحو الحدود الكويتية..

في المكتب حيث يتم ختم الجوازات .. شـعر محمد أنه قد وقع في مـأزق أو هكـذا تصـوّر وأراد تمشـية جـوازه والإفلات من إثارة الشـكوك .. لمـح أحـد أصحاب حملات السـفر يدخل ويحمل عدداً كبيـراً من جوازات السفر.. وضعها على المنضدة للختم .. قام محمد كما تصوّر بحركة ذكية فبادر إلى وضع جوازه مع ذلك الكم الجوازات .. حشـر جوازه في وسـطها وعـاد إلـى مكانه حيـث كان يجلس وراح يراقـب أداء الموظف الذي كان يقوم بختم الجوازات بسـرعة .. فجأة توقفت حركاته السـريعة عند أحد الجوازات .. ينقر في الحاسوب ويعيد النظر في الجواز! فعل هذا أكثر من مرّة!

شـعد محمد بالخوف أن يكون قد ظهر اسـمه على الكامبيوتر .. تقدم زميل لذلك الموظف .. وضع يده على كتفه وسـأله عن المشـكلة .. كان ينظر إلى شاشة الحاسوب!

أيقـن محمـد بحلـول لحظـة الاعتقـال؛ قـال فـي نفسـه: خـلاص بيّن عندهم في السيستم أنه مطلوب للبحرين وراح يسلموني!!

قال الموظف ينفي ظهور شيء ولكن السيستم يرفض دخول الاسم!

أخد الموظف المراقب الجواز ونادى: محمد إبراهيم!

أجاب محمد: نعم!

- حياك؛ تعال هناك في الكونتر الثاني!

اتجه محمد إلى المكتب الثاني، قال الموظف المسؤول: تعال مناك!

اتجـه محمد إلـى الجانب الآخر وقد اعتراه شـعور بالخوف!! اقتربت لحظة الاعتقال!

جاهـد محمـد أن يبـدو طبيعيـاً جـداً؛ راح الموظـف ينظـر فـي الجواز ويحدق في وجه محمد إبراهيم ثم قال:

- أنت من وين جاي؟
- من العراق
- شلون رحت العراق؟!
- مطار البحرين!
- عبرت على مطار الكويت؟!

- لا! أنا طلعت من مطار البحرين إلى مطار النجف
- ليش اجيت على البر؟!
- ما عندي بيزات كفاية للتذكرة .. البر أرخص لي .. من جدي راجع على البر؟!
- أنت مادشيت كويت من قبل؟
- لا! هذي أول مرة

بـدا الوضـع طبيعيـاً بعد هـذا التوضيح .. لم يكن جـواز محمد يحمل رقـم إجراءات الدخول للكويت فسـجل الموظف رقماً خاصاً بالإجراءات ثم ختم على الحواز وسلّمه إلى محمد قائلاً:

- حياك

كان ريقـه قـد نشـف وقد لمح «مطـارة ماء» تعـود للموظف فخاطبه راجياً:

- رحم الله والديك عطني الماي

يقول محمد: «حلقي نشف فقلت له عطني الماي»

وناوله الموظف مطارة الماء..

وغادر محمد المكان واتجه خارجاً ليسـتأجر سـيارة تاكسي تأخذه إلى وجهته..

الحيـاة فـي الكويت ليسـت سـهلة لمن كان في ظـروف محمد خاصّة وأنه ما يزال يعيش بكل وجوده هاجس العودة إلى الوطن .. وكان ينتظر

ويترقب اللحظات المناسبة لهذه العودة!

يقـال أن حلـم العودة إلى أرض الوطن لدى المهاجر يكبر بمرور الزمن ولكن في نفس الوقت فإن الإرادة تتراجع باستمرار .. غير أن هذه المقولة لا تصـدق علـى محمـد إبراهيم طوق .. في كل يـوم كان هاجس العودة إلى الديار ينمو ويشـتد ويسـتحيل إلى نداء يضج في الأعماق الحائرة .. ثمـة ظمـأ يسـتعر في داخلـه ولن يطفـئ غليلـه إلا معانقة الوطـن ولقاء الأحبة .. حتى لقاء الأحبة لن يكتمل إلا على أرض الوطن..

يقـول محمـد: «العملـة غاليـة فـي الكويـت .. لا بد تشـتغل علشـان تعيش .. سعيت هنا وهناك وحصلت على عمل..

اشتغل محمد في مطعم كان يسجل «طلبيات» الزبائن؛ كما عمل في «الكيشر» فترة .. بعد ذلك انتقل إلى العمل في مجال الخيول .. وكانت لديـه خبـرة في هذا المجال .. وتمرّ الأيـام ويبقى يعيش هاجس العودة إلـى البحريـن .. ما تزال عاطفة الوطن تتأجج في فؤاده .. يشـدّه الحنين إلى البحرين .. وعجيب ماذا يفعل حب الوطن في الإنسان .. لم يستطع أن يقنـع نفسـه بالبقـاء والاسـتقرار في العـراق وتحديداً فـي كربلاء التي ينظر إليها محمد على أنها «جنّة الأرض»!

حـدود مئـة يـوم مضـت علـى وجـوده فـي الكويـت ومشـاعر الغربـة تتفاقـم؛ إنهـا مشـاعر يمتـزج فيها الحنين مـن أنين النفـس وتحدث حالة من الانفصال بين الروح والجسـد؛ الجسـد هنا في إيران .. في العراق .. في الكويت وفي أي مكان .. لكن الروح تبقى دائماً وأبداً في البحرين..

كم من مرّة ومرّة أراد الإقامة في ظلال المراقد المقدسة؟!

فـي ظـلال نخيل كربلاء .. لكن تيار العاطفـة المتدفق من هذا الجزء النابـض فـي يسـار القفـص الصـدري كان يجـرف كل قراراتـه لتغـرق فـي شواطئ البحرين!

كان محمـد يجـد صعوبـة فـي التأقلم بعيـداً عن رفاقـه .. إنهم هناك والعديد منهم في قوائم المطلوبين يعيشون حالة من التشرد .. لقد ذاق محمد مرارة المطاردة ومعاناة الملاحقة..

المطـارد لا أهـل لـه ولا أصدقاء .. إنه وحيد وغريب في وطنه!! ليس من الوفاء أن يعيش الإنسان بعيداً عن رفاقه يتركهم في محنتهم أما هو فيعيش طليقاً مستمتعاً بالحريّة كحمامة برّية!

يستعيد محمد أيام إقامته في مدينة قم ولياليها الأخيرة كان يتواصل مـع رفيـق دربـه وصديقـه الحميم «علي فيصـل» .. فـي كل كان يتواصل معـه وكذلـك كان يتواصل مع صديقه الطيّب صادق تقي وجلال الوزير.. ثمة حديقة تقع خلف مرقد السيدة فاطمة المعصومة..

كان محمد يجلس في إحدى زوايا تلك الحديقة بالقرب من النافورة!

ومـن خـلال برنامـج «زلـو» كان يتواصـل مع علـي فيصل، قـال له أنه قرر العودة إلى البحرين، ليلتها قال علي فيصل ما لم ينسـاه أبداً! قال له بمرارة وألم:

- مو مشكلة في الرجعة .. أنا خايف من شغلة وحدة! أنا خايف .. أنـت طلعـت وتباعدت عنا وفقدناك .. احنـه بعيد .. وأنت بعيد .. أنـا خايـف أنـت ترجـع وقبـل لا تدخـل تنصاد .. هم نخسـرك الخسـارة الكبيرة! أنا خايف من ده .. أنا ما ناسـيها كل قعداتنا ..

سوالفنا

لكن محمد ختم الحديث بالقول: المهم في البداية أنا برجع! وهكذا كان محمد يبحث عن طريق للعودة إلى البحرين! استبعد فكرة العودة عن طريق البحر .. بسبب صعوباتها وتعقيداتها .. وتبلورت فكرة السفر إلى السعودية ومن السعودية إلى البحرين!! لكن المشكلة في الحصول على صاحب باص مستعد أن يجازف بإدخال شخص مطلوب للنظام ونقله من السعودية إلى البحرين!

كان محمد يتواصل مع صديقه الحميم «علي فيصل» وكذلك مع صادق تقي وكانت المهمة البحث عن «راعي باص» مستعد للقيام بهذه المغامرة!

بعد البحث تم الحصول على سائق باص «دريول باص» فاتحه علي وصادق بالموضوع:

- عندنا واحد نبغي نرجعه من السعودية إلى البلد .. إلى البحرين!
- تمام .. مو مشكلة بدخله .. المهم خبروني!

طلب محمد من صديقيه التأكد من هذا الشخص .. ولأن هذا العمل خطير:

- تأكدوا منه أزيد .. هذا قرار صعب! يعني من ينصاد خلاص تصير مشكلة! ما يشوف الشمس!

أكد سائق الباص موقفه السابق قائلاً:

- ما كو مشكلة خلّه ينزل للسعودية!

اقترح سائق الباص أن ينزل محمد للسعودية في يوم عيد العمال .. الناس في حينها كانوا يتوجهون إلى المدينة المنورة لزيارة النبي الأكرم ﷺ .. يحاول محمد استذكار ذلك ربما كان يصادف يوم السبت .. وكانت الفكرة أن محمد يمضي يومين أو ثلاثة .. يعني يكون يوم الأربعاء هو يوم العودة إلى البحرين!

محمد يتصل بصديقه .. أخبره أنه في الكويت يطلب منه المجيء للكويت .. في البداية تفاجأ صديقه بوجوده في الكويت يحاول استيعاب الأمر .. لكن محمد يقطع عليه سلسلة استفساراته ويستعجله في المجيء .. الرفيق من النوع الذي لا يرد طلبه .. بادر إلى زيارته في الكويت .. لم يكن وحده فقد اصطحب أحد الأصدقاء من قريته شاب يدعى «م» .. سأله الصديق متى تريد اجي؟

قال محمد: باچر!!

جاء الصديق ومعه «م» في اليوم التالي .. كلاهما من قريته الحبيبة «واديان»..

لا الصديق ولا «م» يعلمان بنوايا محمد وقراره في العودة إلى البحرين!

مكثا يومين وعندما أرادا العودة إلى الديار؛ فاجأ محمد صديقه قائلاً:

- وصلوني معاكم!

فوجئ الصديق:

- وين نوصلك؟!

- ابغي اروح للسعودية!
- ويش فيك؟! أنت مسودن .. مو صاحي!! ويش قاعد تفكر!! ويش هالقرار!

قال محمد بإصرار:

- ابغي اروح السعودية .. أنا خلاص تعبت .. الغربة تعبتني! الوضع الي عشته تعبني .. أنا ابغي ارجع البلد .. الي يصيد ربعي يصيدني .. أنا قاعد بالأمان وهم في الضيق والخطر!
- مستحيل محمد! أنت مو عاقل
- خلاص .. أنا قررت .. عندي أحد في السعودية..

تكلم محمد بهدوء .. أخبرهما بأنه لا شيء عليه .. لأنه دخل الكويت بطريقة قانونية .. كانا خائفين مما يحصل .. وأخيراً وافقا وتوجهوا ثلاثتهم باتجاه الحدود مع السعودية ودخلوا الجمارك .. «م» وصاحبه كانا يتوجسان خيفة .. سلّموا الجوازات .. ختم الموظف على جواز الصديق وصاحبه «م» .. وعندما فتح جواز محمد طوق نادى: وين محمد إبراهيم؟!

انخطف لون الصديق و«م»..

هتف محمد في أعماقه: يا جدّ السادات! يا رسول الله!

ثم أجاب:

- نعم

كان الموظف يريد تطبيق صورة صاحب الجواز مع الشخص الذي يحمله وهذا إجراء طبيعي، لكن ظروف محمد جعلتهم ثلاثتهم حساسين للغاية..

نظر الموظف السعودي في وجه محمد وختم على جوازه وهكذا دخل الأصدقاء الأراضي السعودية..

بادر محمد للاتصال بـ«صادق تقي» وأخبره قائلاً:

- وصلت السعودية .. كلّم صاحبك

- تمام

السيارة تنهب الطريق العام .. توقفت السيارة في محطة وترجلوا لتناول الغذاء .. الساعة تشير إلى الثانية ظهراً..

اتصل صادق تقي ليقول أن صاحبه غير موجود .. يعني هو موجود في الشغل ومحل العمل .. كانت الفكرة التوجه إلى «العوامية» .. في العوامية يوجد شخص إما أن يكون شقيقه أو نسيبه! وهو سيأتي لنقلك..

- ماكو مشكلة! طرش لي رقمه!

وسرعان ما ظهر الرقم المطلوب..

كان محمد قد فعّل خدمة الانترنت من خلال ابن قريته «م»..

تواصل محمد مع صاحب الرقم، قال يعّرف نفسه

- أنا من صوب فلان..

- اي عندي خبر

طبعاً هذا الشخص لم يكن يعرف محمد طوق ولا سبب مجيئه إلى السعودية .. يعرف فقط أنه شخص بحريني .. لكن ما يعرف «ويش سالفته»!

عندما وصل محمد ورفيقاه قريباً من «العوامية» اتصل على الشخص الذي ينتظره وأخبره، فجاء صوته:

- دش داخل العوامية..

ولدى دخولهم العوامية صدمتهم مشاهد الشباب يحملون رشاشات كلاشنكوف يسيرون في الشارع!! كما لاحت ثكنات عسكرية بالقرب من أحد الميادين القريبة من مركز المدينة!

اتصل محمد للشخص، قال له وبقلق واضح:

- تعال اكو هني شباب حاملين أسلحة ويتمشون في الشارع! والوضع مو طبيعي عندكم!!

جاء صوته مستغرباً:

- وين دشيتون؟ انتون رحتون محل الغلط!!

وظهر أن «م» لم يفهم العنوان جيداً وكان «مضيّع الوصف» ودخل وسط «المعمعة»!

في صباح هذا اليوم حصلت مداهمات ومصادمات في العوامية أسفرت عن وقوع ثلاثة شهداء من الشباب المقاوم..

السكان في القطيف وخاصّة في العوامية لا تختلف محنتهم عن محنة أخوتهم في البحرين! ولعلّها أشد مرارة..

قال محمد لـ«م»:

- ويش سويت!! دخلتنا وسط المعمعة!

كان الاتصال ما يزال مستمراً فأرشدهم الشخص إلى محطة بترول يتعيّن عليهم التوجه نحوها..

وهناك حصل اللقاء، لذلك بادر محمد إلى وداع صديقه وابن عمه، قال لهما:

- إن شاء الله نشوفكم لين الله كتب!

وهكذا أصبح محمد وحيداً في السعودية، كل ما يعرفه هو أن يرافق هذا الشخص إلى المكان الذي سيستقر فيه ريثما يتم التواصل مع صاحب الباص!

أخذه الشخص إلى بيت من بيوت العوامية .. المكان لم يكن آمناً وأصداء إطلاق الرصاص قريب منه جداً..

بقي محمد طوق داخل هذا البيت إلى غروب الشمس، ضاقت نفسه ولم يعد يتحمل البقاء أكثر من هذا الوقت! لذلك قال محمد بلهجة حازمة:

- ما يصلح اقعد هني!! يا اطلّعني تشوف محل غيره .. أو إذا ما عندك مكان أنا بتصرف! بحاول اشوف ويه الشباب..

لم تكن لمحمد خيارات في الحقيقة لكنه تعمّد أن يتحدث معه بهذه الطريقة .. وسرعان ما آتت ثمارها، أجاب الشخص على الفور:

- لا .. بنطلعك عجل!

وبالفعـل أخـذه إلى منطقـة أخرى تدعـى «الرامس»؛ منطقـة الرامس كانت منطقة زراعية مليئة بالحقول والدوالي..

قاده الشخص إلى إحدى المزارع .. كان فيها حجرة ومطبخ وحمام..

انتابـه شـعور غريـب بـأن هذا المـكان ليـس طبيعياً .. غاب الشـخص لدقائق ثم عاد وهو يحمل بندقية كلاشنكوف، ناوله البندقية وهو يسأله:

- ويش اسمك

أجاب محمد على الفور:

- بسّام!

استغرب محمد وهو يرى الشخص يسلّمه الكلاشنكوف:

- ليش هذا السلاح؟!! ويش صاير؟!!

قال مطمئناً:

- ما عليك أنت خلّه عندك احتياطاً

- شنو الموضوع!! احتياطاً يعني في شيء؟!

شعر محمد بأنه قد جاء إلى المكان الخطأ!! قال في نفسه: «المكان مو آمن» ومع ذلك قال محمد وهو يحاول أن يكون طبيعياً:

- مو مشكلة

تشوّش ذهنه! يحاول جاهداً تنظيم مشاعره، لكن هؤلاء المتواجدين معـه فـي هـذه المزرعة غير مريحيـن! هكذا كانت مشـاعر محمد .. قلبه يحدّثه بذلك .. إن قلبه لا يخطئ!

يقولون إن القلب يعرف طريقه تماماً كالنهر!

غابت الشمس وحلّ وقت صلاة المغرب، نهض محمد للصلاة .. تمنّى أن يكون الآن في حرم السيدة فاطمة المعصومة .. في تلك الأجواء الروحانية .. ما أحلى الصلاة!! يشعر المرء بالطمأنينة تنساب في كيانه كساقية تترقرق في وادٍ مغمور بالنور مفعم بالصمت..

فكر في مصيره وكيف قادته قدماه إلى هذا المكان!

مجموعة من المسلحين المستعدّين لأي احتمال هجوم عليهم!

لام نفسه وفي داخله صوت ينتقده بمرارة:

- تعال! أنت الحين رايح لويش؟! وأنت بتسعى لويش؟! بتدخل البلد وتسوي لروحك قضية! ما بالك الحين لو يهجمون .. لا سمح الله .. الشرطة أو شيء .. تنقتل هني!! وتنصاد هني!!

قرر محمد مغادرة المكان بأي ثمن! لذلك نادى على الشخص الذي جاء به إلى هذا المكان وطلب منه «انترنت»:

- ابغي اشبك بالتلفون! ابغي انترنت
- ليش؟!
- ابغي اتواصل ويه أحد الأصدقاء!
- تكرم عينك يا بسّام!

استجاب بعد تردد وشبك لمحمد على الانترنت؛ وسرعان ما اتصل محمد بـ«ج» وأخبره أنه في القطيف حالياً!

- شوف «ج»! أنا في القطيف حالياً

فوجئ «ج» بالخبر:

- ويش وداك القطيف؟!

- أنا الحين في القطيف! ما عليك ليش .. هي بعدين نسولف فيها!

«ج» يحاول استيعاب ما يسمع! قال محمد مستطرداً:

- المهم الحين أنا في ورطة! أريد تشوف لي مكان .. يعني ما اقدر اقعد ويه دلين! وما عندي أحد .. لازم تشوف لي مكان أقعد فيه!

- لمتى؟!

- كلها يومين أو ثلاثة وبطلع

- وين بتروح؟!

- بعدين أفهمك الموضوع .. بس الحين شوف لي مكان

الدقائق تمرّ بطيئة ومحمد ينتظر ماذا سيفعل من أجله «ج»!

وجاء صوت المنقذ:

- حصلت ليك واحد بجي يشيلك

- متى!!

- بعد ساعة .. يعني الساعة 9 بيجي يشيلك من صوب المقبرة .. مقبرة العوامية

قال محمد من كل قلبه:

- تمام

كان محمـد يشـعر أنـه غريب في هـذا الجو الموبـوء!! وقد يحصل ما لا يحمد عقباه وحينئذ لا ينفع الندم! نادى محمد على الشخص وعندما حضر قال له بلهجة تبدو عادية:

- لو سمحت وصلني مقبرة العوامية

تساءل مستغرباً:

- ليش؟!

- بس وصلني

قام الشخص فأوصله إلى المقبرة .. كانت الساعة السابعة والنصف .. محمـد وحيد الآن عنـد المقبرة وقد فقد قدرة التواصل وكان أمله الوحيد حضور الشخص في الموعد المحدد وهو الساعة التاسعة!

ظل ينتظر أكثر من سـاعة .. حانت السـاعة التاسـعة! كان جالساً على أحـد الكراسـي المتناثـرة في ذلـك المكان .. الوقت يمـرّ ببطء ومحمد ما يزال «يحارس» الشخص وينتظر مجيئه في أسرع وقت..

محمد يشـعر بالقلق .. تتراجع آماله! هو الآن وحيد وشـعور بالغربة يعتصر قلبه..

مقابل المقبرة لمح محمد «برّادة» اتجه إليها وقال لصاحبها راجياً:

- ابغي اتصل!

- ايه ما كو مشكلة

اتصل محمد بالشخص أكثر من مرّة .. يرن التلفون ولكن لا أحد يرد!

وعاد محمد أدراجه إلى المقبرة .. شعور بالحيرة يدهمه .. وأصعب شيء أن يشعر الإنسان أنه وحيد في هذا العالم .. خاصّة في ظروف أمنية خطيرة..

محمد وبالرغم من شعوره بالغربة والوحدة والحيرة كان قد شطب على فكرة العودة إلى المزرعة!

وفي هكذا لحظات يستيقظ صوت في أعماق الإنسان .. صوت فيه لغة اللوم والانتقاد والعتاب:

- أنت ويش مسوّي بالدنيا اللّي يصيدني هذا العقاب؟! حطيت روحك في ديرة وما تدري وين رايح؟!

وفي الأثناء لمح جنازة وعدداً من مشيعين .. نهض من كرسيه وشارك في التشييع..

قدم لهم التعازي و«خلّف عليهم» ثم عاد ليجلس على كرسيه..

كان أحدهم قد لاحظ أن هذا الشاب غريب عن هذه المنطقة .. جاء الشاب وجلس إلى جانب محمد بعد أن حيّاه وشكره وقال له بأدب:

- أنت مو من المنطقة هني! من وين أنت؟!

قال محمد وهو يشعر بالأمل:

- صحيح أنا مو من هني .. أنا من البحرين .. كنت أحارس واحد

يبجيني وما أشوفه اجي!

- بشنو أقدر أخدمك؟

قال في نفسه؛ الحمدلله:

- لين تقدر تشبك لي على التلفون انترنت .. أنا بتواصل ويه أحد!

شبك الشاب العوامي على التلفون واتصل محمد بصديقه إبراهيم، قال له:

- ترى أخونا ما جه واتصل ليه ما يرد؟!

- الحين دقيقتين وأرد عليك

بعد دقائق اتصل إبراهيم:

- اتصلت ما يرد .. أنا ما عندي أحد غيره!

رجع محمد إلى نقطة البداية .. ليس له أحد غير هذا الشخص وهذا الشخص لا يرد!

أصبح ذهنه مسرحاً لخيول تركض هنا وهناك، ماذا يفعل؟! وإلى من يلجأ؟! لمن يروح؟!

قفز اسم «سيد مرتضى السندي» إلى الواجهة فاتصل به

- سيد! لا تعاتبني! لا تلومني! ول شيء! أنا بعطيك نقطة الحين

- شنو الموضوع محمد؟!

- أنا الحين في السعودية في القطيف .. شوف لي مكان .. ما

عندي الآن مكان

شعر سيد مرتضى بالصدمة وجاء صوته:

- ويش وداك هناك؟! ليش رايح!

- الحين هذي مو وقته .. الحين ليش .. ليش رايح وحقويه .. وارجع .. مو وقتها .. أنت الحين شوف لي مكان .. الحين أنا في الشارع!

وجاء صوته مهدئاً لامتصاص حالة الاحتقان:

- مو مشكلة .. عطني وقت شويه .. سيد قاسم يعرف واحد من هناك برتب الأمور عشان يجيك الرجال بعد دقائق..

وصلت رسالة من سيد مرتضى:

- عطي الرقم الي عندك أو المحل اللي أنت فيه .. ويش يجيك .. وين تبي يجيك الرجال الحين..

كتب محمد:

- أنا عند مقبرة العوامية قبال «برّادة»..

جاء الجواب:

- الحين يجيك رجال بسيارة هوندا لونها أحمر .. اركب وياه!

مرت عشر دقائق تقريباً .. وصلت السيارة يقودها رجل محترم .. جلس محمد إلى جانبه وتحركت السيارة وكان محمد يشكر الله ويحمده أن قيّض له من ينقذه في هذا الطرف العصيب!

قال الرجل يسأل ضيفه الشاب:

- تعشيت؟

- لا والله!

اتجه إلى مطعم في الطريق .. جلسا يتناولان العشاء..

يبدو أن الرجل كان على علم بأن ضيفه الشاب أحد المطلوبين .. يعني مشكلة أمنية لذلك قال له:

- أنا بوديك مكان تنام فيه .. وأي شيء تبغيه بخدمك فيه!

قال محمد شاكراً:

- تمام!

- الحين بوديك المزرعة

لم تستغرق السيارة وقتاً حتى وصلت المزرعة ليجد فيها محمد مأوى مريحاً عبارة عن غرفة نظيفة ومرتبة، قال له صاحب المزرعة:

- أنت نام هني الليلة! بكرة الصبح إن شاء الله بجيك

سكت لحظات وقال:

- ويش تبغي؟!

قال محمد على استحياء:

- ابغي بطاقة حق النت .. هذا اللي ابغيه بس!

- بس تمام

غادر الرجل المحترم المكان؛ وبقي محمد يفكر؛ هل يصل بعد كل

هـذا العنـاء وهذا التعب؟! تـرى هل يصل إلى بلـده؟! همس في أعماق نفسـه: عقـب هالتعبـة هـل بوصل البلد أو بفشـل؟! أو بنصـاد؟! ما تدري وين رايح؟ للمجهول؟

في اليوم التالي حضر الرجل صباحاً أيقظ ضيفه الشاب وسلّمه بطاقة انترنت..

بادر محمد للتواصل مع «صادق تقي»، أخبره أنه حالياً في القطيف، جاء صوته:

- تمام!
- شوف الرجال راعي الباص قول ليه صاحبنا في القطيف!
- تمام!

بعد دقائق اتصل صادق:

- اتصلت بالرجال قال تمام مو مشـكلة احنه نروح المدينة المنورة، رجعتنا من المدينة ندخله ويانه!

شـكر محمد في نفسـه وقـال الحمـدلله الله بيفتحها اليوم مشـيت الله مشّـاها بـس بكـرة بيكـون أجمـل .. كان محمـد واثقاً إن الأمـور في الغد ستكون أجمل..

وفي حدود السـاعة الحادية عشـرة وقد اقتربت الشمس من منتصف النهار رنّ هاتفه النقال وكان على الخط الشخص الذي كلّفه «ج» بالتواصل معه .. جاء صوته:

- أنت فلان الي من صوب إبراهيم!

- اي!
- سامحني أنا أمس انشغلت وما قدرت .. التلفون مو عندي وتوني فاضي .. سامحني .. أنت في وين الحين؟
- انـا مـادري الحيـن في وين بالضبـط .. بس أنا فـي مزرعة بعطيك راعي المحل تكلمه..

صاحـب المزرعة وصف له المـكان والعنوان وأعاد النقال إلى محمد، قال له:

- بس مسافة الطريق وأنا عندك .. بجي اشيلك بوديك عندي..
- ماكو مشكلة!

بعد نصف ساعة من المكالمة تلقّى محمد مكالمة ثانية:

- اطلع برا

خـرج محمـد ورأى «الرجـل» داخل سـيارة «لكزس» يبدو عليـه الوقار .. ما إن وقعت عيناه على محمد حتى بادر وترجّل من سـيارته واسـتقبل ضيفه الشاب بالأحضان! ثم دعاه إلى ركوب السيارة..

كان رجلاً كريماً أخذ ضيفه إلى دار كبيرة كانت «فيلا» جميلة .. رحب بضيفـه مـرّة أخـرى ودعاه إلـى غرفة كبيرة هـي في الحقيقـة «ملحق» .. يبدو أنه مخصص لإقامة الضيوف:

- أنـت تسـتقر في هذا المـكان وتاخذ راحتك فيـه .. ويش تبغي أنا بجيبه لك .. أي شيء في بالك!

- أنا مو محتاج شيء بس يكون عندي انترنت
- الانترنـت هـذا بنـده وأنـا بجيـب لـك «روتر» مـال الانترنـت وخذ راحتك .. تحتاج لابتوب بجيبه لك..

شـكر محمـد مضيفـه الطيب الـذي لا يدري عن ضيفه سـوى أنه صبي يبقى في ضيافته أياماً معدودة..

كان الرجـل فـي منتهى الكرم وحسـن الضيافة وفي طليعة هذه الأمور الوجه البشوش الذي يُشعر الضيف بالاعتزاز وأنه في بيته..

مكث محمد في بيت الرجل الكريم من يوم الأحد وحتى يوم الجمعة .. كانت أياماً جميلة ما تزال حتى اليوم تشع في ذاكرته رغم السنين!

يـروي محمـد طوق جانباً مـن ذكرياته فيقول أنه بعد مـرور يومين أو ثلاثـة كنـا نتغـدى معاً ومعنا ابناه الصغيران، أحدهمـا يبلغ من العمر 13 عاماً، قلت:

- أنا ابغي اروح البرّادة

التفت إلى ولده وقال:

- بعد الغدا روح ويه الرجال ودّه البرادة

أجاب الفتى اليافع:

- تمام

بعد تناول الغداء خرج محمد وبصحبته الفتى ذي الثلاثة عشر ربيعاً، كان مؤدباً ومهذباً يوقّر الضيف، يقول محمد:

- خذيت «السامان» الي ابغيهم وفي الكيشر أردت دفع الحساب وفي هذه اللحظة اعترض الفتى ورفض أن أدفع الحساب، قال:

- لا! أبوي قال ما يدفع ولا روبية

محمد يقول أنه أصرّ على الدفع ودفع الحساب .. وغادر «البرّادة»، قال الفتى:

- الحين أبوي بيضربني!

- ليش يضربك؟!

- ليش أخليك تدفع؟ أبوي قال: احنه الي ندفع .. أنت ما تدفع ولا شيء .. أنت ضيفنه..

يقول محمد:

- كان واضحاً أن الرجل مربي أولاده على إكرام الضيف .. «يخلّون الضيف على راسهم»!!

مازحه محمد قائلاً:

- هذي البيزات الي عطاك إياهم أبوك خلهم عندك وقل ليه أنت دفعت

ضحك الفتى ببراءة الأطفال وقال:

- لا بس بقول ليه أنت ما رضيت!

وضحكا معاً..

ولعل هذه الضحكة التي انبعثت من كل قلبه قد أعادت إليه إحساساً

بالأمـل .. فـي الأيام القادمة سـوف يلتئم الشـمل مع الأحبـة والأصدقاء في الديار..

في يوم الأربعاء اسـتيقظ من نومه وهو على أهبة الاسـتعداد للعودة إلـى أرض الوطـن .. إلـى «الحبايـب» للأخوة جلال وعلـي فيصل وصادق «نرجع نعيش وياهم .. نرجع نعيش أجواء الثورة»..

محمد لن ينسـى تلك الأيام من شـهر نيسـان 2014م .. كان ينتظر منذ الصبـاح ولكـن انقطعـت أخبار صاحب الباص في عصـر ذلك اليوم .. يوم الأربعاء .. قرر الاتصال بـ«صادق» يسأله:

- ويش صار!

وكان الجواب:

- بيتصل فيك الرجال

غابت الشمس .. اتصل محمد بصادق للمرّة العاشرة!

- عطني رقمه! بتصل فيه!

اتصل محمد أكثر من مرّة بصاحب الباص ولكن لم يحصل على ردّ..

اتصل محمد على الواتساب .. لكن الرجل لا يريد أن يجيب!

كتب إليه يلومه وينتقده على تخاذله وعدم وفائه بالوعد:

- الي أنت ما فيك الجرأة وما كنت أنت ماخذ قرار!! ليش قلت أنك تقـدر؟! تدري أنت ويش سـوّيت؟! تـدري الحين أنا في وين؟! أنا فـي القطيف..أنـا جيت من العراق إلى الكويت إلى السـعودية ..

أنـا قطعـت شـوط كبير .. أنـا جازفت جيـت من العراق ودشـيت الكويـت ودشـيت السـعودية ووصلـت هني بعـد معانـاة! الحين تتهرّب

وجاء الجواب:

- أنا ما ابغيك تدش وأخاف تنصاد!!

كتب محمد:

- شـنو انصاد؟! حايف تقول أنا انصاد أو تجوّد .. جان قلت لي من البداية!! أنا جازفت بحياتي وجيت هني! شلون الحين أنت تقول لي جدي!!

وجاء جواب صاحب الباص يطلب العفو:

- سامحني! خلاص ما بجي ليك! أنا ما بقدر أدخلك

تولّد لدى محمد انطباع في أن صاحب الباص لم يكن يتوقع أن تكون الأمور جديّة؟! فلما جدّ الجدّ وحضر محمد إلى السـعودية تراجع وقال: ما يقدر

وفي النهاية كرر طلبه بالعفو:

- سامحني!

- يلّا الله يوفقك في أمان الله!

وفـي هـذه اللحظـات تبخـرت أحلامه فـي العودة إلى رفاقـه .. وإلى ساحات المقاومة والصراع الدامي..

اتصل محمد بصادق وأخبره بموقف صاحب الباص وأيضاً اتصل بصديقه الحميم علي فيصل بثّه همومه وتحطّم آماله:

- علي! أنا بصراحة خلاص .. علي! تعبت من أن أبيع ماي وجهي للناس! اكلم ده دخلني واكلم ده وده وكل واحد يوعدك ويغاور عنك .. بس انكتب لي إن أنا اقعد في هناك .. في الغربة بقعد خلاص .. بحاول اتأقلم على هناك .. في إيران .. اي خلاص ما في حلول..

نعم لم يكن هناك حل في الأفق .. لذا اتخذ محمد قرار العودة إلى إيران .. عجز الأصدقاء اضطره إلى التفكير في التراجع والانسحاب إلى مهجره الأول..

كانت تلك الليلة من أحلك الليالي التي مرّ بها محمد وقد ضاقت به الأرض بما رحبت..

بالرغم من كرم الضيافة في هذا البيت إلّا أن محمد بعد فشل مشروعه شعر بأنه بات ضيفاً ثقيلاً!

اتصل بصديقه:

- الحين تجي لي
- وين أجي؟!
- القطيف!
- وين بتروح؟!

ويبدو أن الصديق ارتاح لما آل إليه أمر صديقه المطلوب في البحرين

.. كان يعارض عودته إلى البحرين .. أكثر من مرّة قال له: اقعد ليش ترجع؟! الوضع خطير عليك! كان يخشى أن «ينصاد» لدى دخوله البلد .. لذلك ما إن اتصل عليه يطلب منه المجيء حالاً حتى قال له:

- مو مشكلة مسافة الدرب ساعة أو ساعتين!

وجاء الصديق بسيارته .. واتصل على «راعي البيت» ورجاه أن يوصل صديقه إلى النقطة الفلانية .. وقام راعي البيت فأوصله إلى المكان المحدد .. شكر محمد المضيّف على حسن الضيافة والكرم الذي اعتذر عن التقصير!!

- ما قصرت كلك كرم

عندما استقر محمد في سيارة صديقه طلب منه التوجه إلى الكويت..

وقطعت السيارة المسافة لتدخل الكويت مع مطلع الفجر!

الفصل الخامس: بلا وداع

تبخرت كل أحلامه في العودة إلى البحرين كما تبخرت قطرات الندى لدى شروق الشمس!

«أنا مهاجر خلاص» صوت انبعث من أعماق نفس مقهورة!

لكن أين سيكون مصيري؟ في أي بلد سأقيم الآن؟

ومع مطلع الفجر وصل الكويت .. وجد نفسه مرتاحاً في هذه الأرض .. المجتمع هنا عاداته وتقاليده ولغته قريبة جداً من البحرين .. والإحساس بالغربة أقل بكثير من أي مكان آخر .. كان قد تعرّف على صديق في الكويت صاحب مطعم وكانت لديه سيارة نيسان بترول وعربة خيل..

وعاد محمد إلى عمله في «الكيشر» يتقاضى أجرته يومياً وكانت «يوميته» عشرة دنانير كويتية .. مرّ أسبوعان واقترح عليه عملاً آخر، قال له:

- تبي تشتغل شغلة ثانية!

- شنو الشغلة؟

- أنـا عندي سـيارة نيسـان بتـرول وعنـدي عربة مال خيـل تنقل فيها خيل من منطقة إلى منطقة في الكويت؟

كان صاحـب المطعم يعرف أن هذا الشـاب البحريني مطلوب للنظام ولكن لا يعرف تفاصيل أكثر .. كان يتصوّر أنه مطلوب على خلفية تجمهر غير قانوني مثلاً .. وأقصى عقوبة ربما ستكون سنة أو أكثر بقليل!

والأيـام تمـرّ ومحمـد يبدو أنـه كان مرتاحاً .. يصادفـه ناس أخلاقهم «حليـوة» ونـاس أخلاقهم «مـو حليوة» .. وكان يدرك في قرارة نفسـة أن «الغربة فيها نوع من الذل»!

يستذكر محمد إحدى ذكرياته المريرة فيقول:

- مـرة مـن المـرّات كنـت رايح بنقـل خيل مـن عند واحـد فعطوني العنوان .. دشيت .. أول ما دشيت .. سلمت على الرجال .. راعي المحل ما رد!!

وبدل ذلك استدار قائلاً:

- نعم ويش تبغي؟!

- أنا جاي أشيل حصان من عندك!

- اي صحيح

- العربة من صوب «ي.أ» جاي اشيل حصان من عندك أوديه مزارع الوفرة!

- مو مشكلة! انطرني برا أنا بجيبه .. لا تدش داخل

شعر محمد بصدمة بل بأكثر من ذلك .. كلام هذا الشخص وطريقة تعامله كانت كالسكين تغوص في قلبه..

غادر محمد المكان ثائراً وقد تفجر بركان غاضب في أعماق نفسه الجريحة .. «ضربت السيارة سلف ومشيت .. ما حارسته»

رنّ هاتفه النقال .. «ي.أ» كان على الخط:

- اتصل الرجال عليّ قال: ويش فيه؟ ما نطرني .. مشى! ليش مشيت من عند الرجال؟!

كان محمد ما يزال غاضباً:

- هذا ما عنده أخلاق .. معاملة ما عنده

- ليش؟!

- أول ما دشيت سلمت عليه ما ردّ عليّ بعدين قال لي: نعم؟

وروى محمد تفاصيل ما جرى؛ تعاطف «ي.أ» مع محمد واتصل به فوراً وعاتبه على هذه المعاملة!

اتصل «ي.أ» بـ«محمد» مرّة أخرى ليقول له:

- عشاني ارجع ليه

عندما عاد إليه وجد صاحب المحل بانتظاره وبادر إليه معتذراً:

- مسامحة! مادري أنت بحريني! فكرتك أنت مصري!

- حتى لو أنا مصري .. يعني بني آدم قدامك .. وين المشكلة؟! يعني مصري تعامله جدي؟!

- مسامحة!

قاد محمد الحصان وأركبه في العربة ومضى .. ومع ذلك لم يندم محمد على إقامته في الكويت..

يستذكر أيضاً شخصاً كان يلتقيه دائماً في الأسطبل وكان لا يعرف عن محمد أي شيء سوى أنه بحريني الأصل..

سأله مرّة في لهجة فيها تودد:

- أنت ويش تسوي هني؟

- جاي اشتغل!

- ليش ما تقعد في بلدك وتشتغل في بلدك؟

- هناك ما فيه أشغال عدل .. فجاي اشتغل هني

شعر محمد أن هذا الشخص لم يكن مقتنعاً في قرارة نفسه .. معاملته مع محمد كانت في غاية الأدب والاحترام..

يتصل فيه يومياً المغرب يقول له:

- لا تتعشى .. أنا بجيب العشا بتعشى وياك..

وذات يوم وعندما كانا يتعشيان معاً، قال:

- محمد اقول ليك شي؟!

- قول!
- هذي سالفة إن أنت جاي تشتغل هني ما مشت عليّ
- شلون!!
- أنت مطلوب في البحرين .. وجاي هني تعيش .. وهذي سالفة إن أنت تشتغل .. حتى لو كنت تشتغل ليش ما ترجع البلد يوم زيارة لأهلك؟! ليش ما يصير هي كلها أربع ساعات أنت في ديرتك!
- الصراحة! أي أنا مطلوب للبحرين وما أقدر ادخل هناك

اطرق برأسه وزاد احترامه لمحمد كثيراً .. ربما يشعر أن هذا الشاب يحمل قضية لذا كان يساعده كثيراً .. كان محمد يتابع من خلال تواصله مع رفاقه تفاصيل ما يجري في الوطن المقهور..

كانت إحدى المحاكم تحقق في قضية تفجير في جزيرة سترة .. وقد مضى أسبوع وسوف تصدر الأحكام .. وسيكون نصيبه «السجن المؤبد»؛ لذلك ستضاف إلى محمد قضية تفجير وسيكون اسمه على لائحة «الانتربول» في كل دول الخليج..

لذا قرر محمد مغادرة الكويت إلى العراق .. بقي يومان وتصدر الأحكام على المتهمين ومنهم محمد إبراهيم طوق ويصبح من المطلوبين في لوائح الانتربول..

حزم حقيبته واتجه إلى مطار الكويت الدولي مباشرة .. أراد أن يحجز تذكرة سفر إلى العراق فطالبوه بالفيزا وتأشيرة الدخول وهي تستغرق يومين أو ثلاثة أيام!

استفسر عن إمكانية السفر إلى إيران وجاء الجواب بالإيجاب على أساس على أنه ينوي السفر إلى إيران والعودة إلى الكويت وهذا ما فعله محمد..

كان في حوزته مبلغ ثلاثة آلاف دينار كويتي .. فكر أن يقوم بتصريف العملة إلى دولار أمريكي! ويبدو أن الصرّاف كان يتعامل مع أجهزة أمن المطار فقام بالتبليغ عليه بمجرد أن غادر محمد المكان..

كان محمد ينزل من السلالم يفاجأ بشخصين يوقفانه:

- لو سمحت أوقف!
- ؟!!
- شنو حنسيتك؟
- بحريني
- جوازك؟!

راح ينظر في صورته ثم في وجهه:

- حياك ويانا

وفي هذه اللحظة شعر أنه قد يُعتقل بسبب الأحكام الصادرة في البحرين! من المؤكد أنه «صاير تعميم أو إبلاغ علي!»!

ادخل محمد إلى أحد مكاتب المطار .. كان في المكتب شخصان، قال أحدهماوكان بيده جواز محمد:

- دش داخل

ثم انصرف! في داخل المكتب بدأ الاستجواب:

- ليش أنت هني؟

وهنا على الفور اختلق محمد قصة «المزاد»، قال بهدوء:

- مـزاد مـال خيـل وجاي اشـتري خيـول .. أنـا بحريني واشـتغل في الخيل .. وجاي مزاد!

ولكي يطمئنهم أكثر تساءل مستغرباً:

- ليش صاير شي؟

- لا مو صاير شـي .. بس نتأكد لأن أنت صارف .. قالب بيزاتك من دينار إلى دولار! ومبلغ كبير! هذا أمنياً يعني...

- أنـا جـاي اشـتري خيل .. أكيـد عندي مبلـغ .. يعني شـيء طبيعي يكون وبطلع .. يعني جاي بسافر من هني..

بعد خمس دقائق وكان محمد ما يزال جالساً، أحضر العنصر الأمني الجواز وقال لمحمد:

- حياك ما عليك شي!

وعندمـا اسـتقر محمد فـي الطائرة التـي أقلعت باتجـاه طهران تنفس ملء صدره بارتياح!

كان ذهنه خالياً من أي شيء .. لا هواجس ولا أفكار ولا حيرة .. أراد أن يستمتع بهذا الوقت القصير .. هو الآن ليس في البحرين ولا السعودية ولا الكويت ولا حتى إيران .. هو الآن يطير بين السماء والأرض .. متحرراً

من قلق المصير لوقت قصير!

عندما كان محمد في مطار الكويت اتصل بالسيد مرتضى السندي، تكلم معه:

- خلاص سيد أنا حجزت على إيران .. بحاول أن اتأقلم على إيران أو بروح العراق

وجاء صوت سيد مرتضى مبدياً ارتياحه:

- مو مشكلة تكون في العراق .. في إيران .. بس أهم شيء تكون برّا يعني تكون صوبنه عندنه .. ما تكون في الخطر

بالرغم من عودته إلى إيران وتأكيده لصديقه «أحمد يوسف» الذي كان ينتظره في مطار الإمام الخميني .. فقد كان ثمّة ما يشدّه إلى الوطن إلى رفاقه وأجبته وديرته!

محمد اضطرته الظروف القاهرة لأن يتعايش مع الأوضاع في إيران، حتى أنه فكر في اليوم التالي على وصوله إيران وعودته إلى بيت الشباب أن يشتري دراجة نارية! ربما يريد التعويض عن حصانه الأصيل! وهذا ما حصل .. كان «أحمد يوسف» من أقرب الأصدقاء إلى نفس محمد وكان يحاول مساعدته على التأقلم والعيش في إيران..

وتمرّ الأيام وذات يوم يرن هاتفه النقال وجاء صوت شقيقته تقول له أنها ستسافر إلى العراق لزيارة الإمام الحسين عليه السلام:

- فخلنه نشوفك!

- ماكو مشكلة .. أجيكم تاريخ كم؟

كان موعد سفرهم في يوم 12 مارس 2015

كان محمد يتحدث مع صديقه الحميم حول فكرة أن يستقلّا في محل آخـر غيـر بيت الشـباب، وكان بصدد تنفيذ هذه الفكـرة، ثم تلقى مكالمة من أهله وشـقيقته بالذات وعزمهم على زيارة الإمام الحسـين عليه السلام، لذلك عزم على السفر إلى العراق للقاء الأهل في كربلاء..

في يوم 12 مارس وصل محمد .. كانت شقيقته مع زوجها قد وصلت .. توجـه محمـد إلـى بيت الشـباب في كربلاء ليسـتقر في هـذا المكان .. كانـوا شـباباً طيبيـن من بنـي جمرة وكانـوا مطلوبين للنظـام؛ ماجد الدلال وحسين آدم..

فـي حـرم المرقد الحسـيني التقى محمد أخته وشـقيقته وكانت برفقة زوجها..

كان يمضي «العصاري» مع أخته وزوجها .. يسألها عن والدته ووالده، وربما يذهبون للتسـوّق أو يمضون الوقت في المشـي في شـارع العلقمي ومنطقـة مـا بين الحرميـن؛ وكان محمد مهتماً بالسـؤال عما يجري داخل البلد..

فـي ليلـة الجمعة كان محمد يسـأل عن «الشـباب» .. يسـتذكر الأيام الخوالي واللقاءات الودية مع الأصدقاء .. في تلك الليلة .. ليلة الجمعة سأل شقيقته عن جلال وعن علي فيصل وصادق و...

سألها هل ما زالوا يلتقون عند باب البيت؟ .. كان هذا مقرهم قبل أن يهاجر ويركب البحر:

- للحين الشباب يقعدون عند البيت؟!
- نشوفهم يجون قليل مو نفس قبل .. لأنهم مطلوبين
- علي فيصل! ويش أخباره؟
- علي زين

كان علي فيصل يعني لمحمد الشيء الكثير .. وكان شعوره بالغربة ربما لأنه شعر بأنه فقده!! حقاً .. إن «فقد الأحبة غربة»..

عندما يفقد الإنسان أحبته فإنه يشعر بالغربة والوحدة .. في تلك الليلة كان محمد لا ينفك يفكر في صديقه الحميم «علي فيصل»، قال لأخته:

- أنا خايف على «علي فيصل»
- ليش خايف عليه؟!
- خايف عليه أن يتجوّد علي بحكم أن علي حركي وواجد مندفع!

كان علي فيصل من الشباب المندفعين المتحمسين للعمل الحركي وكان يحب العمل في كل المجالات!

قال لأخته:

- أنا خايف عليه! لأنه واجد حركي ما يقعد! «تعوّر» أكثر من مرّة وتعرض لإصابات..

في ليلة الجمعة تلك ظلّوا يتسامرون إلى آخر الليل وحتى مطلع الفجر .. عاد بعد الصلاة إلى بيت الشباب، وعادت أخته وزوجها إلى الفندق

القريب من الحرم الحسيني .. استغرق محمد في النوم إلى منتصف النهار إلى أن يقظه «حسين آدم» بعد أذان الظهر:

- قوم صل! وخلنه نتغدى .. يلا نحارسك! تأخرنا!

نهض لأداء الصلاة وجلس مع الشباب ليتناول الغداء..

حسين آدم كان قد أبعد «النقال» عن محمد .. ومحمد لم ينتبه ويبحث عنه بعد أن أيقظه حسين للصلاة والغذاء..

بعد الغداء بادر محمد ودعاه لشرب الشاي مع بعض، لكن محمد كان يبحث عن «النقال»

- ما شفتون التلفون؟!

قال حسين:

- تعال خلنه نسولف بعدين نشوف التلفون!

جلس الشباب في المطبخ وراحوا يرتشفون الشاي .. كان حسين آدم يتحدث إلى محمد، قال له:

- الشهيد علي الصباغ من بني جمرة كان صاحبنا وهذا فخر لينه .. يعني الإنسان يفتخر أن يكون عنده صاحب يستشهد في سبيل الله..

شعر محمد في تلك اللحظات بأن هناك «حادث»، لهذا قال له مقاطعاً:

- أبو علي! ويش صاير؟! لا تقعد تلف وتدور عليّ! صاير شي؟!

كان حسين آدم حائراً ماذا سيقول لصاحبه! وإذا بمحمد يقول له:

- علي فيصل استشهد؟!

سكت حسين آدم وأطرق برأسه إلى أرضية المطبخ ولم ينتبه إلى شدّة الصدمة التي طرحت محمد طوق أرضاً!

لم يتحمل الخبر الصاعق .. شعر بأنه ينهار .. علي فيصل الصديق والأخ ورفيق الدرب وأنيس الغربة .. لم يمرّ ليلة إلا ومحمد يتواصل معه .. لقد عاشا فترة طويلة..

نهض حسين آدم ليعانق «محمد طوق» ويشدّ على فؤاده..

- الشهداء لا يموتون .. الشهادة فخر ومجد!

قال محمد:

- حسين أبغي اروح اغتسل .. ابغي اروح للإمام الحسين

كان محمد يرى أن عزاءه الوحيد الآن أن يذهب لزيارة سيد الشهداء..

- أبغي أجي وياك!

- لا حسين! أنا أبغي أروح للإمام بروحي .. ما أبغي أحد وياي!

وينطلق محمد صوب حرم سيد الشهداء في تلك الظهيرة .. كان الحرم يتألق بأنوار باهرة تنعكس من خلال مئات المرايا..

في منتصف النهار يكون الحرم خالياً .. تتراجع أعداد الزائرين ويمكن للزائر أن يمسك بشباك الضريح .. قرأ محمد الزيارة بأدب وخشوع .. وتقدم إلى الشباك وراح يهمس قائلاً:

- أنا مو معترض على شهادة علي .. بس فراقه صعب .. أنت امسح على قلبي..

ما يؤلم محمد ليس فقدانه لصديقه الحميم فحسب .. كان يفكر في والديه .. «علي» هو الابن الوحيد لهما!

وقد رزقهما الله هذا الولد بعد أكثر من عشر سنوات انتظار!

علي فيصل عندما هوى شهيداً كان عمره 18 سنة!

ترى ماذا سيكون حال والديه؟! كان شمعة البيت .. تغيّر برنامج محمد .. يمضي أوقاته وحيداً إما في الحرم تحت قبة الإمام الحسين أو المشي بين الحرمين يخرج من حرم الإمام ويذهب صوب ضريح أخيه أبي الفضل العباس .. وما بين هذين المرقدين مسافة مئتي متر تقريباً .. كانت هذه الأرض يوم عاشوراء مسرحاً لمعركة خالدة تجلّت فيها القيم الأخلاقية والإنسانية ومعاني الأخوة..

محمد يمضي بعض الوقت داخل مرقد أبي الفضل .. يغادر يتمشى بين المرقدين .. يجلس في ظلال المسقفات التي تظللها أشجار النخيل .. يفتح النقال ليشاهد صور الشهيد الراحل .. تستعيد ذاكرته مشاهد وذكريات تذكر إصابته برصاصة شوزن أطلقها عليه مرتزقة النظام فوقع صريعاً مغمياً عليه .. كانت الرصاصة قد أطلقت عليه من مسافة قريبة .. في الأثناء كان شخص يقود سيارته ومعه ابنته التي صدمت لمنظر الفتى اليافع مغمياً عليه .. توقفت السيارة ونزلت الفتاة وراحت تصرخ بالمرتزقة: قتلتون الصبي! قتلتون الصبي!

انسحب المرتزقة لظنهم أن هذا الفتى قد انتهى أمره، نزل الأب

وحمل الفتى لنقله إلى المستشفى .. في الطريق انتبه علي فيصل، سأل:

- وين تودّوني؟!

- مستشفى السلمانية

- لا تودوني المستشفى! أنا مطلوب

غيّرت السيارة مسارها واتجهت إلى البيت وهناك قام الرجل بإحضار طبيب..

الذكريات تشتعل في ذاكرته وهو يتصفح صور الشهيد على الويلچر وهو يتمشى مستنداً إلى عكّاز!

محمد لا يود العودة إلى بيت الشباب .. نفسه تميل إلى الوحدة .. كان حزيناً غارقاً في مشاعر مأساوية .. أخذ طريقه إلى بيت الشباب .. كانت خطواته ضائعة .. كان محمد يتعمد إخفاء حزنه .. إخفاء دموعه ولكن عمق الصدمة كان أكبر من أن يقهر نفسه..

عندما دخل «بيت الشباب» والتقت العيون بالعيون فاضت عيناه بالدموع!

كان الشباب يستعدون للتوجه إلى «بغداد» وزيارة مرقد الإمامين الكاظم وحفيده الجواد عليهما السلام في شمال المدينة كانوا يترقبون عودته ليذهب معهم..

قال محمد وقد بدا ساهماً:

- أنتون روحوا أنا ما راح أجي .. فرغ البيت من الشباب باستثناء «فاضل إدريس»..

بقي يتصفح الصور ويستعيد الذكريات .. لم يجرؤ على التواصل مع الشباب في البحرين .. كان يخشى أن يسمع أخباراً لا يمكنه أن يتحمل سماعها!

في ظهيرة اليوم التالي تواصل محمد مع صديق العمر «جلال» .. شعر أثناء الحديث أن جلال بات جسداً من دون روح .. لقد دفن روحه مع علي عندما كلّمه محمد وسأله:

- شخبارك جلال؟

انفجر جلال وكأنه ينتظر هذه اللحظات:

- علي راح! أخونا راح! الحين ويه منو أطلع؟!

سكت محمد ليترك المجال لصديقه جلال يبكي ويذرف الدموع؛ علّ ذلك يهدئه..

محمد يدرك أن البكاء والدموع تساعد الإنسان على إفراغ ما بداخله من مرارة وإحساس بالفجيعة..

أرأيت كيف تتراكم السحب بعضها فوق بعض ثم تبدو الأجواء مشحونة بالعواصف .. فجأة تلمع البروق وتدوي الرعود ثم يندفق المطر الغزير وبعدها تبدو السماء مفعمة بالصفاء..

قال جلال:

- كنا مع بعض .. وقلت له أنا بنام. فقال لي: أنا بروح وبرجع .. برجع بعد ساعة .. راح ما أدري وين راح! بعد ساعة..

شهق ببكائه قبل أن يأتي صوته قائلاً:

- بعد ساعة إلّا جه الخبر! إن علي صاير فيه انفجار

يقول جلال أنه ذهب للبحث عنه..

فـي أعماقـه كان محمـد يشـعر بالأسـف الشـديد أنـه لم يكـن ضمن المشـاركين في تشـييعه .. لم يحظ بآخر نظرة يلقيها على الشهيد .. كان يتمنى أن يكون مع رفاقه..

انتقـل خوفـه إلى آخرين ما كان يجرؤ على التواصل مع رفاقه لمعرفة مـا يجـري .. انتقلـت هواجسـه إلـى جـلال وإلـى غيـره مـن القريبين من الشـهيد .. كان يخشـى من «كسـار الفاتحة» .. لأن بعد «الكسـار» تخرج مسيرة ضد النظام القاتل!

لذلك لاذ بالحرم الحسيني فهناك لا يسمحون بإدخال «النقال» وعلى الزائر أن يتركه لدى قسم الأمانات، محمد لن ينسى تلك اللحظات عندما غادر الحرم بعد الزيارة، فتح نقاله وقرأ عنوان: «استشـهاد....» كان على وشـك أن ينهار .. تصوّر أحد رفاق الشـهيد علي فيصل .. لم يتحمل رؤية مرتزقة النظام! وظهر أن الشـهيد هو السـيد محمود من قرية «الخارجية» .. سيد محمود إعلامي كان يصوّر في المسيرات .. أصابته رصاصة شوزن في «كسار فاتحة» الشهيد علي فيصل والتحق بالشهيد..

تلقى محمد مكالمة من صديقه في مهجر إيران «أحمد يوسف»:

- محمد! ارجع هني!

بعد أيام حزم حقيبته ليعود إلى إيران .. في السـاعة العاشـرة صباحاً كان في شارع صفائية في قم على خطوات من بيت الشباب..

وضع حقيبته .. كان بعض الشباب نائمين .. لذلك أراد أن يغادر لزيارة حرم السيدة فاطمة المعصومة .. في الباب التقى «علي بداح» الذي عانقه وشدّ على يديه وقدّم له التعازي، قال له:

- هو شهيد في النهاية
- الحمدلله حصل مرتبة ما يحصلها إلّا ذو حظٍّ عظيم

غادر محمد البيت قاصداً الزيارة..

محمد ما يزال يشعر بحالة من الغضب خاصّة بعدما عرف بعض ملابسات استشهاد «علي فيصل»!

في تلك الليلة كان محمد يستعيد ذكرياته مع علي فيصل .. ذكريات تعود إلى عام 2011م .. كان علي يومها في الرابعة عشر من ربيع العمر .. وهو في هذه السن الصغيرة كان متعلقاً جداً بالأستاذ «حسن مشيمع» .. كان لا يفوّت ندوة من ندواته .. فجأة دخل معترك الصراع ضد النظام بعد انطلاق الثورة واستشهاد صديقه الحميم «علي بداح»..

شهادة «علي بداح» فجّرت في داخله غضباً مقدساً؛ لذلك كان مندفعاً جداً لمواجهة مرتزقة النظام .. تعرّض لإصابات .. كان يُصاب بجروح في كل مواجهة تحصل ضد مرتزقة النظام وقبل شفائه ينهض مرّة أخرى ويشارك..

منذ تلك الفترة أيقن أن علي سوف يستشهد .. كان هدفه الشهادة حتى عندما كان يمارس الرياضة .. كان هدفه من أجل أن تكون لياقته البدنية في أعلى مستوى .. كان يركض ويجري في الساحة «لأن المواجهة

كانت تتطلب ثواراً رياضيين وشبّاناً أشداء»!

عندما استشهد «محمد العرادي» قال علي فيصل:

- خلاص أنا مكاني مو هني

يعني أن مكانه مع محمود وعلي بداح..

كانت والدته تستاء كثيراً عندما تسمعه يتكلم هكذا .. علي فيصل هو وحيدها..

محمد يعتقد أن الشهداء يرون أشياء لا يراها الناس حتى رفاقهم لا يرونها..

كان يقول لوالدته عندما يريد الذهاب والمشاركة .. فتحذره قائلة:

- لا يصيدونك!

فيقول لها:

- أنا اعتقال ما بيعتقلوني .. أنا بستشهد! .. في النهاية أنا شهيد! ما بينكتب اسمي المعتقل علي فيصل! بينكتب الشهيد علي فيصل..

وهكذا اختاره الله في النهاية .. الله يصطفي من عباده فيتوفّاهم شهداء..

أحد أصدقاء علي فيصل .. أحد الشباب المهاجرين في إيران اسمه «ي» .. بعد استشهاد علي فيصل بدأت علاقته مع محمد طوق تتخذ شكلاً خاصاً .. كان محمد يبثه همومه ويبوح له بهواجسه .. لذلك صارحه بعزمه على العودة إلى البحرين، قال له:

- مـن العـار أن أبقى هنـا! يجب أن أعود .. الشـهيد علي فيصل من سيأخذ بثأره؟!

محمـد طـوق لـم يعد يفكـر بالنتائج! لم يعـد يفكر كم سـيكلفه ذلك من ثمن..

لقد عقد العزم على العودة مهما كان الثمن!!

لم يعد له خيارات في قرار العودة .. خيار واحد فقط .. العودة الى البحرين..

الخيار الثأر .. الخيار رقم صفر!!

أحياناً كان يتكلم مع نفسه، يقول:

- شـلون قاعـد هني وعلي أخويـي وحبيبي .. وما يكـون لي البصمة في ردة فعل؟!

في تلك الليلة أجرى اتصالاً مع «صادق»، قال له:

- صـادق! أنـا اتخذت قرار وما برجع عنـه! رجعنه إلى نقطة الصفر! .. قبل لا يستشهد علي يمكن تراجعت عقب ما صار الخذلان .. مـا عنـدي خيارين .. خيار واحد .. البحرين!! ما عندي خيار ثاني! لازم نتحرك .. نشوف واحد يدخلني

- شنو خطتك؟ ترجع على البحر؟!

- البحر واجد صعب دخولك للبلد..

- ؟!

- خطتي على البر من العراق إلى الكويت إلى السعودية إلى البحرين!
- ما تذكر شنهو الصعوبات الي واجهته في السعودية؟!
- أنا أذكر كل مرارة الصعوبات .. شلون ظليت بروحي ما عندي أحد .. لكن بعد استشهاد علي ستهون .. سيكون طعمها حلو وجميل في حق الشهيد!!
- المطلوب مني؟!
- عليك دخولي من السعودية للبحرين!
- مو مشكلة

الفصل السادس: هواجس الثأر

محمد عقد العزم على العودة إلى البحرين، في أعماقه بركان غضب لـن يخمـد .. علـى الإنسـان ألا يمـوت مـن غير معركـة .. «علـي فيصل» يعني له الحلم الدامي والوطن الشـهيد .. في أعماق محمد شـعلة تتوقد .. تسـتمد زيتها من أولئك الذين تضرجوا بدمائهم القانية من أجل قضية عادلة .. من أجل الكرامة والحرية .. المشكلة الوحيدة التي تواجه محمد هي العبور إلى البحرين .. اتصل محمد بصديقه «صادق»:

- أنا لازم أرجع! لو يصير أي شيء .. أنت عليك دخولي من السعودية للبحرين! أعرف أصل إلى السعودية..

محمد اكتسب الخبرة في تجربته السابقة لكنه ارتطم بالنهاية .. لقد خذله صاحب الباص..

قال صادق بعدما أخفق في إقناع محمد بالعدول عن قرار العودة:

- مو مشكلة كان عندي واحد اسمه «د» .. «د» من ديرتنا!
- روح إلـى «د» وأطـرح عليـه الفكـرة ولا تخبـره باسـمي .. قول ليه

شـخص يبغـي يدخل من السـعودية للبحرين تهريـب .. أنا حاضر أعطيه من 500 إلى 1000 دينار .. حلّ لي الموضوع

- مو مشكلة راح أكلمه حول هذا الموضوع!

كان هذا في السابع من شهر رمضان المبارك؛ لم يطل انتظار «محمد» .. سـرعان ما تلقى اتصالاً من صادق يخبره بأن «د» وافق ليس من أجل المبلـغ بل لأنه تعاطف مع شـخص مطلوب فـي المنفى يريد العودة إلى أرض الوطن!

قال صادق:

- ترى الرجال موافق .. متى تتواعد وياه

- أنت شوف متى الوقت المناسب

في اليوم التالي اتصل «د» بصادق وسأله:

- متى تبغون نطلع للصبي؟!

- أنت تعرفه منهو؟!

- لا!

- محمد طوق!

ازداد حماس «د» وقال:

- أنا حاضر في أي وقت حتى لو الليلة .. بروح أجيبه

- لا .. خلنه نتفق على ليلة الأربعاء

- يعني 13 رمضان

محمد يشعر بالأمل .. كل الأشياء ترتبت في يوم واحد!!

قال لصادق وهو يشكره:

- تمام كلش تمام .. أنا أدش السعودية وهو يجي يستلمني!

وعلى الفور بدأ محمد يرتب أموره وقد عزم على عدم مفاتحة أحد خاصّة «سيد مرتضى» لأنه لن يسمح له بالمجازفة مرّة أخرى!

محمد يفاتح قاسم الحجازي الذي كان يتسامر معه في الليالي، قال له:

- قاسم! أنا ناوي أرجع البلد!

فوجئ قاسم ورفض الفكرة! ولكن محمد كان قد صمم واتخذ قرار العودة ولن يتراجع أبداً، قال لصاحبه وهو يحاوره:

- ما أبغي اقعد هني .. أبغي اروح اعمل في البلد .. اعمل على الأرض .. أخويي استشهد ولازم تكون لي بصمة في الرد

استمر قاسم في معارضته، فقال محمد:

- تقدر تخدمني اخدمني! ما تقدر تخدمني خلاص!

- في ويش تبغى اخدمك؟!

- ابغي واحد يستلمني من الكويت ويدخلني السعودية .. وأظل عنده يوم أو يومين

وهكذا حزم محمد حقيبة السفر هذه المرّة إلى الكويت مباشرة من

دون المرور بالعراق..

طلب محمد من قاسم حجازي أن يكون هناك من يستلمه في الكويت، فقال:

- ابشر!

قام قاسم حجازي بالاتصال على شخص في الكويت وطلب منه انتظار محمد في المطار في الساعة 12 ظهراً وأرسل له صورة محمد طوق..

في يوم 12 رمضان وفي الساعة الثانية عشر ظهراً هبطت الطائرة في مطار الكويت..

ولكي لا يلفت نظر الشباب في قم، قام محمد بأخذ حقيبة صغيرة!

لذلك عندما سأله أحد الشباب:

- وين بتروح؟!

أجاب محمد:

- بروح شيراز ثلاثة أيام وبرجع

لذلك أخذ سيارة تاكسي أوصلته إلى مطار الإمام الخميني .. وفي مطار الكويت وجد من ينتظره ليأخذه من المطار إلى السعودية مباشرة..

في الطريق سأله عن هدفه من قدومه إلى السعودية ومحمد تذرّع بأنه عنده «شغلة» مع عمه!

أمضى محمد ليلته عند هذا الشخص .. وحان وقت الإفطار .. كان

محمـد قـد طلب من صادق رقم التلفون لكي يتحدث مع الشـخص حول الخطوة الأخيرة!

محمد ممد في فراشـه وقت السـحر .. لم تغمض عيناه .. شوق عارم يستعر في أعماقه وكانت دقائق الزمن تمر ببطء..

تلقى محمد اتصالاً من أحد أصدقائه:

- محمد! الحين قعدت من النوم وكلمتك!
- ليش؟!
- أنا نايم وحلمت بك
- بشنو حلمت؟!
- حلمت بأن أنت داش البحرين!

شعر محمد بصدمة خفيفة متحفزاً، قال لصديقه وهو يتضاحك:

- الحلمة ويش تقول .. داش تهريب؟ لو من وين؟!
- تهريب!
- طفت وما انصدت؟
- اي طفت وما انصدت

ضحك محمد هذه المرّة وهو يشعر بالارتياح:

- الله يفرّج .. إن شاء الله خير

يعتقـد محمـد بـأن الأرواح المتعلقـة ببعضهـا تشـعر ببعضهـا! كانت

الرؤيا التي رآها صديقه بلسماً جعله يشعر بالطمأنينة..

قبل ساعتين اتصل الشخص على «د» وقال له:

- ألو السلام عليكم وياك بسّام..

كان «د» يعرف أن هذا اسم محمد طوق المستعار!

تـم التفاهـم علـى نقطة اللقاء .. نظر محمد في عيني «د» فرأى شـاباً قوي الإرادة يعرف ماذا يفعل؛ قال له محمد:

- تعرف ويش يصير لو انصدنا؟!

- اعرف ويش بصير .. ما عليك الأمور كلها بيد الله .. نمشي!

شعر محمد من خلال جوابه بالقوّة والعزم..

لاح جسـر «المحبـة» الـذي يمتـد على مسـافة عشـرة كيلومتـرات في البحـر .. سـاورته بعـض المخاوف مـن المجهول! ما يحـدث في الدقائق القادمة!

قـرأ محمد سـورة الحمد وأهـدى ثوابها إلى «أم البنين» .. هذا الاسـم الكريم لامرأة كانت زوج الإمام أمير المؤمنين .. هذه المرأة التي أنجبت بطلاً أصبح في طليعة الأبطال لكل الإنسانية!

عبرا الجمارك السعودية ولم تكن هناك إجراءات في التفتيش .. وصلا جمـارك البحريـن .. كان محمـد منبطحاً في المقعد الخلفي .. سـلم «د» الجوازين للموظف وتم الختم عليهما بشكل روتيني وقال له:

- طوف!

التفت «د» إلى الوراء وطلب من محمد الجلوس والاسترخاء:

- قوم اقعد طبيعي!

جاء موظف التفتيش، «د» يهمس لمحمد:

- خلك طبيعي .. من يقولون لك أنزل أنزل! من يقولون لك عطني جوازك عطهم جوازك!

كان محمد ما أنفك يقرأ فاتحة الكتاب ويهديها إلى السيدة فاطمة المعروفة بـ«أم البنين»!

جاء الموظف وراح ينظر في وجهيهما ثم قال:

- إلى مملكة البحرين تفضّلوا

محمد دخل أرض الوطن .. ما يزال تحت تأثير الحوادث المثيرة .. يحاول تنظيم مشاعره وتصديق ما يراه بعينيه .. نصف ساعة فقط تفصله عن مرقد الشهيد الشاب الباسل «علي فيصل» الذي جاء من أجل أن يثأر لدمه المراق ظلماً..

في حوالي الساعة الثامنة مساءً كان محمد ورفيقه الشجاع يدخلان جزيرة «سترة»..

كان محمد قد واعد صادق واتفق معه على شفرة «الوعد الصادق» وتعني الوصول إلى الديار بسلام..

قبل الوصول إلى جسر سترة كتب إلى صادق:

- شوف لين جسر سترة فيه تفتيش!

وجاء الجواب بعد دقيقتين:

- ما فيه تفتيش!

قاد «د» السيارة نحو «المنطقة الصناعية» وكان صادق ينتظر في منطقة القِرية عند المسجد، لذلك طلب محمد من «د» أن يتجه إلى المسجد مباشرة، وهناك رأى محمد صادق ومعه جلال ينتظران ترجل من سيارة «د»، واتجه إليهما بشوق ليعاقنهما بحرارة اختزنت شوق اثني عشر شهراً من شهور الغربة والفراق .. فراق الأحبة .. ودّع «د» وركب سيارة صادق وقد داهمه شعور غامض: علي لم يكن من ضمن المستقبلين .. ولكن واحسرتاه لقد اغتالته الأيدي الآثمة .. هو الآن يرقد تحت التراب .. قال صادق:

- الحين بنروح الشقة .. الشقة مجهزة!

قال محمد بحزم:

- لا! أول شيء نروح لقبر الشهيد

- الحين توها الناس .. يمكن واحد يشوفك!!

رد محمد بإصرار:

- ودني لقبر الشهيد قبل لا أروح الشقة .. ودني

اذعن صادق أمام هذا الإصرار.. واتجهت السيارة إلى قرية «واديان»..

انبعث في أعماقه نداء شوق عارم: آه ديرتي واديان الحبيبة!

وصلت السيارة المقبرة وأراد محمد أن يترجّل فمنعه صادق:

- اصبر أنا بنزل أول .. بشوف الأوضاع تمام .. يعني مافي أحد حوالي المقبرة بخليك تنزل

- إن شاء الله

كان من الضروري ألّا يكتشف أحد أمره لكي يتمكن أن يتحرك دون صعوبة .. دون هواجس من إلقاء القبض عليه!

عاد جلال بعدما ألقى نظرة وقال لـ«محمد»:

- الأمور بخير قوم انزل

ترجّل محمد من السيارة .. شعر بأن قدميه عاجزتان عن المشي .. كان يتمنى لقاء علي .. أن يأخذه بالأحضان .. لكن شاءت الأقدار أن يلتقي الصديقان وأحدهما يرقد تحت التراب والآخر يخطو فوق التراب على وهن..

كان محمد قد لف رقبته بـ«الغترة» ووضع على رأسه «الكبوس» حتى لا يمكن لأحد أن يتعرف عليه!

بقي جلال مع صادق يراقبان الأوضاع فيما كان محمد يتجه نحو القبر .. كان صادق قد أوصاه:

- لا تتأخر .. لحد يشوفك

وصل إلى قبر الشهيد «علي فيصل» .. جلس عنده وطرق على القبر بأنامله كما لو أن يريد أن يوقظه من رقاده ويتحدث إليه .. في البداية حيّاه قائلاً:

- السلام على الحبيب .. سلام عليك يا علي .. السلام على أخي

سكت لحظات ليقول:

- أنـا رجعـت عشـان أثبـت ليـك أنـي قـد المسـؤولية .. وبتحمـل المسؤولية

وراح محمد يقرأ سورة الحمد والسبع المثاني .. ثم قال مودعاً:

- نسألكم الدعاء .. علي! نسألكم الفاتحة..

ثم انحنى ليشّـم تراب القبر ويملأ صدره من شـذى البقعة الطاهرة .. نهـض وعـاد أدراجـه إلـى صديقيه وكله عـزم على مواصلة طريق الشـهيد الباسل علي فيصل..

اتجهت السيارة .. يقودها صادق نحو الشقة..

قال صادق وهو يفتح الباب:

- محمـد! هـذي الشـقة بنقعـد فيها ثلاثـة أيام أو أربعة .. في شـقة ثانية

الشـقة الثانيـة التـي قصدها صادق هي أفضل مـن ناحية أمنية .. قال محمد موافقاً:

- ماكو مشكلة..

أمضـى محمـد ليلته الأولى في جزيرة سـترة .. كان يتحدث مع جلال ويستعيد معه الذكريات .. ثم سأله واقد انتصف الليل:

- ويش صار؟ شـلون استشـهد! سمعت أنه كان وياكم سهران قبل لا يستشهد!

قال جلال مؤيداً:

- كان ويانا قاعد .. طلع قال بيروح وبجي بعد ساعة! طلع

- أنت تدري هو طلع بيروح بينفذ عملية؟!

- اي أدري .. كان يقول عندي شغلة

كان رفاق علي فيصل يعرفون ماذا يعني عندما يقول: عندي شغلة .. يعرفون ما هي طبيعة هذه «الشغلة»! لذلك لم يكونوا يتدخلون بشأنه!

تساءل محمد:

- كان الشهيد علي «أمنياً»؟!

- اي في بعض الأمور

قال جلال ذلك وهو يعني وجود أسرار في حياة الشهيد «علي فيصل» .. أسرار دُفنت معه..

عجيبة حياة هؤلاء الشباب! شباب المقاومة! حتى الهدايا التي يتبادلونها عبارة عن قطعة سلاح لمقاومة الطغاة!

محمد كان قد أهداه في عيد ميلاده هدية «المقاومة» .. بطريقة أو أخرى تمكن أن «يطرش فرد»!

حتى الآن لا يعلم أحد أين أخفى تلك الهدية .. سعى الشباب كثيراً في البحث لكن دون جدوى!

استقر محمد في هذه الشقة المؤثثة ثلاثة أيام بلياليها .. يروي محمد فيما بعد ذكرياته .. أنه عندما فتح عينيه صباح اليوم التالي .. وانتظمت

مشاعره ابتسم وقال:

- صدق أنا في البحرين!

نظر صوب جلال كان هو الآخر قد فتح عينيه، سأله محمد:

- أنا في حلم أو في حقيقة؟!

- أنت في الحقيقة! أنت في البحرين!

مرّت ثلاثة أيام وهو لا يغادر الشقة إطلاقاً!! ومع ذلك لم يكن يشعر أنه في سجن .. كان يشعر أنه في وطن!

صادق وجلال يخرجان من الشقة بحذر .. كانا مطلوبين أيضاً ومع ذلك فلديهما فسحة من الحرية .. المطلوب للنظام يشعر بحماية شعبه .. لديه سند وركن يستند إليه .. أما الذي في ظروف محمد فإنه يخشى الناس أيضاً .. لأنه يجب أن يبقى أمره مكتوماً لدى الجميع!

أثناء تواجد محمد في هذه الشقة التي أصبحت ضيقة جداً على الشباب بسبب زخم الذكريات التي تركها الشهيد «علي فيصل»..

قال صادق لـ«محمد» إن وهيب سيأتي!

محمد أحب وهيب لسبب واحد فقط! لأن الشهيد علي فيصل كان يحبه جداً حتى أنه أوصى أمه قبل استشهاده أن تهتم به .. ولهذا وصّى بشباب الدير وهيب أن يضعوهم في عيونهم لأن هذا كان وصية الشهيد الذي قال لهم:

- لو صادني شيء حطوهم في عيونكم!

عندما حضر وهيب ووقعت عيناه على محمد تسمّر في مكانه وراح يبحلق في محمد وتمرّ الثواني وهو لا يتلكلّم ولا يسلّم!!

ثم قال دون مقدمات:

- أنت محمد!! أنت مو في إيران!! ويش جيّبك هني؟!

ضحك محمد وقال:

- هذا مو أنا! الي في إيران! هذا أخويي توأم!

ضحك وهيب ببراءة الأطفال .. وهكذا انضمّ واحد جديد إلى جمع الشباب المطلوبين .. قال له محمد:

- شوف ما دام أنت جيت الحين وشفتني الحين تلتزم بأشياء .. مثلاً طلعاتك تخففها!

وهيب هزّ رأسه موافقاً! كان يدرك حساسية الوضع الأمني!

جاء صادق ليخبر الشباب:

- صار تأخير في استلام الشقة الثانية .. سننتقل مؤقتاً إلى بيت فيه عائلة..

شعر محمد بأن نمط حياته قد تغيّر تماماً .. هو الآن يعيش في «كذبة» وكذبة كبيرة على الكثيرين! الذين في داخل البحرين يعتقدون أنه في الخارج والذين في الخارج يتصورون أنه في شيراز .. ثم يختفي أثره بعد ثلاثة أو أربعة أيام لأنه غيّر رقم تلفونه..

وبعد مدّة حدث لغط وثارت تساؤلات بعض الشباب في «الداخل»

يسألون أصدقائهم في «الخارج» عن أخبار «محمد طوق»؟! ويأتي الجواب الصادم:

- محمد عندكم شلون تسألني عنه؟!!!

طبعاً نسبة كبيرة من الشباب سواء في الداخل أو في الخارج كانت تضع في الحسبان أن محمد قد يرجع إلى البلد لأن العلاقة التي تربط بينه وبين علي فيصل هو علاقة صداقة قوية وعلاقة أخوة فهو صديقه وحبيبه ولا بد أن يفكر بالعودة إلى البلد خاصّة وأن محمد قد خاض غمار التجربة ووصل السعودية ولكن تعرض للخذلان..

اختفاء «محمد طوق» أثار تساؤلات وتساؤلات حتى أن محمد شعر بالاستياء كثيراً! حتى النظام سوف يكتشف الحقيقة ويضع في حسابه احتمال عودته إلى البلد!!

بعد أسبوع من عودته اشتاق محمد طوق إلى لقاء رفيق الدرب «إبراهيم المؤمن» .. لقد عملا معاً في تنظيم المسيرات وكان ممن يحركون الساحة! لذلك قال لصادق:

- لازم أشوف إبراهيم

- مو مشكلة!

وعندما غمر الظلام الأشياء ويحيطها بالأسرار كانت «سيارة الليل» تتجه إلى المكان الذي يتواجد فيه إبراهيم المؤمن في «الخارجية» .. توقفت السيارة إلى جانبه ليركب .. وهنا يشعر إبراهيم بالصدمة ثم بالشوق ليعانق صديقه ثم قدم تعازيه قائلاً:

- إنا لله وإنا إليه راجعون

وشعر بالعبرة تخنقه وراح محمد يهدئه ويطيب خاطره ويقول له:

- علي ما راح .. إن شاء الله بصمة علي بتظل موجودة .. ما دام احنا موجودين .. حاملين مبادئه وسايرين في خط الشهيد .. بيظل علي موجود..

قال إبراهيم بعد لحظات صمت:

- شخبارك محمد؟ محتاج شيء محمد؟

قال محمد:

- الحمدلله .. ابغي أضيف سيد مرتضى السندي

قال إبراهيم:

- بكره أطرش إليك «البن»[1] مال سيد مرتضى..

اشترى صادق «العشاء» ليتعشوا معاً وكانت السيارة المضللة بـ«الرايبون» تتحرك وتسير بشكل طبيعي في جزيرة سترة .. فالشباب يعرفون جيداً المناطق الآمنة والمناطق الخطرة! هذي ديرتهم على كل حال .. إبراهيم المؤمن كان ضمن قائمة المطلوبين للنظام .. ومع ذلك كان يتصرف بشكل طبيعي .. وفي نفس الوقت كان الشباب «مجودين الحراك»..

في اليوم التالي أضاف «محمد» اسم «سيد مرتضى» وكان في نية محمد أن يعتب عليه بسبب ما أثير من ضجة حوله وكل تلك التساؤلات:

---

1. المقصود هنا رمز البلاك بيري

محمد وين؟! محمد وين؟!

اتصل بـ«السيد» ليفاجأ بعتاب مرّ منه:

- ليش سويت جدي محمد؟! .. احتمال تنصاد .. احتمال عندك معلومات كثيرة .. عن الشباب في المقاومة .. عن إيران .. عرضت روحك للخطر .. ما نبغي نخسرك في حال لا سمح الله أنت انصدت .. النظام يصل إلى معلومات بسهولة .. محمد أنت اتخذت هذا القرار .. اتبعت قلبك .. ما اتبعت عقلك!!

- سيد! أنا اتبعت عقلي! عقلي أملى عليّ أن لازم ارجع .. استمر في خط الشهيد .. واللي سوّيته هو الصح!

وبعد كل ما جرى ما يزال محمد يشعر أن ما فعله كان الصواب بعينه .. استطاع أن يترك بصمة .. وعلى الأقل أنه يسعى أن يعمل كل ما يستطيع عمله!

يسعى سيد مرتضى إلى إنهاء «الضجّة» في إيران وإيقاف تساؤلات الشباب حول محمد طوق:

- خلاص محمد هو بخير .. لا تثيروا اسم محمد حفاظاً عليه من بطش النظام!

لم يكن محمد طوق يدرك أن ما فعله سوف يسبب المتاعب لـ«سيد مرتضى»!! لقد فتح محمد في «رجعته للبلد» باب العودة والبعض طالبوا أن يعودوا إلى البحرين .. فما دام محمد استطاع أن يعود فهم أيضاً قادرون!

بعـد انتقـال الشـباب إلـى البيـت الـذي تسـكنه «عائلـة راعـي البيت» التفـت إلـى أن وضـع محمد يختلف عـن رفاقه .. محمـد لا يغادر البيت إطلاقاً!! لا يشارك الشباب في المواجهات .. قال راعي البيت لمحمد مرّة وقد غادر الشباب:

- ليش أنت قاعد هني! هم يطلعون أنت ما تطلع!

أجاب محمد:

- وضعي الأمني ما يسمح .. وضعي الأمني يختلف!

كان محمـد فـي كل يومين يخرج في سيارة .. يستغل حلول الظلام لزيـارة قبـر الشـهيد علـي فيصل .. بقي الشـباب فـي البيت مدّة أسـبوع .. بعدها استلم صادق الشقة وهكذا غادر الشباب البيت..

انتقل محمد إلى الشقة ليعيش فيها ستة أسابيع .. اتفق الشباب على تقليل طلعاتهم .. اتفقوا على العمل بصمت وعلى أن يضربوا بقوّة..

قـرر محمـد انتهـاج المقاومـة المسـلحة ولكـن علـى نحـو تدريجـي وراح يتواصـل مـع صديقـه أحمد يوسـف مـن أجل الحصول علـى الدعم المطلوب..

أسـس محمد بعد أيام مجموعة فدائية باسـم الشـهيد علي فيصل .. كانـت مهمتهـا توجيـه ضربات موجعـة للنظام الخليفـي .. كان محمد قد صمم على أن يثأر لدماء الشهيد الحبيب..

لم يكن مهماً لشـباب المجموعة اكتشـاف أمرها لأنهم من المطلوبين أساساً!

وبـدأ توجيـه الضربات الموجعة .. كان الشـباب يسـتخدمون «شـوزن صنع محلي»..

كان جـلال اليـد الضاربـة فـي رأي محمـد «يـد الشـهيد الضاربـة» .. كان جـلال مقداماً فـي المواجهـات .. يكمـن للمرتزقـة ويسـدد ضرباتـه الموجعـة للمرتزقـة و«يسـدحهم» أرضاً فتهرع سـيارات الإسـعاف لنقلهم إلى المستشفى!

كان رأي محمد العمل التدريجي «شوي شوي» إلى أن يتم ترسيخ هذه «الأعمـال» كـ«ثقافـة» في «الديرة» .. ونجحـت المجموعة بعد عدد من العمليات في أن تكون هذه الأعمال «طبيعية»..

أصبح الشهيد علي فيصل رمزاً للمقاومة .. ليس في «واديان» فحسب بل وفي مناطق جزيرة سترة..

بدأ التفكير يتجه إلى ضرب سيارات النظام من نوع «جيب» .. تمكنت مجموعة «الشهيد علي فيصل» من ترسيخ اسم الشهيد في وجدان الناس في «واديان» وأصبح لـ«أسد المقاومة» وهج ثوري..

الشـقة الثانية التي اسـتقر فيها محمد ومجموعته من شـباب المقاومة تشتمل على غرفتين وفي كل واحدة منهما نافذة وشباك حديدي..

رأى محمـد فتـح هـذا الشـباك .. يعني يمكن إسـقاطه بمجـرد دفعه ببسـاطة .. ربمـا يتعـرض الشـباب إلـى المداهمـة لذا يمكـن الإفلات من خلال النافذة! كان ذلك مجرد إجراء احترازي!

محمـد طلـب من «وهيب» أن يقوم بهذه المهمـة؛ فبادر إلى تنفيذها

وأصبحت نافذة خلاص وقت الحاجة..

استيقظ محمد في ذلك الصباح ولم يكن يعلم ماذا تخبئ الأقدار!

الشباب كانوا نائمين وصادق غادر الشقة لديه موعد في العيادة الطبية..

كانت الساعة إلى الثامنة وعشرين دقيقة .. محمد يغسل وجهه يطرد ما تبقى من نعاس .. جلس في الصالة «يطالع» التلفون؛ فتح «البرقية» وظهرت رسالة صوتية تتحدث عن حملة مداهمات «داشّة من دوار حوّلي» «إلا هي داشة واديان» ما إن انتهت الرسالة الصوتية وإذا بركلات عنيفة تهز باب الشقة بقوّة!!

يبدو أن صادق وقع في كمين و«انصاد» .. وتعرّض صادق إلى ضغوط كبيرة لا تحتمل..

بادر محمد إلى باب الغرفة وصرخ بالشباب:

- قوموا! قوموا بسرعة!!

و«يطفر» الشباب .. كانوا ثلاثة «وهيب» و«جلال» و«حسن معيوف»..

أفلت الشباب الأربعة من خلال «نافذة الخلاص» وركض كل منهم في جهة .. كان المرتزقة يركضون وراءهم وفي أول منعطف على اليمين توارى محمد ليدخل بيت أحد معارفه..

قبل أن يصل إلى هذا البيت كان محمد قد تعثر ثلاث مرّات حتى أن فانيلته وبنطلونه قد تشققا وكان ينزف دماً من ساقيه ويديه .. ثلاث

مرّات يتعثر ويقع على الأرض!!

كان يفكر في مصير «جلال» و«وهيب» و«حسن» .. إن شاء الله يكونوا قد أفلتوا من براثن المرتزقة..

محمد يدفع الباب ويدخل على راعي البيت وهو في مجلسه .. وانصدم الرجل فقد كان يتصوّر أن «محمد طوق» في إيران وإذا الآن أمامه وجهاً لوجه في مشهد مثير، ثيابه ممزقة وينزف دماً قانياً؛ بعد لحظات من الشعور بالصدمة بادره الرجل:

- أنت هني!!
- هذا مو وقته الكلام
- ويش المشكلة؟! ويش فيك؟! ويش صاير فيك؟!
- كنا في شقة وطبوا علينا مداهمة وطلعنه! الحمدلله أنا قدرت أهرب!
- انزين الشباب الي وياك؟!
- مادري فيهم!
- انزين ويش تبي مني؟! ويش أقدر أخدمك!
- اتصل في ولدك خله يجي!
- الحين اتصل!

محمد يعرف ولده في مثل عمره يمكن أن يثق به إلى أبعد الحدود!

اتصل الوالد بولده:

- تعال البيت!

وجاء الجواب:

- الوضع أمني .. الشرطة منتشرين والمدنيين في المنطقة كلها .. ما أقدر أجيك

- من يصير عندك «چانس» تعال!

استقر محمد في هذا البيت الكريم .. كان رأسه مسرحاً للهواجس والأفكار .. كان قلقاً على مصير الشباب..

وصل صديق محمد وأخبره أن الشرطة ما تزال تحاصر الشقة..

عندما رآه بادره مفاجئاً:

- أنت هني؟!!

- اي أنا هني .. رجعت للبحرين وخلاص! اقعد ابغي أعرف الأخبار!

- للحين مو طالعة أخبار .. انتظر شوي

كان صديق محمد يتابع الأخبار في تويتر والشبكات الإعلامية .. مرّت دقائق ليفاجئ محمد قائلاً:

- جلال انصاد!

شعر محمد بالألم، قال الصديق:

- براويك صورة!

توقع أن تكون الصورة لجلال وقد قبض عليه .. لكن كانت صورة

«وهيب» وقد أمسك به ضباط الشرطة من شعره ومدّ سبابته مهدداً الشباب المطلوبين بمصير أسود ينتظرهم!!

قال محمد:

- ما في أخبار ثانية؟! حسن! مافي! الأمور كلها بخير؟!

- أنت الحين قوم دش تسبح!

أحضر الصديق ضمادات للجروح ولفّ بها الجروح في ساقيه ويديه وقال لصديقه:

- الحمدلله حسن ما انصاد .. الحمدلله صادق تقي ما موجود في الشقة

- الحمدلله!

كان الصديق يتابع الأخبار .. الشرطة بقيت في الشقة ثلاث ساعات .. لم يبق شيء لم تصادره الشرطة حتى «البرانص» التي كان الشباب ينامون عليها!!

صادروا الأسلحة .. أما الأغراض مثل «الثلاجة» «التلفزيون» «السامان» فقد «شالها» بعض الأشخاص وباعوها!!

بقي «محمد» وحيداً محتاراً تعصف بذهنه الهواجس والأفكار!

إلى أين يذهب وإلى من يلجأ؟! خاصّة وأن الجميع يعرف بوجوده خارج البلد!!

لكن الحقيقة أن الكمين ومداهمة الشقة ومشهد محمد طوق وهو

يركض كشف المستور .. هذا شخص يشبه محمد يركض في واديان .. بل هو محمد بنفسه!!

وهكذا انتشر الخبر بأسرع مما يتصوّره المرء: محمد في البلد و«محمد صاده كمين»، قال «راعي البيت»:

- في أخبار إن أنت موجود .. الناس درت .. الناس شافت .. واحد شافك وأنت تطلع

- خلاص .. الحين انتقلنا من مرحلة السريّة التامة إلى العلن..

لم يعد هناك ما يخفيه محمد بعد الآن .. فكر في أن أجهزة الأمن قد تعمد إلى اعتقال أهله للضغط عليه بأي ثمن .. شخص خارج البحرين يعود إلى البلد .. شخص مدرّب وعنده معلومات كثيرة .. لكن هاجس المسؤولية .. هاجس القضية يدفع الإنسان الذي قرر المقاومة إلى أن يواصل الطريق مهما كلف ذلك من ثمن .. هذا هو قدر الإنسان عندما يقرر الثورة!! «أن يقفز من وجع إلى وجع ومن جرح إلى جرحٍ عميق»، قال محمد لـ«راعي البيت»:

- كلم محمود خله يجي عند بيتكم!

كان محمد يعوّل على لقائه مع محمود واستئناف الطريق الذي انتهجه..

«راعي البيت» اتصل بـ«محمود» .. لم يخبره بأي شيء وإنما اقتصر على قوله:

- تعال البيت ضروري تعال عند البيت الحين!

كانت الساعة الثانية ظهراً عندما توقفت سيارة محمود عند البيت..

قال محمد لـ«راعي البيت»:

- اطلع ليه وقول محمد ولد عمك موجود وبجي يركب وياك

ما إن سمع محمود ذلك حتى بادره بالقول:

- خله يجي على السريع

وهكذا لم يخب ظن محمد بابن عمه محمود .. كان يعرف أنه يرحّب به .. حتى وإن كان محمود هو الآخر ضمن قائمة المطلوبين! وهذا ما لم يخطر في بال محمد أبداً!

بادر محمد إلى ركوب السيارة .. وبعد تبادل كلمات اللقاء، قال محمد:

- خلنه نتحرك

وعندما ابتعدت السيارة عن المكان قال محمد متسائلاً:

- عندك مكان نروحه؟!

وهنا فوجئ محمد بابن عمه محمود هو الآخر مطلوب وقد مضى عليه شهر وهو ينتقل من مكان إلى آخر والمداهمات على بيته ما تزال مستمرة .. وهو يقضي الوقت خارج البيت منذ الصباح ولا يعود إلى البيت إلّا عندما يتأكد أن الوضع قد أصبح آمناً .. حياة المطلوبين للنظام حياة صعبة .. حالة من الإحساس بالقلق والضياع وشعور بالتشرّد إلى حدٍ ما!!

كان محمد يفكر أن «الحاضنة الشعبية» هي كما كانت عليه قبل الهجرة إلى إيران .. وأن نسبة الحصول على «مأوى» في هكذا ظروف قد تصل إلى أكثر من تسعين بالمئة .. لم يخطر في باله أن تطورات أكثر من عام غيّر الكثير من طبائع المجتمع في «واديان» وفي غير واديان..

قال محمود بحزن:

- انا ما أقدر أخدمك! أنا ما عندي مكان خاص .. بس الحين بنروح مكان مؤقت..

اتجهت السيارة إلى المكان المؤقت .. رجل شهم سيرحب بهما ويساندهما .. المكان المؤقت كان قريباً .. دقّ محمود الجرس .. خرجت امرأة .. بادرها محمود بالقول:

- بندش «المجلس» وياي شخص!

دخلا المجلس .. بقيا إلى غروب الشمس .. وكان قد وعد ابن عمه بأنه سيغادر البيت بعد الغروب .. كان يتصوّر أنه خلال هذ الفترة سيعثر على بيت يحميه وعلى صديق يأويه!

طلب محمد من ابن عمه محمود أن يحضر له تلفون كما طلب منه أن ينشر «البن» ويكتب هذا «محمد طوق»:

- انشره عشان يضيفوني الي عندك وأن اقدر اتعاطى وياهم..

وفي كل تلك الساعات كان محمود يبذل قصارى جهده في الحصول على «مكان» لإيواء محمد..

ارتفع أذان المغرب وما يزال محمد ومحمود يراوحان في المكان ..

كان قد وعد أنه سيغادر البيت بعد المغرب وحلول الليل!!

حصل محمد بعد الإضافة على قائمة كبيرة من الأصدقاء والمعارف .. كان يتصوّر أن كل هؤلاء على استعداد أن يفتحوا أبواب بيوتهم وقلوبهم لاستقباله!

شباب المقاومة المطلوبون للنظام كانوا أمام تحدٍ كبير .. فهم يقاتلون في الخطوط الأمامية وبأسلحة بسيطة نظاماً دموياً مدججاً بالسلاح! عمقهم الاستراتيجي يكمن في الحاضنة الشعبية .. يعني في مدى مساندة الشعب لهم في صراعهم الدامي وكفاحهم المرير .. لكن عندما يشعر الشاب المقاوم بأنه قد بدأ يعيش حالة بائسة أشبه بالتشرّد فهذا يعني بداية أزمة نفسية يمكن أن تتفاعل في أعماق نفوسهم ومن المحتمل جداً أن تراودهم أفكار انهزامية قد تجد مبرراتها عندما تضيق بهم السبل ويجدون أنفسهم بين ليلة وضحاها أنهم بلا أهل ولا عشيرة ولا سند ولا ركن وثيق!

عقارب الساعة تشير إلى الساعة العاشرة ليلاً ومحمد يترقب العثور على مكان ومأوى وملاذ!

محمود ما انفك يبحث ويبحث لكن دون جدوى!

التفت محمد إليه وقال:

- إلى هني وخلاص .. الحين أنا بدوّر .. أنا بكلم الي عندي!

أبدى محمود عدم رضاه أن يقوم محمد بمفاتحة أحد! رفض ذلك بشدّة لكن محمد قال له:

- ما بقول ليهم حقي المكان! بقول ليهم في أحد مطلوب يحتاج مكان .. بطرش ليهم هذا الكلام .. مطلوب يحتاج مكان ولو ليلة واحدة على الأقل .. ليلة ونقعد في هالليلة ندبّر أمورنا ونشوف وين نروح!

سكت محمود وقد أذعن على مضض فيما بادر محمد وكتب:

- سلام شباب! منهو يقدر يستضيف مطلوب لليلة وحدة؟ الي يقدر يكلمني!

هذه رسالة عاجلة أرسلها إلى كل الأسماء في القائمة! بقي محمد يترقب أن تصل إجابة من أحد!! ثلاثون دقيقة مرّت .. ستون دقيقة .. تسعون دقيقة .. ولا من مجيب!!

شعر محمد بالإحباط!! صدمه الصمت القاتل! كان صمتاً مدوياً!

شعر بمرارة وألم يعتصر قلبه واجتاحته مشاعر وأحاسيس متناقضة .. شعر بحالة من الضياع .. وتمنى أنهم قبضوا عليه مع رفاقه! لذلك التفت إلى ابن عمه وقال بمرارة:

- يا ريت انصدت ويه جلال وصادق ووهيب!! على الأقل أنا وياهم .. ما بضل هني تايه مادري وين اروح وين أجي!!

مرّت ساعتان وما تزال رسالته دون جواب!!

محمد يكرر أمنيته العجيبة على مسامع ابن عمه:

- يا ريت جودوني ويه صادق والشباب

محمود يحاول طمأنته:

- اصبـر! الوضـع مـو نفس قبـل! الوضع جـدي محد ويـاك .. احنا .. مشيت في هالدرب الناس تصفق .. تشوفك تصفق ليك .. لكن مو وياك!! ما تشيلك!! من تميل محد يسندك ويوقف ليك!

برقت في ذهن محمد فكرة جنونية! التفت إلى ابن عمه وقال:

- قوم ودني لقبر الشهيد علي فيصل!

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل .. لذلك استنكر محمود قائلاً:

- ليش تروح هالحزة؟! ما تدري ويش الوضع برّا؟!

لكن محمد كان مصرّاً:

- ابغـي اقعـد هالليلـة عنـد قبر الشـهيد .. والصبح بضل في الشـارع واللي بصير يصير! بجون يعتقلوني خلهم يعتقلوني

لـم يرضـخ محمـود لابـن عمـه الـذي شـعر بأنه قـد وصل إلـى طريق مسدود!

- اصبر لا تصير جدي! اتحمّل

وفي هذه اللحظات المصيرية وصل جواب من أصغر اثنين في قائمة المخاطبين! كان محمد قد استبعدهما تماماً!!

- محمود! اكو أحد كلمني بس صغير!!

- شوفه .. شوف ويش عنده!

كتب محمد جواباً على سلامه:

- عليكم السلام

- أبو جاسم حصلت مكان للمطلوب التي تبغي ليه مكان؟!
- لا! ما حصلت .. للحين ما حصلت
- جيبه البيت! جيبه شقتنه
- الشقة منهو فيها؟!
- الشقة فيها أبويي وأمي وأختي!

استصعب محمد اللجوء إلى شقة هذا الفتى لكنه لم يغلق هذه النافذة لذلك كتب إليه:

- مو مشكلة خلك أنت لين احتجت بكلمك

بعد دقائق كلمه شخص صغير آخر اسمه «عماد» .. صغير في العمر لكنه كبير في عمله ونشاطه وإرادته .. كان عماد مطلوباً للنظام:

- السلام عليكم أبو جاسم
- عليكم السلام
- حصلت مكان للمطلوب؟!
- لا!
- عطني عشر دقائق ارتب مكان وأعطيك خبر اتأكد منه!

محمد يشعر بحالة من «الصدمة»!! لم يرد عليه واحد من كل هذا العدد من الشباب! حيدر! ذلك الفتى اليافع يرد عليه ويسعى في الحصول على مكان لأحد المطلوبين .. مطلوب لا يعرف عنه شيئاً!!

بعد عشر دقائق يتصل حيدر:

- أبو جاسم! المكان جاهز .. وين أقدر استلم هذا الشخص؟ يعني تجيبونه ليي وأوديه؟!

- عطني شوية وأرد عليك!

بقي محمد محتاراً في أمره .. هل يكشف له عن هوية المطلوب؟

وفي النهاية قرر أن يمضي في اللعبة حتى النهاية! لذلك طلب من ابن عمه محمود «دفة» يتنكر بها ويتصل بـ«حيدر» على أنه في إيران ويتابع القضية .. قضية هذا المطلوب!

اتصل محمد بـ«حيدر»:

- الحين محمود بجيب لك الشخص المطلوب وأنت اركب وياهم في السيارة وتنقله إلى مكان

- تمام .. أنا أحارسكم عند المسجد الوسطي في القِريّة!

- في سيارة بتجي «مكسيما» روح اركب فيها .. محمود فيها والشخص معاه!

كان محمد متنكراً وقد أخذ مكانه إلى جانب محمود .. وصلت السيارة المسجد وركب عماد في الخلف .. ما إن استقر في المقعد الخلفي حتى كتب:

- أبو جاسم! وصلوا

أجاب محمد وقد وضع نقاله على حالة «السايلنت»:

- تمام يعطيك العافية

ما فعله محمد كان بدافع أمني .. فقد يعتقل عماد ويعترف ويكشف عن وجود محمد في البحرين ويدلّ على مكان اختبائه لهذا فضّل إخفاء هويته..

كان محمود يقود سيارته وكان عماد يرسم له خارطة الطريق إلى أن وصلوا إلى بيت في «مهزة» .. استقر محمد أو الشخص المطلوب الذي لا يريد الكشف عن هويته في «الملحق» وكان عبارة عن غرفة تشتمل على حمام..

طبعاً تعمّد عماد النزول قبل الوصول إلى البيت حتى لا يعرف محمود مكان البيت بالضبط وكان هذا إجراء احترازي من هذا الفتى الباسل!

مضى محمود لحال سبيله وتمشيا إلى البيت وكان قريباً من نقطة النزول!

جلسا في الغرفة .. بقي محمد متردداً هل يكشف له عن هويته؛ ما يزال محمد متنكراً بدفّته! بعد دقائق كتب حيدر:

- أبو جاسم شكله الصبي ما يبغيني أشوفه!
- اي ليـن هـذا اطلع عنه وهم خلاص أنت لا تجي ليه هني .. مدام أنت متفاهم ويه راعي البيت خله .. وأن إن شاء الله عقب يومين بشيله!
- مو مشكلة!

نهض عماد وغادر المكان فكتب له محمد:

- مشكور وما قصرت .. رحم الله والديك!

بعد يومين من استقراره في هذا البيت .. كتب محمد إلى حيدر:

- ما قصرت رحم الله والديك الشخص ترى شلناه من البيت نفسه وما قصرت!

في اليوم الثالث دوهم بيت عماد وتم اعتقاله..

مكث محمد طوق في البيت لليوم الثالث على التوالي وكان حسن قد اختفى وانقطعت أخباره منذ الظهر .. تواصل مع ابن عمه جعفر يسأل عن حسن .. فظهر أن حسن معه؛ وكان صاحب البيت قد سمح لـ«محمد» أن يأوي إليه شخص آخر مطلوب والحقيقة أن «أبو علي» و«أم علي» كانا مثالاً للكرم والضيافة .. أخبرهم عماد قبل أن يغادر أن الشخص المطلوب «ما ينبغي أن يشوفه أحد»!

كان يطرق الباب وعندما ينهض محمد ليفتح الباب إذا به لا يجد سوى «الصينية» فيها طعام «الريوق» ومرّة أخرى نهض ليفتح الباب إذا به يرى صينية «الغداء»!!

لذلك ترصّد محمد أن يطرق الباب فيبادر فوراً ليتحدث إلى صاحب البيت لذلك انتظر حلول وقت «العشاء»!

جلس محمد قرب الباب حتى لا يترك فرصة للطارق أن يختفي!

بعد أذان المغرب طرق الباب وعندها «بطّل» محمد الباب على الطرقة الثانية وإذا به وجهاً لوجه مع «راعي البيت»؛ قال أبو علي:

- مسامحة! أنا ما أبغى اشوفك وأنت تشوفني بس أنت بطلت

الباب

- أنت الحين دش ويايي داخل خلنه نتكلم

أبو علي لا يعرف محمد ومحمد لا يعرفه! أبو علي من منطقة بعيدة عن منطقة محمد التي هي واديان..

قال محمد عندما استقر بهما الجلوس:

- ما يصير الحين يعني أنك ما تشوفني وأنا ما أشوفك!! لابد تشوفني ولابد أشوفك .. أنا قاعد في بيتكم .. يمكن أنتون محتاجين شيء مني تبغون تقولونه .. يمكن أنا محتاج شيء لازم أشوفكم وتشوفوني

- احنا فكرنا أن ما تبغي واحد يشوفك فكنا ما نبغي نضايقك

شعر محمد أن يعيش بين ظهراني أهله وناسه .. شعر أنه يعيش في بيته .. أبو علي قد بلغ به الكرم والمحبة أنه احترم رغبة «الضيف» الذي لا يرغب أن يراه ويتعرف عليه أحد!!

قال محمد وقد نبع في قلبه الحب لهذا الرجل الكريم:

- لازم تجي تقعد وياي .. أي وقت تكون فاضي اقعد ويايي

- إن شاء الله

وهكذا استقرب«محمد» المقام وتبددت عن ذهنه هواجس الحيرة والقلق والإحساس بالضياع والتشرد!

اتصل جعفر على «البلاك بيري»:

- محمد! حسن يبغي يتكلم وياك

- عطني

بعد التحية قال حسن:

- أنا ابغي أجي وياك! مو مرتاح هني! ابغي أكون وياك!

- قبل لا تجي من الحين نحط شروط!!

كان أبو علي قد قال لـ«محمد» في أول «قعدة» معه:

- البيت بيتك .. أي شخص أنت تبغي تجيبه البيت مفتوح ليك وإلى غيرك

- إن شاء الله

قال محمد لـ«حسن»:

- راعي البيت ما بيمانع إن أنا أجيب أحد .. لكن أنا أحط نقاط في هذا الأمر .. قلة الحاضنة في الديرة بشكل عام .. لابد أنك تحافظ على راعي البيت .. أزيد مما تحافظ على روحك! مئات الخطوات قدام .. تحط كل احتمال وكل احتياطاتك لراعي البيت .. قبل لا تطالع روحك تطالع راعي البيت .. لأن أنت شخص بيعتقلونك بروحك .. بس مجرد أن يعتقلونك في بيت بيعتقلون راعي البيت وزوجته .. خاصّة شخص مثلي راجع من إيران .. فاحتمال يسبب ضرر كبير في البيت!

سكت محمد لحظات ليقول له:

- مو مشكلة بس عطني شوي وأرد عليك..

تحدث محمد مع «أبو علي» حول موضوع حسن وكان الجواب:

- ماكو مشكلة

- بس أنت بتروح وبتجيبه هني؟!

- تمام

في الساعة الثانية عشرة تقريباً ذهب أبو علي على الموعد وأحضر حسن إلى بيته ليكون ضيفاً مكرماً في هذا البيت الكريم! الله سبحانه ألهم حسن المجيء إلى هنا!

في الساعة الساعة الخامسة فجراً دوهم المكان الذي كان فيه حسن وتم اعتقال الشباب وانقطعت أخبارهم ومحمد لا يعرف هل أن أجهزة أمن النظام قد اكتشفت عودة محمد من إيران أم لا؟! لكن على العاقل أن يحتاط .. ربما يعترف عليه أحد الشباب..

اتصل محمد بـ«خ» وهو من الشباب الأشدّاء .. رجل المواقف الصعبة .. قال له:

- شوف لينا مكان!

وصار الاتفاق أن يعود محمد إلى نفس البيت الذي استقر فيه يوم وصوله إلى البحرين وقبل انتقاله إلى الشقة رحب «أبو أحمد» بالضيفين المطلوبين محمد وحسن!

من داخل سجن «الحوض الجاف» تلقى محمد رسالة من رفيق الدرب «جلال»:

- النظام درى أن أنت موجود في البحرين!

حصلت اعترافات حول تحديد موعد لاستلام «الأسلحة» عند قبر الشهيد علي فيصل!

في التحقيقات تم فتح المحادثات القديمة مع «محمد طوق» .. فتبيّن له من خلال الحوار والصياغات واستخدام جملة «متى بتجون؟» «أنا أحارسكم» «جيبوا وياكم!» محمد يتحدث بهذا الأسلوبّ هذا يعني أنه موجود في البحرين!!

لذلك أعادوا صادق إلى التحقيقات في أمن الدولة .. جاؤوا إلى سجن الحوض الجاف وتم استدعاؤه للتحقيق مرّة أخرى..

وهكذا توصل التحقيق ومن خلال الاعترافات إلى أن محمد دخل البلاد من خلال «الجسر»! وتم التعرف على شخصية من قام بإدخاله «د»!!

لم يعتقلوا «د» .. وضعوه تحت المراقبة .. ربما يلجأ إليه محمد في هذه الظروف .. أصبح «د» كبيت العنكبوت من أجل اصطياد «محمد طوق» القادم من إيران!!

بادر محمد طوق إلى تحذير «د»:

- ترى صار عليك اعتراف!!

في صباح أحد الأيام تسلّم محمد من صديقه يعقوب:

- وينه أنت؟

سؤال أثار تساؤلات محمد وشكوكه!

- هلا يعقوب!

- وينه أنت؟

تزايدت شكوك محمد! فـ«خ» يعرف مكانه!

أدرك محمـد أن أمـن النظـام يريـدون معرفة مكانه مـن خلال تلفون يعقوب:

- ليش؟

- عندي أغراض إليك!

أيقن محمد أن «خ» معتقل وهذا التواصل من التحقيقات!

- أنا في سترة أفتر بالسيارة .. أنت في وينه أنا بجيك

وجاء الجواب سريعاً:

- تعال عند «بحر لي مارش» مجمع سترة

أدرك محمـد أن «خ» تـم اعتقالـه في «لي مارش» لأنه يعمل في هذا المجمـع! وأمـن النظـام يحاولون الإيقـاع به واصطياده مـن خلال تلفون يعقوب! لذلك استمر محمد في إدارة اللعبة، كتب لهم:

- بعد خمس دقائق أنا عندك .. بجيك

اتصل محمد على أحد الشباب:

- الحين تطلع بسيارتك وتروح عند بحر لي مارش .. عند مجمع لي مارش شـوف الوضع شـنو هناك! دش داخل .. «خ» يشـتغل هناك .. شوفه موجود!!

بادر محمد وقام بحذف «خ» من «البلاك بيري»!!

جاء الجواب:

- «خ» ترى دشوا عليه الشغل وشالوه التحقيقات

وهكـذا أفلـت محمد مـن هذا الكميـن!! قرر مغـادرة البيت لأن «خ» يعرف بمكانه هنا!

كان الوقت ظهراً .. والسـاعة تشـير إلى ما بعد الحادية عشرة .. طرق الباب على «راعي البيت»، قال له:

- أبغي اطلع
- وينه بتروح الحين الظهر؟!
- أي مكان! وصلني أي مكان!

سأل وقد ركب حسن في السيارة:

- وين بتروح؟!
- في برادة 24 ساعة في «إسكان مهزة» .. الوضع هناك آمن .. في بيوت الإسكان .. ودنا هناك!

برق في ذهنه اسم كبير سوف يسانده في محنته بلا تردد .. قال في نفسه:

- خـلاص الوقـت ضيّق .. وليس من الصحيح الاتصال بـ«محمود» .. هو نفسه مطلوب وحاير بنفسه..

قام أبو أحمد وأوصل محمد وحسـن إلى المكان المطلوب .. تحدث

مع ذلك الاسم الكبير! ولديه أمل في أن يضعه في عينيه! وصلت السيارة وصدر صوت كبح الفرامل وهمّ بالنزول فأشار محمد أنه سيصعد في السيارة مع رفيقه..

بادر الاسم الكبير بالسؤال:

- ويش صاير؟!
- اعتقلوا «خ» ويريدون القبض عليّ .. يريدون استدراجي من خلال تلفونه!
- الحين ويش تبغي؟! ويش الحل! في شنو أنا أقدر أخدمك!
- أريد مكان أقعد فيه ثلاث ساعات مو أكثر! ثلاث ساعات أرتب أموري واطلع! أبغي مكان ثلاث ساعات

وجاء الجواب الصادم:

- ما عندي مكان!
- شلون يعني؟!
- أنا ما عندي مكان ليك! عندي البيت وبيتنه مو آمن ليك .. أنا خايف عليك

قال محمد بألم ومرارة:

- يعني أنزل!!
- اي انزل
- وقف!

هذا الاسم الكبير يرمي شخصاً مطلوباً في الشارع .. يتركه على قارعة الطريق .. لقمة سائغة لأمن النظام!!

هذا الشخص الذي طالما كان يقول لـ«محمد»:

- أنا ظهرك أنا سندك!

يقول له ما عندي مكان لثلاث ساعات فقط!

كان بإمكانه أن يضعه في السيارة لثلاث ساعات يتدبر خلالها أمره! ولكن واخيبتاه!! واخيبتاه!!

نزل محمد وأغلق باب السيارة بعصبية يريد أن يسجل احتجاجه وانزعاجه! يريد أن يفرغ شحنة غضب في داخله!!

لا مناص من الاتصال بـ«محمود» ابن العم الشهم والأخ الحبيب!

الذي سانده في أحرج الظروف! اتصل به:

- محمود! أنا في الشارع

- وين أنت؟! ليش أنت في الشارع؟! أنت وينه؟! الحين بجي ليك..

دقائق معدودة فقط وجاء محمود يقود سيارته على عجل، ركب محمد وحسن السيارة لتتجه إلى المأوى الذي كان بمثابة بيت العنكبوت .. البيت في هذه الظروف «مصيدة» .. أدرك حسن معيوف حراجة الظروف فقال لمحمد:

- محمد! أنا بشوف لي مكان بطلع بروح الدير .. أنا أبغي اروح الدير

أدرك حسن معيوف صعوبة الحصول على بيت آمن في جزيرة سترة..

«الدير» أكثر أمناً خاصّة وأن شهر محرم على الأبواب .. والأماكن هناك متوفرة..

قال محمد:

- مو مشكلة .. أنت روح الدير محرم .. إن شاء الله بعد محرم تجي وتكون وياي..

استطاع محمود أن يحصل على مكان مؤقت لـ«محمد» عبارة عن شقة صغيرة غير مؤهلة للعيش، وكان محمود أحياناً يعود ليلاً لينام، كان ابنا العم يتناولان وجبة واحدة غذاء أو عشاء خلال 24 ساعة لان هناك صعوبة في دخول محمود وخروجه من الشقة .. حتى الماء الذي يحضرونه بارداً يصبح ساخناً بسبب الحرارة وعدم وجود ثلاجة!!

مكث محمد في هذا المكان زهاء أسبوعين .. وعرف بعودة أبو علي من السفر الذي اتصل بـ«محمد» فور عودته:

- أنا رجعت حياك البيت!

شعر محمد بارتياح بالغ وشعر بأن نافذة خلاص قد فتحت له لذلك أخبر محمود بأنه سيعود إلى مكانه السابق في بيت «أبو علي» .. محمود قال لابن عمه الغالي:

- ابغي أكون وياك أخدمك بعيوني

- الأفضل أن يعود كل منا إلى مكانه .. وهذا أفضل لي ولك

كان محمد يترقب بحذر ما سيقوم به النظام من خطوات قادمة ..

شـعر أن أجهزة أمن النظام لديها «لعبتها» وعدم مداهمة بيت أهله جزء من هذه «اللعبة»..

ثلاثة أشهر بل وأكثر من ذلك ربما أربعة أشهر أمضاها محمد في بيت «أبو علي» .. عجيب أمر هذا الرجل!! وزوجه «أم علي» عجيب أن يسمو الإنسان في هكذا ظروف ويتصرف بمنتهى الطيبة والمحبة والحنان! كان أبو علي يلبي كل ما يطلبه محمد الذي أصبح يتردد كثيراً في طلب ما يريد لأنـه يرفـض تسـلم ربيّة أو دينار .. كان أبو علي ينتظـر حلول ليلة الإجازة والعطلة لإمضاء السهرة مع محمد .. وطوال هذه المدّة لم يعرف أولاده بوجود شخص مطلوب للنظام في بيتهم!!

كانت أم علي عندما تشتري لأولادها في المناسبات .. ثياب وما شابه .. لم تكن تنسـى محمداً .. كانت تشـتري له أيضاً .. كانا يعتبران محمداً ابنـاً لهمـا .. يغمرانـه بالمحبة والحنـان .. في هذه الفترة انتشـرت صورة محمد مع الشهيد علي فيصل .. وذات يوم من أيام آذار وتحديداً ليلة 17 آذار .. فتـح أبـو علـي باب «المجلس» ومعه أم علي وقدم أبو علي كيسـاً إلى محمد قائلاً:

- جوّد!

- هذا شنو؟!

- أنت الحين جوّد هذي!

أمسك محمد بالكيس وهو ينظر متسائلاً؛ قال أبو علي:

- هذي هدية مال عيد ميلادك!

شعر محمد بالدهشة والمفاجأة .. هذي أول هدية يستلمها محمد في عيد ميلاده!! لم يخطر في باله أن هذه الليلة تصادف ليلة عيد ميلاده في 17 آذار!!

كان أبو علي قد شاهد في الـ«انستغرام» أحد أصدقاء محمد ينشر صورة محمد ومعها عبارة: كل عام وأنت بخير!

ولهذا بادر إلى شراء هدية لـ«محمد» بهذه المناسبة!!

أصبح محمد أحد أبناء هذه الأسرة وتبددت منذ البداية كل مشاعر الغربة في هذا البيت الكريم .. لقد مرّ ثلاث وعشرون سنة .. لم يستلم محمد خلالها هدية واحدة بمناسبة عيد ميلاده!!

أبو علي كان يقول:

- هي نعمة أن يكون في بيتي مطلوب أخدمه بعيوني!

كان يتمنى ذلك كثيراً لكنه لا يستطيع أن يقول للناس: أبغي مطلوب يكون في بيتي وأخدمه بعيوني ولهذا فهو يحمد الله أن رزقه هذه النعمة!

ذات يوم فوجئ محمد بـ«أبو علي» وهو يحمل جهاز تلفزيون كبيراً! يكون تسلية لضيفه الكريم وابنه الروحي .. صحيح أن محمد كان يمضي أوقاته في تصفح مواقع التواصل وفي قراءة القرآن وزيارة عاشوراء..

عناصر أمن النظام خاصة الذين يرتدون الزيّ المدني تحاصر بيت والديه وتتشدد في مراقبته؛ وكان هذا البيت أشبه بقلعة محاصرة لكنها كانت عصيّة على الاستسلام والسقوط!!

ظل محمد محروماً من رؤية والديه، وذات مرّة عرف أن والدته

تشارك في الفعاليات؛ فكان يترصّدها ويلتقيها في الشارع! أما والده فلم يوفق إلى لقائه فترة تواريه عن الأنظار .. وأخيراً التقاه بعد اعتقاله وزيارة والده له في السجن!!

الناس سيعرفون أنني رجعت إلى البحرين! النظام يعلم بوجودي في البلد .. وقد حلّ شهر محرم الحرام .. فما جدوى بقائي واختفائي في هذا البيت!!

هل يعقل أن يحلّ موسم العزاء الحسيني وأنا قاعد في البيت؟!

هذا ما كان يهمس به محمد في خلواته .. لم يبقَ على حلول محرم الحرام سوى يومين على الأقل!

سوف يظهر محمد ويضع حدّاً لعزلته وتواريه عن الأنظار!

قرر في داخله أن يضع حدّاً لاختفائه .. قرر محمد أن يكون يوم السابع من شهر محرم الحرام؛ نهاية لعزلته!!

المشكلة الوحيدة أن بيت أبو علي ليس في قريته واديان ومحمد يودّ أن يكون في قريته الحبيبة لذلك وجّه رسالة للشباب بهذا الشأن..

حصل محمد على ضوء أخضر .. إنه من «سليمان» وجاء سيل من الاحتجاجات حول قراره في «أن يطلع» ليلة السابع:

- محمد! أنت قضيتك أكبر! أنت جاي من برّا!! أنت الحين قضيتك كبيرة!

قرار محمد في «الظهور» مجازفة قد تعرض الكثيرين للخطر..

النظام سيوجه ضربة أمنية للجميع ويفوّت على الجميع فرصة «شهر

محرم» وكان ردّ محمد مهدئاً قال لهم:

- أنا اشوف إن شاء الله!

حصل تطور نفسي لدى الكثير من المطلوبين .. أصبحوا يخافون من «الضرر» الذي قد يلحق بهم من خروج محمد وظهوره في واديان!!

بدأت «ليالي محرم» وكان محمد يتخذ القرار ثم يتراجع في اللحظات الأخيرة .. وأخيراً قال لـ«سليمان» في ليلة الثامن من المحرم:

- الليلة بطلع بس ما بطلع من وقت .. بطلع متأخر .. بشوف الاحياءات من بعيد ..

وهكذا تم الاتفاق على «الخروج» و«الظهور» في الساعة الحادية عشرة ليلاً .. ذهب سليمان في طريقه ومحمد في طريقه .. وكان طريق محمد نحو «المقبرة» في وسط قريته «واديان»..

«المقبرة» تطل على جميع الاحياءات .. زار قبر الشهيد وجلس عنده وراح يبثه همومه ومخاوفه:

- علي! أنا خايف من أخواني وربعي .. مادري شنو بيصير .. الناس بتتقبلني لو بترفضني!!

أمضى محمد ليلته في المقبرة وعاد أدراجه .. لم يره أحد..

في يوم العاشر من المحرم ذروة الحزن في موسم الحزن .. ذكرى يوم عاشوراء .. اعتاد الناس على أداء مراسم «ركضة طويريج» الشهيرة لإحياء حادثة تاريخية .. يُقال أن قبيلة بني أسد هبّت لنجدة الإمام الحسين وأهل بيته ومساندته في معركته ضد جيش يزيد بن معاوية ..

لكن بني أسـد وصلوا بعد وقوع المأسـاة بالقرب من نهر الفرات في أرض كربلاء!!

قـرر محمد المشـاركة في «ركضة طويريـج» وليكن ما يكون .. تحدث محمد بهذا الأمر مع ابن عمه محمود .. قال له:

- أنا بطلع في «طويريج» .. بنزل!
- لا تطلع! خطر عليك
- مـا اقـدر! اليوم عاشـر محرم .. اليوم تعزية الحسـين عليه السلام .. شـلون اقعد؟! أنا بطلع لين الإمام الحسين عليه السلام هو يكفلني لأن أنا بكون ضيفـه اليـوم .. والـي بيصيـر اليـوم خلـه يصيـر .. أنـا طالـع للإمام الحسين..

وهكـذا قرر محمـد «الخروج» .. التحق بـ«ركضـة الطويريج» .. الناس كانـوا مسـتغرقين فـي ذكـرى المأسـاة ولـم يلتفتـوا لـه .. التحـق محمـد بـ«موكب العزاء» ثم التفت بعضهم إلى الوافد الخطير!

فـي البدايـة التفـت «المطلوبـون الشـباب» إلـى ظهـوره فأقبلـوا إليـه يعانقونـه ويحتضنونـه! وهذا ما جعله يتشـجع ويواصل طريقه وقد تأكد من صوابية ما فعله وقراره في المشاركة!!

بعض الشباب في نهاية المأتم بدأوا يصورون معه وأصرّ بعضهم على بقائـه بعـد نهايـة المراسـم .. لكـن محمد أخبرهـم بضـرورة أن يغادر .. ذهـب مـع بعـض رفاقه .. حسـين نوح ولـم يكن ضمـن المطلوبين لكنه كان حركيـاً ناشـطاً وكذلـك كان معـه ابـن عمـه محمـود وتغـدواً معـاً ..

وبقوا يتحدثون إلى الغروب .. وارتفاع أذان المغرب ليأخذ طريقه مع «سليمان»..

استيقظ في صباح اليوم التالي على برقية مفادها حصول دفعة من المداهمات في منطقة «سفالة» .. تم نصب كمين لاصطياد أحد الشباب: «أحمد عبدالوصي» وتمكن من الإفلات .. فداهمت عناصر الأمن الشقة!!

كان أحمد عبدالوصي يعمل مع الشهيد علي فيصل وكان معه في ساعة استشهاده بعد زراعته العبوة المشؤومة!

بعد الأذان تلقى محمد اتصال من «سيد جعفر»:

- سلام محمد! شخبارك؟
- تمام .. الحمدلله
- تدري أن أحمد اليوم سوو ليه كمين!
- اي ادري
- حمدلله هو ما انصاد
- الحمدلله!
- بس عندنا مشكلة!
- شنو المشكلة؟
- أحمد! مو محصلين ليه مكان! قاعدين ندور مو محصلين .. تقدر تدور تسعى اتدور لينه مكان؟!

- إن شاء الله .. الحين اسعى لين حصلت بعطيك خبر..

وباشر محمد بـ«السعي»؛ تحدث مع أكثر من شخص في وجود مطلوب ليس له مكان آمن .. كانت الردود تصل تباعاً:

- بعد دقائق بنرد عليك!!

اعتذر بعضهم .. كانت تساورهم مخاوف أو تساور أهلهم في تبعات «إيواء مطلوب»..

في الساعة التاسعة مساءً وجّه محمد إلى سيد جعفر رسالة:

- مسامحة سيد! ما حصلت مكان! سامحني! أنتون حصلتون مكان؟
- لا ما حصلنه مكان .. هو ويانه في السيارة وبنشوف .. إن شاء الله خير!
- أنت سعيت؟!
- من الصبح للحين قاعدين نسعى بس ما حصلنه!

انتهى محمد المحادثة وراح يفكر في هذا الموضوع .. قال في داخله كما لو أنه يحاكم نفسه:

- الحين شلون أنا قاعد في مكان وآمن وهذا منهو إليه؟! وين يروح؟! وين يجي؟! وأنا بإمكاني أن اجيبه ويايي!!

انبعث في داخله صوت يحاول تنفيذ ما يملي عليه ضميره:

- هذا راح يسبب إليك المشكلات! في أشياء أمنية .. أنت تعرف وينه تمد رجليك وحدك .. إذا تجيب وياك واحد راح يسبب إليك

مشكلة!

كان صوت الضمير أقوى من هذه الحسابات والوساوس وتدفق نبع من الحنان دفعه إلى أن يتخذ القرار النهائي:

- سيد! أنا حصلت ليه مكان .. بس المكان مشروط .. الي أولهش شرط آخره نور! المكان فيه شخص مطلوب .. يعني يلتزم باللي هذاك يقوله .. يعني الطلعة مو كل يوم .. إذا عنده طلعة لازم يخبر ذاك الشخص قبل بيوم حتى يرتب الأمور .. يعني الساعة جم بتطلع الساعة جم بترجع! ولين هذا موافق ماكو مشكلة!
- تمام موافق على هذي الشروط .. هذا أفضل من النوم في الشارع
- انزين راح اطرش واحد يروح يشيله

تحدث محمد مع «راعي البيت»:

- في شخص موجود في المكان الفلاني واقف .. روح شيله وجيبه..

وما أسرع ما بادر راعي البيت لإحضاره .. جاء «المطلوب» ودخل على محمد فعرفه على الفور .. قال محمد يؤكد الاتفاق:

- أنت الحين ويايي .. وضعي غير وضعكم .. أنا ما امنعك من الطلعة .. بس قللها قد ما تقدر قللها .. خاصّة أنت الحين جايين ليك مسوين ليك كمين فيبغونك! قد ما تقدر تحافظ على روحك وتحافظ عليي وعلى المكان الي احنا فيه
- مو مشكلة
- إذا بكرة بتطلع خبرني اليوم أن هالساعة بطلع وهالساعة برجع

.. وأنا برتب الأمور..

كان محمد كإجراء احتياطي ينسق مع «محمد رضي» فعندما يريد المطلوب الخروج في الساعة التاسعة صباحاً والعودة في الساعة الحادية عشرة .. كان محمد يتصل على «محمد رضي» يخبره بأنه يرغب في الجلوس معه من الساعة التاسعة إلى الحادية عشرة .. يعني كان محمد أيضاً يخرج ويغيب عن البيت طوال هاتين الساعتين ثم يتصل على المطلوب هل رجع أم لا؛ ولهذا «محمد طوق» يأخذ في حذره احتمال تعرض المطلوب للاعتقال ومن ثم الاعتراف على المكان الذي يختبئ فيه محمد!

استمر العمل بهذه الوتيرة زهاء أسبوعين؛ وذات ليلة بقي محمد مع ضيفه ساهرين حتى الصباح .. فقد امتدت بهما جلسة السحر إلى مطلع الفجر!

وإذا بـ«أحمد» يفاجئ محمد في الساعة الخامسة والنصف فجراً قائلاً له:

- أنا ضروري ابغي اطلع عندي شغلة!!

لم تكن هناك فرصة للتنسيق مع محمد رضي؛ لذا فكر أن يسمح له بالخروج ويبقى هو في البيت لينام بعد هذه السهرة المضنية..

تحدث محمد مع راعي البيت وطلب منه أيصال «المطلوب» إلى المكان المطلوب!!

تمدد محمد في فراشه استعداداً للنوم! لكن إحساساً خامره يحثه

على الخروج من البيت .. صوت من داخل النفس يقول له:

- قوم اطلع!! بتنام وهو مو موجود؟! قوم اطلع احتياطاً!!

اتصل بـ«محمد رضي»:

- في ريوق؟!

- اي

- برز الريوق بجي اتريق وياك

ذهب إلى بيت محمد رضي لتناول الفطور .. ظهرت آثار السهر عليه فـ«انبطح» واستغرق في نوم عميق .. لم يوقظه سوى صوت «محمد رضي»:

- محمد! اقعد

تساءل محمد وهو يحاول طرد النعاس:

- شنو صاير؟!

- اكو فيه مداهمات في «سفالة» .. صايدين «ستورات متفجرات» وشكله في مداهمة في «مهزة»..

شعر محمد بالحيرة فقد كان في «مهزة» ترى من هو المعتقل؟!

بقيا يتابعان الأخبار: «وين راحوا؟ وين جو؟»

وانجلى الغبار عن الأخبار:

- اعتقلوا «أحمد عبدالوصي»..

بعد عشر دقائق تحدث محمد مع راعي البيت «أبو علي» الذي بادره بالسؤال:

- أنت بخير؟!
- اي بخير
- شنو الموضوع؟!
- بس مجرد طلعت عقب ساعة ونص ساعتين طبّوا البيت!
- شلون طبّوا البيت؟! شنو الأسباب!

كان محمد عندما يخرج من البيت يرتب المكان على نحو لا يوحي بوجود أشخاص فيه .. لذلك عندما اعتقلوا أحمد عبدالوصي اعترف على المكان الذي كان فيه .. وعندما داهموا البيت وجدوا المكان مرتباً لا يوحي بوجود شخص مطلوب فيه؛ لذلك اعتقدوا أن أحمد ومن أجل وقف مسلسل التعذيب قد كذّب عليهم .. وإلّا فإن البيت كان على نحو طبيعي .. المشكلة التي حصلت هي انكشاف البيت!!

لقد خسر محمد البيت المثالي .. هذا البيت المفعم بالدفء العائلي .. بالحنان والصفاء والمحبة..

اضطر محمد أن يتصل بـ«إبراهيم المؤمن»:

- ترى أنا داهموا البيت الي أنا فيه .. وما عندي مكان أنام فيه!!

إبراهيم هو الآخر مطلوب لكنه أجاب:

- أنت وينه؟!

- أنا ويه محمد رضي
- أمر عليكم

وسرعان ما جاء إبراهيم ليجلس معهما بعض الوقت ثم قال لـ«محمد»:

- قوم نمشي!

تصوّر محمد أن إبراهيم لديه مكان آمن .. لكنه عندما ركب السيارة وقادها إبراهيم باتجاه محدد! قال محمد:

- وين جايينه؟!
- البيت! ما عندي مكان!
- ؟؟؟!!!
- بيتنا أهون من بيتكم .. أنت ما عندك مكان! بتقعد في الشارع؟!

ابستم محمد بمرارة وقال في نفسه:

- إلى أين وصلت بنا المرحلة؟!! المطلوب يأوي مطلوب يصطحبه إلى بيته! لأنه الخيار الوحيد! وإلّا فإنه مهدد بالنوم في الشارع!!

سكت محمد على مغض وذهبا ليعيشا معاً في بيت إبراهيم!

كانا ينامان على وجلٍ .. ففي أي لحظة كان البيت عرضة للمداهمات .. مرّت أربع ليالٍ لم يذوقا فيها النوم العميق .. كان نومهما قلقاً..

محمد ينتبه لأقل «طقّة»!! خاصّة «الطقّات» التي تصدر عادة عن «السيارة» وهي «تطوف» في الجوار!

خطرت في بال محمد فكرة! ماذا لو يلجأ إلى بيت حبيب الروح .. فهو بمثابة الأخ الشقيق والصديق الرفيق .. «ح.م» وحبيبه يسكن في شقة لوحده في الطابق العلوي من بيت والده .. المشكلة أن والده أبو «ح.م» رجل «خائف» مذعور من النظام .. لا يريد أن يزج بنفسه ولا بابنه في هذه «المشاكل»..

شقة «ح.م» مكان مثالي لأنه ما يزال عازباً وعلاقة محمد بحبيب روحه العازب علاقة مثالية .. علاقة روح واحد في جسدين..

لذلك كان هاجس محمد ليس أجهزة أمن النظام بل أن يراه أبو «ح.م»!

لذلك «دايركت» دخل على «ح.م» الغرفة وكان نائماً:

- اقعد!

«ح.م» كاد يطير فرحاً:

- وين أنت؟! كل يوم على يوم أحارسك! كل يوم أقول محمد بدش .. وينه أنته؟! جان جيت! أنا أخوك! أنا من دريت أنته موجود في البحرين .. كنت كل يوم أحارس ضربة الباب وأنت تدش! ليش تأخرت؟!

- ظروف .. ممكن النظام يعرف أن علاقتي بك شنو .. كنت خايف أنا أجي!

- بس خلاص أنت اقعد وما تطلع من البيت بتاتاً..

وهكذا شعر محمد أنه قد ألقى بـ«عصا الترحال» واستقر به النوى ..

بيت «ح.م» هذا في وسط «واديان» وهذا يتيح لـ«محمد» المشاركة في جميع الفعاليات .. يستطيع أن يخرج بسهولة ويعود بسهولة.

قال محمد لـ«ح.م»:

- خلك طبيعي .. حياتك الروتين اليومي يعني .. مو تقعد لأن أنا موجود .. لا .. اطلع روح .. بحيث أن محد يشك فيك!! ليش ما يجي وليش ما طلع!

«ح.م» نهض إلى باب الشقة .. رأى «الجوتي» عند الباب فادخله وقال لـ«محمد»:

- لحد يشوف «الجوتي» برا..

وهكذا أمضى محمد تلك الليلة في شقة «ح.م» .. في اليوم التالي خرج محمد إلى السطح ينظر إلى واديان .. إلى شوارعها لكنه عندما دخل الغرفة نسي «الجوتي» عند الباب!

وشاء القدر أن يخرج أبو «ح.م» إلى السطح فرأى «الجوتي» .. فدفع باب الشقة ووقعت عيناه على المطلوب!!

شعر بالصدمة!! توقع محمد أن يقول له أبو «ح.م»: اطلع!

راح ينظر إليه لحظات دون أن ينبس ببنت شفه! ثم قال له:

- ها محمد! شحوالك؟!

- زين

- ويش هني مو خطر عليك؟!

أدرك محمد أن أبو «ح.م» يحضّر لطرده بعد يوم أو يومين! قال محمد يطمئنه:

- سويت خيرة على المكان .. المكان زين فيه أمان واستقرار .. الخيرة زينة!

هزّ رأسه وغادر المكان .. مرّت ثلاثون دقيقة .. عاد ليقول لمحمد:

- المحل خطر عليك شوف ليك مكان غيره!

شعر محمد بأن قلبه قد تحطّم فتماسك وقال بكبرياء وشموخ:

- أنا بطلع بعد شوي .. أنا مرتب إليّ مكان بس كنت أحارس واحد يجي!

انسحب محمد طوق إلى قاعدته وعاد من حيث أتى!!

ومرّ يومان ليبرق في ذهنه بيت أحد الأصحاب .. صحيح أنه معتقل يرزح خلف القضبان لكن «ح» ينظر إليه كما لو هو ابنه .. يعتبره ابنه الآخر .. محمد طوق كان واثقاً لذلك لم يفكر بالاتصال والحصول على «الضوء الأخضر»!

حزم أمره وحزم شنطته وقال لإبراهيم وقد غمر ظلام الليل جميع الأشياء ليحيطها بالأسرار:

- قوم وصلني!

- وين أوصلك؟!

- وصلني عند ها النقطة!

وحدد له مكاناً قريباً من بيت «ح» .. أوصله إلى مكان فيه «زرانيق» .. محمد يعرف خارطة الطريق جيداً في هذه المنطقة! يعرف الطريق إلى ذلك البيت الكريم!

وانسابت بهما السيارة كزورق إنقاذ يتجه نحو شاطئ الأمان .. وصلت السيارة إلى نقطة مجهولة ترجّل بالقرب من الأزقة الغارقة في الظلام؛ وأخذ طريقه إلى ذلك البيت .. بطرق الباب على أهل ذلك البيت .. وجد محمد القلوب مفتوحة قبل الأبواب!

بعد أيام اتصل محمد بـ«محمد رضي»:

- عندي شقة لين احتجتونه عطني خبر واطرش ليك المفتاح وأقول ليك الموقع في وينه يصير!
- مو مشكلة لين تقدر هالأيام برز ليي المفتاح .. لين قدرت تلاقيني عطني المفتاح وتوديني للشقة تدليني موقعها!
- إن شاء الله

بعد يومين رتب محمد «طلعة» ونسق مع محمد رضي وأخذه إلى موقع الشقة ليلاً .. لكن محمد رضي لم يأخذ المفتاح .. قال لمحمد:

- لين احتجتها راح أكلمك
- مو مشكلة

ومرّت أيام ثلاثة .. استيقظ محمد صباحاً على دوي انفجار هزّ «جزيرة سترة» .. كان بيت «ح» قريباً من مكان الانفجار..

استيقظ محمد والتساؤل الكبير يملأ كيانه:

- شنو صاير؟!

فتح تلفونه النقال وبعد دقائق شاهد تصريح للداخلية وبيان يتحدث حول عمل إرهابي وعملية تفجير في سترة أسفر عن مقتل شرطيين اثنين في حافلة .. وبدأت حملة مداهمات عشوائية..

تلقى محمد على «البلاك بيري» اتصالاً، فسأله محمد:

- سمعت التفجير؟!

- اي سمعته .. أكو أشوف الداخلية واستنفار!!

ثم أردف ممازحاً:

- أنـت أكيـد بتكون من المتهمين فـي هالقضية .. برّز روحك .. أكيد بيعدمونك!

كتب محمد إليه:

- شـنو السـاقط مـا يتجرأ يوقـع على حكم الإعدام عليـي .. هو أقل من هذي الجرأة..

بعد سـاعة على التفجير تغيّرت الأوضاع في سـترة بشـكل كلّي .. تم إغـلاق مداخـل سـترة .. كل المداخـل الرئيسـية والفرعيـة .. «محد يطلع ومحد يدش»!!

حضور غير مسبوق للأجهزة الأمنية والأدلّة الجنائية وخبراء المتفجرات و«الشغب» والإعلاميين والمراسلين من القنوات الأخبارية..

فتح التلفزيون .. كانت قناة البحرين تغطي الحادث بشـكل مباشـر!!

الطائرة تحوم فوق المنطقة .. في الساعة العاشرة وقد مرّت ساعة تقريباً .. تلقّى محمد طوق اتصالاً من محمد رضي:

- تقدر تطرش ليي المفتاح مال الشقة؟! تقدر تجيبه إليي؟!
- ما يصير أجيب ليك المفتاح في هذي الأوضاع الأمنية!! شلون أنا اطلع! الوضع مو آمن .. اصبر شوي من يهدأ الوضع إن شاء الله أنا أشوف ليك حل!

بقي محمد طوق يتابع التطورات .. فجأة وفي حدود الساعة الثانية ظهراً حصل انسحاب عام .. كل مرتزقة النظام أخلوا مكان الحادث .. غادروا الجزيرة! تم فتح جميع المداخل المغلقة!!

رأى محمد طوق أن «الوقت» قد أصبح مؤاتياً لكي يرسل «المفتاح» إلى محمد رضي لذلك اتصل به:

- بطرش ليك المفتاح .. بخلي شخص يجيبه .. بخليه في قبر الشهيد «علي فيصل» .. وأنت روح استلمه من هناك
- تمام!

بادر محمد إلى وضع المفتاح في علبة سجائر .. ثم فتح «الدريشة» في مقابل البيت «مكان لاسطوانات الغاز» .. افلت علبة السجائر باتجاه «الاسطوانات» ثم اتصل بأحد الشباب من غير المطلوبين:

- أنت في وين؟!
- أنا موجود في سترة!
- تعال هذا الموقع عند هالمكان .. فيه اسطوانتين غاز .. قوطي

مالبورو أحمر شيله ووده قبر الشهيد علي فيصل .. من توديه عطني خبر!

ومن خلال الدريشة كان يراقب «اصطوانات الغاز»!

جاء الشاب والتقط «علبة السجائر» ومضى .. هو لا يعرف ما في «القوطي»..

بعد حدود ساعة اتصل بـ«محمد رضي» وأخبره بوجود المفتاح عند قبر الشهيد في علبة سجائر!!

كان محمد طوق في غفلة عما تحيكه عناكب النظام الخليفي؛ كان هناك إنصات شامل على جميع المكالمات والاتصالات التي تجري في المنطقة!

التقطت أجهزة الأمن مكالمة «ق» مع بعض أصدقائه!

تحدث «ق» مع أحد أصدقائه:

- وين أنتون؟!
- موجودين
- أنا برجع البيت .. روحوا البيت بجيكم

«ق» لا علاقة له بكل ما يجري .. لا من قريب ولا من بعيد .. يعيش في عالمه الخاص .. في بيته «بسطة» يعني مكان خاص يلتقي فيه الأصدقاء..

طبعاً لم يكن محمد طوق على علم بما يجري .. لكنه عندما فتح

تلفونه النقال صدمه الخبر:

- اعتقال «ق»! رجال الأمن توجهوا إلى مكان عمله وقاموا باعتقاله!!

محمد طوق حمدالله أنهم لم يأتوا إلى البيت لاعتقاله!

قرر محمد طوق مغادرة بيت «ح» فوراً!! فقد احتمل أنهم سيقتادونه إلى البيت لسببٍ ما! وربما أن أجهزة الأمن قد علمت بوجوده في بيت «ح»!

وهو يحث الخطى بعيداً عن البيت اتصل بـ«علي كريمي»:

- علي! وينه أنت؟

- موجود عند مأتم مرزوق!

وعلى وجه السرعة اتجه إلى المكان!! «علي كريمي» أحد المطلوبين للنظام! ما إن التقاه حتى قال:

- ويش الموضوع؟!

- مادري ويش نسوي؟! شلون نتصرف في هذا الوضع؟!!

- المكان الي أنا فيه ما اقدر اروحه!! صار شبه مكشوف!

وضع محمد طوق في باله اعتراف «ق» وكشفه عن وجود محمد طوق في بيتهم!

قال محمد لصاحبه المطلوب أيضاً:

- ويش نسوي؟!

- الحين خلنه نكلم «محمد رضي»

اتصل محمد طوق بـ«محمد رضي»:

- عندك مكان؟ ترى أنا وعلي كريمي ما عندنا مكان .. احنه في الشارع! عندك مكان نروحه؟!

كان المشهد في جزيرة سترة ما يزال ضبابياً ولا أحد من الشباب يعلم ما الذي حصل بالضبط؛ «غبرة» المعركة ما تزال حتى هذه اللحظة لم تنجل!!

مرّت دقائق عندما اتصل محمد رضي:

- بجيكم واحد عند مأتم مرزوق يشيلكم .. وداكم الشقة؟!

محمد لم يكن يفكر في الشقة .. كان يسعى للحصول على بيت من أجل الدخول والخروج بيسر!

جاء شخص من قبل محمد رضي و«شال» محمد طوق وصاحبه «علي كريمي» وأخذهما إلى بيته في «مهزة»!

ما إن ركبا في السيارة والتي غادرت «واديان» توّاً حتى وصلت الأخبار حول وجود دفعة مداهمات استهدفت بعض النقاط في قرية «واديان» .. المرتزقة يداهمون أماكن بعض الشباب الذين اتصل بهم «ق» وطلب منهم الحضور في «البسطة»!

كانت الأجواء مشحونة بالخطر وكانت أجهزة الأمن قد اتبعت تكتيكاً جديداً .. فقد أوحى النظام للشباب المطلوبين أن عناصره الأمنية قد انسحبت وإن الوضع الآمن عاد من جديد .. بينما كانت طائرة مسيّرة

تحلق وترصد تحركات الشباب بل جميع التحركات المشبوهة؛ لذلك تعلم محمد طوق أن الوضع الآمن بعد الضربة الأمنية هو أشدّ خطورة من الضربة الأمنية..

رصدت الأجهزة الأمنية من خلال الطائرة المسيّرة دخول شخص إلى المقبرة في وقت الغروب، وهذا الشخص لم يمكث سوى لحظات! التقط شيئاً من الأرض وغادر!! كانت الطائرة المسيرّة تطارد خطواته إلى أن وصل إلى بيته! وبعد منتصف الليل وقريب من وقت الفجر دوهم البيت .. تلقّى محمد طوق وغيره برقيات حول مداهمة بيت «الشامي»، حدس محمد طوق أن يكون محمد رضي في ذلك البيت بحكم علاقته مع الشامي .. طبعاً أجهزة الأمن لم تكن تعلم بوجود محمد رضي في بيت الشامي وكانت تبحث عن محمد رضي منذ فترة؛ لأنه كان في طليعة المستهدفين .. وللأسف تم اصطياده هناك!

لذلك قرر محمد طوق مغادرة هذا «البيت» .. لقد أصبح مثل بيت العنكبوت!!

كان محمد طوق قد قام بإغلاق تلفونه كإجراء احتياطي .. محمد طوق تعلّم أن هذا الصديق الذي يرافق المرء في كل مكان ورفيقه في الحلّ والترحال .. ما هو إلّا مخبر وعميل للداخلية ينقل تقاريره باستمرار ويطلع مرتزقة النظام عن مكان المطلوبين!!

كان محمد طوق من خلال هذه الفترة العصيبة قد غيّر تلفونه تسع مرّات ولم يكن يقدم على بيع تلفوناته لأن في بيعه ثمة خطر في احتمال تمكن أجهزة الأمن من اختراقه..

كانـت توقعـات محمـد طـوق في محلهـا لأنه مـا إن ركب مـع رفيقه السيارة حتى تعرّض الموقع للمداهمة!! وتعرضت سبع مواقع عبارة عن بيـوت «كانـت آمنـة» .. كانت أجهزة الأمن متأكدة مـن وجود المطلوبين في تلك المنطقة!

كشّـف محمـد طـوق مـن حالـة اختفائـه بإغـلاق تلفونه .. وقـد مرّت سبعة أيام على «التفجير»..

في اليوم السابع استيقظ محمد صباحاً على خبر مداهمة بيت الشهيد علي فيصل .. فكر محمد طوق أن تكون المداهمة بسبب شكوك راودت أجهزة الأمن في لجوء محمد طوق إلى بيت الشهيد! بعدها دوهم بيت صـادق تقـي وكانت حالات الدهم تتكرر في أوقات مختلفة في منتصف الليل ثم يداهم البيت فجراً!!

عـرف محمـد طـوق أن الأجهـزة الأمنيـة قبضـت علـى «ع» ابن خال الشهيد علي فيصل؛ وهنا الصدمة الكبرى!

كان لـدى محمـد طـوق جهـاز «بـلاك بيري» جديـد لم يرتح لـه لذلك أعطـاه إلـى «ع»! وكان قد أضافه بعض الشـباب من قبيل محمد رضي .. بعدهـا حـذّره محمد طوق من اسـتخدامه لكن «ع» أصرّ على اسـتخدامه مع أن محمد طوق قال له:

- ممكن خطر عليك!

لذلك دوهم بيت الشهيد وعثروا على الجهاز ومن خلال «البن» قبضوا على «ع» فلديه جهاز محمد طوق!!

استمرت المداهمات وشعر محمد طوق بأن الدائرة حوله بدأت تضيق وتضيق!!

خامره إحساس بأن هذا اليوم سيكون آخر أيام المطاردة وأن «اللعبة» قد وصلت إلى نهايتها!!

شعر بأن الساعات القادمة هي الأخيرة في «لعبة» المطاردة!

الفصل السابع: وراء القضبان

تعصف به الحيرة! ماذا يفعل؟ ماذا بوسعه أن يفعل؟! كان محمد طوق يذرع الغرفة الصغيرة .. لا يقرّ له قرار .. وشعر أن جدران الغرفة تجثم على صدره..

قال علي كريمي:

- ويش فيك؟! تعال اقعد!

توقف محمد في منتصف الغرفة وكأنه يقف حائراً بين أربعة طرق!! قال لصديقه:

- عندي إحساس أن هذي الأربع والعشرين ساعة ما بتمر علينا بسلام!!

سكت لحظات ثم أردف:

- ممكن «ع» يعطيهم معلومات عني!

حلّت الساعة الثانية ظهراً .. ومحمد لا يزال تعصف به الهواجس ..

أفكار تأخذه هنا وأفكار تأخذه إلى هناك! يفكّر ويفكّر..

ناداه علي كريمي:

- قوم اتغدى!

لكن محمد طوق كان مستغرقاً في عالمه .. كيف يقطع الخيط الذي قد يوصل أجهزة الأمن إليه!! لا بد وأنهم عثروا على «رأس الخيط»..

أدرك محمد طوق أن الخطر موجود في تلفونه .. وهو غير مكتشف مئة بالمئة!

كرر علي كريمي نداءه:

- قوم اتغذى! محمد! ما تسمعني؟!

انتبه محمد طوق إلى وجود صديقه .. قال له وقد كست وجهه ملامح جادّة:

- يا صديقي! يا أخويي! لهني ونوقف
- شلون يعني؟!
- لهني وننفصل!! أنت تروح مكان وأنا اروح مكان
- ليش؟! خلنه ويه بعض!
- عندي إحساس أن يداهمون عليي!! فشخص واحد ينصاد .. يعتقل ولا اثنينه! أنت روح مكان وأنا اروح مكان! ما يصير نصير ويه بعض
- انزين

- أنت كلّم أي أحد من أنسابك .. من أصدقائك .. شوف ليك حلّ وأنا بتصرف!

- إن شاء الله

وفي الأثناء شغل محمد طوق تلفونه .. ركب فيه بطاقة جديدة .. كلّم «سيد مرتضى السندي»:

- سيدنا! السلام عليكم

وجاء الجواب:

- شخبارك؟! إن شاء الله زين

قال محمد طوق:

- الحمدلله بخير من الله! سيد! عندي إحساس إن أنا بيعتقلوني

- لا تتشائم بهاي الطريقة .. إن شاء الله .. الله الحافظ .. حاول تحافظ على روحك

- أبغيك تسوي ليي خيرة..

نوى محمد طوق الاستخارة في الانتقال إلى المكان الذي وضعه في باله!

- دقائق وأرد عليك

هكذا رد السندّي عليه..

بعد ثلاث دقائق أو أقل جاء جواب السيّد:

- الخيـرة ممتـازة فيها خير ليك .. فيها صلاح .. وحاول أنك تتسـارع في الرحيل إلى وجهتك!
- إن شاء الله سيدنا
- تحمل بروحك وحاول قد ما تقدر
- سـيد! لين طافت عليي أربع وعشـرين سـاعة .. بيحصلون صعوبة جـداً جداً فـي اعتقالي .. بس خلها اتعدّي هذي الأربع وعشـرين ساعة!!

بـادر محمـد طـوق كإجراء أمني إلـى إغلاق تلفونه! اسـتخرج البطاقة وقـام بكسـرها ورميهـا في البالوعة! .. لـفّ الجهاز بالألمنيـوم .. يبدو أن الأجهـزة الأمنيـة حصلت لديها نقطة أن محمـد طوق موجود في منطقة «سلماباد» .. لكن لم يتحدّد المكان بالضبط!

وفي الأثناء نجح علي كريمي في الحصول على مكان لهذا قال:

- أنا حصلت على مكان .. والحين بعد شوي يبجي ليي واحد هني!
- الله يحفظك!

ودّع علي كريمي صاحبه ومضى .. أما محمد طوق فقد بادر للاتصال بخالته:

- قومي وصليني

رفضت الخالة:

- ليش تبغى تطلع؟!! المكان زين

خالته لم تتصور حجم الضربة الأمنية..

محمد طوق لم يذكر أنه لجأ إلى بيت خالته وأنه قرر المغادرة لدواعي أمنية!!

وأخيراً وبعد إصرار من محمد وافقت الخالة .. ركبا السيارة .. لم يجلس محمد إلى جانب خالته .. واختار «الانبطاح» في المقعد الخلفي .. وصلت السيارة إلى «دوّار كرانة» .. شغّل تلفونه .. اتصل بـ«علي كريمي»:

- أنت بخير؟! وصلت مكانك؟ آمن أنت؟!
- اي أنا بخير .. أنا آمن
- تمام تحمل بروحك .. إن شاء الله بعد فترة أنا بكلمك!

كان لدى محمد طوق عدد من «البطاقات» وانترنت احتياط .. لذلك فتح جهاز النقال واستخرج البطاقة ورماها من خلال النافذة!

كانت أجهزة الأمن قد أصبح لديها علم أن محمد طوق في كرانة لكن أين بالضبط .. هذا ما تجهله!!

أوصلت الخالة ابن أختها إلى بيت خالته الأخرى..

لم يفكر محمد طوق بالمخبر الذي ما يزال يوصل تقاريره إلى أجهزة الأمن؛ أنه تلفونه الـ«جيبسي»!!

استحّم محمد طوق في الطابق العلوي .. واختار الجلوس في غرفة عبارة عن ملحق مزوّد ببابين: باب يفضي إلى داخل البيت؛ وباب يوصل إلى خارج البيت!

أجهـزة الأمـن كانـت تترقـب أن يقوم محمد طـوق بتشـغيل تلفونه! وفتح شبكة «الواي فاي» .. وبهذا ارتكب محمد طوق غلطة العمر .. لقد زوّد أجهزة الأمن بمعلومة دقيقة جداً عن المكان المتواجد فيه!

وحصلت المفاجأة وشعر محمد بالصدمة عندما تمت مداهمة الغرفة الجالس فيها .. انفتحت الباب بركلة قوية..

كانـوا أربعـة ملثميـن .. ثلاثـة دخلـوا الحجـرة والرابـع واقـف فـوق «الطوف»:

- محمد لا تقاوم!

أسـقط فـي يـد محمد ولـم تكن لديـه فرصـة الهـرب ولا المقاومة .. لذلك ردّ عليهم:

- ما راح أقاوم

صرخ الضابط قائلاً:

- افتر قابل الطوف! أرفع أياديك

رفع محمد طوق يديه واستدار إلى جهة الجدار!! تقدم أحدهم وراح يفتش محمد وقال له بعد التفتيش:

- افتر محمد!

استدار محمد وهو ما يزال رافعاً يديه؛ قبض عليه كما لو كان يحتضنه وقال له:

- وين أنت؟! احنه ندورك في السما طلعت لينه في الأرض؟!

ثم أردف:

- أنت ما قاومتنه .. فالحين ما أخليهم يضربونك..

ثـم مسـك على يديه ولواهـا إلى الخلف و«قفّـص» عليهما بالـ«كليب» وقام يدفعه إلى الأمام وحولهما أزلام النظام..

فوجئ محمد بالمشهد «الأمني» خارج البيت!!! كانت الدار محاصرة كقلعـة تقـاوم وظهر أن المنطقة كانت محاصرة من كل الجهات والطائرة المسيّرة ما تزال تحلق في فضاء المنطقة .. المرتزقة كانوا بالعشرات من أجهزة الأمن وقوات المرتزقة!

تراكـض المرتزقـة كالذئـاب تريـد تخطّف لحم الضحية في الشـارع .. لكن رجل «أمن الدولة» طلب منهم الابتعاد وكان يقول لهم:

- لا تضربونه .. ما قاوم! تباعدوا عنه لا تضربونه!

كان محمـد يمشـي مرفـوع الرأس يتصفـح الوجوه الملثمـة وكان رجل الأمن يصرخ به:

- نزّل رأسك! لا تطالع!

غير أن محمد ظلّ يركز بصره في عيونهم الزجاجية!

اقتادوه إلى سـيارة «نيسـان بترول» أمن الدولة .. نظر في وجه عنصر الأمـن الـذي كان واقفـاً عنـد الباب .. كانـت نظرته حادّة اسـتفزت عنصر الأمن الذي صرخ في وجه المعتقل الأسير:

- لا تطالعني! بهذي النظرة! لا تطالعني!

لكن محمد ظلّ ينظر إليه شزراً .. لاحظ عنصر الأمن وجود قلادة في جيد الأسير عبارة عن خيط .. أمسك بها وتفحصها .. كان مكتوب في القلادة: «يا علي مدد»! فقال وهو ينتزعها بعنف:

- خلّه ينفعك!

كان يقصد الإمام علي أمير المؤمنين! رمى القلادة في الشارع!!

في السيارة كان هناك ضابط يرتدي «غترة» حمراء ويضع على عينيه نظارات شمسية!

بادره الضابط قائلاً:

- ارفع رأسك!

رفع الأسير رأسه .. مسك على يده اليمنى وضغط على الإبهام وقال:

- هذي الي فجّرت بها! هذي بقصها بوديها إلى وزير الداخلية هدية! .. على اللي سوّيته .. على «عوّار الراس» .. الي خليتنه قاعدين ندورك ونلاحقك هالكم يوم مو نايمين .. نحارس اعتقالك..

ثم راح الضابط يقسم على تنفيذ تهديده في قطع الإبهام وإرساله هدية إلى وزير الداخلية!!

توقّع محمد أن الضابط سينفذ تهديداته لكثرة ما كان يقسم ويحلف!

قفصوا علي يديّ الأسير بال«سير كليب» و«صمدوا» عينيه .. اتصل الضابط على مسؤول أكبر منه:

- سلام! طويل العمر .. يا طويل العمر! الهدف الأول قبضنا عليه!

مبروك!

سكت عدة ثواني ليقول:

- نحن فداء للبحرين!!

انتهت المكالمة .. أدار رأسه إلى الأسير وغاظه أن يراه هادئاً ثابتاً لا تبدو عليه أية ملامح للقلق والاضطراب والخوف، قال له:

- تدري منهو الي ينتظر الاتصال؟!

- .....

- وزير الداخلية بقده قاعد ينتظر الاتصال!! بنراويك على الي سويته!!

أدرك محمد من خلال ما يقوله الضابط أنه المتهم الأول في حادثة التفجير في «سترة»..

محمد شعر بالهدوء يتسرّب إلى داخل نفسه وقد تبدد كل ما يعانيه من قلق خلال الساعات الأخيرة..

كان قلقاً لا يعرف متى وكيف سيقبض عليه؟! كيف ومتى سيتم اعتقاله .. كان يعاني من هواجس كثيرة وقد أصبح ذهنه مسرحاً لأفكار متضاربة كخيول مجنونة .. لكن ما إن اقتحم مرتزقة النظام غرفته وتم القبض عليه حتى هدأت تلك العواصف وعاد الهدوء إلى نفسه!!

لذلك كان هادئاً منذ اللحظات الأولى من اعتقاله وقبل أن يجلس في سيارة الضابط الأمني! الذي هدّده وبدأ التحقيق معه قبل أن تتحرك السيارة وتغادر المكان:

- عندك كلاشنكوف اثنين نبغيهم الحين قبل لا نوصل «التحقيقات» نروح نستلمهم!! وين حاط الكلاشنكوف؟

- ما عندي كلاشنكوف! من وين لي؟!

انهال عنصرا الأمن الجالسان على يمينه وشماله بالضرب على الأسير في منطقة حساسة أسفل البطن!!

وكانت للوجه حصة من قبضاتهم القاسية وعلى الصدر أيضاً..

اتصل الضابط على «مخبر» محلّي .. هكذا حدس محمد طوق من خلال المكالمة:

- شلون تقول عنده كلاشنكوف .. اكو يقول: ما عنده كلاشات

وجاء صوت المخبر يقول:

- أكيد عنده «ستورات» خاصّة به هو نفسه

- متأكد!!

- اي

التفت الضابط جهة الأسير وقال:

- ابغي «الستورات» الخاصّة بك! أنت تطلعها

كان الضابط يقصد «ستورات متفجرات»..

قال محمد طوق برباطة جأش:

- ما عندي ستورات!! من وين أطلع ليك ستور!! أنا في النهاية من

وين أطلع ليك..

- احنا نحتاج الأسلحة الي عندك! نحتاج العبوات الي عندك! نبغي الستور الخاص بك!

- أنا ما عندي ستورات!

استأنف الجلاوزة الضرب مدّة دقائق .. بعدها كفوا ورفعوا أرجلهم..

كانت أنفاسه مبهورة وقد تسارعت نبضات قلبه بعد دقائق وما تزال السيارة تسير باتجاه مجهول بالنسبة للأسير، قال الضابط:

- تعرف أن صديقك الأحمر موجود ويانه!

كان الضابط يقصد «علي كريمي»..

تعـرّض «الموكـب الأمنـي» إلـى هجمـات مـن شـباب المنطقـة كانـوا يستخدمون الحجارة في مهاجمة «الموكب الأمني» وكذلك «المولوتوف»؛ كان محمـد طـوق يرهف سـمعه إلى أصـوات ارتطام الحجارة بالسـيارات وتحطم زجاج نافذة السيارة..

توقفت سيارة الباص بعد تحطم زجاج إحدى نوافذها!

جـاء أحـد العناصـر الأمنيـة وفتح سـيارة البتـرول وصـرخ بوجه محمد طوق:

- شـفت ربعك الإرهابيين وش سـوو؟! هجموا كسروا الجامة وواحد انصاب جاي الإسعاف يشيله!

شعر محمد طوق بالفرحة وقال:

- الحمدلله إن شاء الله انصاب وإصابة خطيرة تكون!

انهالوا عليه بالضرب!

وفي الأثناء تلقى الضابط اتصالاً من جهات عليا، ردّ الضابط:

- إن شاء الله الحين نطرشه! عندنا احنه بنروح نداهم مكان بعد شوي!

تصوّر محمد أن كلام الضابط يدخل في باب الحرب النفسية لدفع محمد طوق إلى الانهيار عند بدء التحقيق!

أدرك محمد طوق أن اسمه كان هاجساً لأجهزة أمن النظام وأن البحث عنه بدأ منذ شهور وقد أصبح موضوعه مهماً لأنه كان خارج البحرين وعاد إلى البلد؛ كما أن وجوده في إيران أكسبه حساسية كبيرة! إلى جانب العثور على أسلحة وكان الشباب الذين اعتقلوا مؤخراً يتعرضون للتحقيق والتعذيب بحثاً عن محمد طوق!

كانت صفارات الإنذار تطلق عند كل دوار وتقاطع .. ما كانوا يريدون التوقف في أي مكان .. فالصيد الثمين وقع في أيديهم!!

وأخيراً توقفت السيارة في مكان ما .. فعرف محمد أنهم قد وصلوا .. تم إنزاله من السيارة وأوقفوه أمام جدار في ساحة..

بعد دقائق جاء أحدهم ليفتح «السير كليب» .. كان الدم قد تجمّد بعد نصف ساعة من الضغط الشديد حيث يشعر الأسير بأن كفّه سوق تُقطع!

غيّروا عصابة العين وجاؤوا بعصابة سميكة .. تصوّر محمد أنها

«برنص» مقصوص .. عندما شدّوه على عينيه بقوّة وقسوة..

بعـد خمـس دقائق جاء شـخصان .. شـعر محمـد أنهمـا يصوّبان إليه نظرات حاقدة! قال أحدهما:

- أنت مال سترة؟

- اي!

- يا هلا يا هلا بمال سترة!

غادرا وجاء شخص رفع «الصماد» وهو يقول له:

- نزل راسك

راح يدفعـه وقـد أوثـق يديـه من الـوراء .. كانت الدنيا ظلاماً .. كان يسوق أسيره إلى العيادة .. جاء الدكتور لأخذ عينات من الأظافر والشعر واللعاب والدم، سأله في البداية:

- شلونك؟

- الحمدلله

بعد أن أخذ العينات سأله:

- شسمك؟

- محمد إبراهيم ملا رضي آل طوق

رفع الدكتور رأسه يحدّق في وجهه وقال:

- أنت محمد طوق مال سترة

- اي

أخذ ينظر إليه بازدراء ويهز رأسه وقال:

- شيلوه

كان سؤال الدكتور عن اسمه جزء من الحرب النفسية وإلّا فإنه يعرف الشخص الذي سيقوم بفحصه! لقد تم إعلامه مسبقاً..

محمد طوق يحاول جاهداً اكتشاف هذا العالم الجديد .. عالم التحقيق .. كان يحدّث نفسه ويحثها على التماسك وعدم الانهيار .. ما يزال محمد طوق غريباً على هذا العالم .. كل شيء غامض بالنسبة إليه كما لو أنه يجد نفسه في جزيرة مجهولة! أو في غابة موحشة!

يبدو أن محمد طوق قد أدرك أنه سيبدأ حالة من الصراع .. إنهم يحاولون تحطيمه نفسياً وهو يحاول أن يحث نفسه على التماسك؛ لذلك قال في نفسه وكأنه يأمر كيانه:

- تمسّك بأهل البيت .. «تمسّك بأهل البيت بتطلع سالم»

المكان كئيب يضغط على النفس .. ما يزال واقفاً وجهه إلى جهة الجدار .. جاء ملثم يحمل «صنقل» وأقفال أربعة وبدلة عبارة عن سروال أسود وفانيلة مخططة بخطوط سوداء وزرقاء والتي توحي لمن يراها بأن هذا الشخص له تاريخ في الإجرام!! قال الملثم وهو يسلمه السروال والفانيلة المخططة:

- بدّل

- وين أيدّل؟

نهره قائلاً:

- بدّل هنيّ وين تبدّل بعد؟!

- إن شاء الله

ارتدى محمد الفانيلة المخططة والسروال؛ قال الملثم:

- افترا!

وضع الجلواز الملثم الصنقل في رجليه وقفل على ساقه اليمنى واليسرى وشعر بضغط الصنقل على العظام؛ ثم لفّه على اليدين .. قفل اليمين ثم قفل اليسار وشعر بوزن الإقفال؛ قال الجلواز الملثم:

- افترا!

استدار الشاب الأسير فقام الجلواز بوضع «الصماد» على عينيه وشدّه بطريقة مؤلمة .. قال الجلواز لإرهاب الأسير المعتقل:

- ويش مسوّي أنت؟!

- مو مسوّي شيء

- التحقيقات منقلب! الضباط كلهم هني! الضباط كلهم متعنين جايين وتقول: مو مسوي شيء؟!!

- مو مسوّي شيء!

تظاهر الجلواز بالتعاطف في حين كان يحاول إرعابه:

- الله يساعدك شنو بيصيدك!

قال ذلك واستدار ومضى وترك الأسير المثقّل بالقيود والأقفال واقفاً .. يتحدث إلى نفسه ويقول في أعماقه:

- إن شاء الله .. الله يكون في عوني!

في هذه اللحظات المصيرية تتجه النفس الإنسانية إلى القوّة المطلقة في هذا الوجود .. الله سبحانه الذي يمدّ عباده بالقوّة والثبات .. هذه أول ليلة في الأسير «محمد طوق» ذلك الشاب المؤمن بالله .. الشاب الذي تشرّب منذ نعومة أظفاره مأساة الطف وعاش أحزانها ولوعتها يقف أسيراً في مكان مجهول .. تتألق في ضميره «المأساة الخالدة» .. سوف يُقاد أسيراً مكبّلاً ليمثل أمام الطغاة .. يستذكر مأساة السبايا وفي الطليعة تسطع هالة نور لامرأة كانت جبلاً في الصبر! إنها زينب الحوراء .. زينب الكبرى .. التي وقفت أمام الطاغية ابن زياد وتخاطبه قائلاً:

- فاسع سعيك وكد كيدك فوالله لا تمحو ذكرنا!

وتخاطب يزيد الطاغية وهو داخل قصره:

- ولئن جرّت الدواهي عليّ يا يزيد مخاطبتك! إني لاستصغر قدرك!

هذه المرأة العظيمة التي كانت امتداداً لأمها الزهراء تقول للطاغية لمّا سألها: كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟

قالت:

- ما رأيت إلّا جميلاً .. هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم .. وسيجمع الله بينك وبينهم؛ فتحاجّ وتخاصم فانظر لمن الفلج يومئذ؛ ثكلتك أمك يا بن مرجانة!

تمتم محمد في نفسه قائلاً:

- كل ما يحصل فبعين الله!

استعاد في نفسه مشاهد تصوّرها يوم كان يصغي إلى القصة الكاملة لمقتل الإمام الحسين عليه السلام .. استذكر الإمام الشاب علي بن الحسين كيف اقتيد أسيراً مكبّلاً بالسلاسل والأغلال .. كيف وقف بوجه الطغاة يلقي خطابه التاريخي الخالد:

- أنا ابن مكة ومنى! أنا ابن زمزم والصفا .. أنا ابن فاطمة الزهراء .. أنا ابن محمد المصطفى وابن علي المرتضى!

تألقت في وجدانه مشاهد لسجين بغداد .. بغداد هارون الرشيد .. الإمام موسى الكاظم .. سنوات طويلة وهو في سجن تحت الأرض مثقل بالسلاسل والأغلال .. حتى عندما اغتاله الطغاة مسموماً ووضع جثمانه الطاهر فوق الجسر .. كان الجثمان ما يزال ينوء بالقيود!

قال محمد في نفسه:

- ائمتنا ما سلموا من جور الطغاة .. ونحن ندعو الله في كل يوم: اللهم أحينا حياة محمدٍ وآل محمد وأمتنا مات محمدٍ وآل محمد!

هكذا كان محمد طوق يشحن نفسه بالإباء والصمود أمام الطغاة .. قال في نفسه:

- لحظات و«أدش» ليهم .. ويش بيصير؟! بقتلوني؟! خل يقتلوني .. أهلاً وسهلاً بالشهادة!

اقتادوه إلى الصالة حيث احتشد الضباط الذئاب في الطريق .. قرأ في داخله سورة الحمد وأهدى ثوابها إلى السيدة أم البنين .. تلك المرأة التي قدمت إلى العالم «أبا الفضل العباس» كان اسمها «فاطمة»!

وصل إلى الباب .. فتحه ودفع الأسير إلى داخل الصالة .. تصوّر نفسه فريسة لهؤلاء الذئاب سوف يتخطّفون لحمه بأنيابهم!

فوجئ الأسير بالصراخ .. صراخ الضباط الوحوش:

- أنت محمد طوق؟!
- أنت الي فجرت؟!
- بنقتلك!!
- بنراويك!!

كانوا يهدفون إلى تشتيت أفكار الأسير ودفعه إلى الانهيار..

تحلّق الضباط حول الشاب الأسير ومن خلال الأصوات أدرك محمد طوق ذلك في الثواني الأولى من جولة «التحقيق» .. امتزج صراخ الذئاب مع قبضات قاسية وركلات عنيفة .. ثم فجأة يسود الصمت حتى أنه تصوّر المكان خالياً وقد غادرت الوحوش .. لذلك أرهف سمعه فإذا صوت صراخ يأتي من بعيد .. صوت مترع بالألم .. صوت يصدر عن إنسان يتعرض للتعذيب!

أحد الضباط قال للآخرين:

- أنا بروح وبجي لحد يتكلم وياه!

فتح الباب .. أصبح صراخ المعذّب يُسمع بوضوح؛ بعدها سمع محمد صوت إغلاق الباب .. يبدو أن الضابط قد عاد لأنه سأل الأسير:

- ها! سعمت الصراخ .. سمعت صوت التعذيب الي صاير؟!
- اي!
- أنت تبغي يصيدك نفس هذي الطريقة؟!
- على شنو يصيدني نفس هذي الطريقة؟! أنت ما سألتني عشان تعذبني! أنت اسألني ممكن ما نضطر نوصل إلى هذه الأمور!
- مو مشكلة .. الحين بسألك .. في تفجير سترة أنت في وين كنت وقت التفجير؟! وين كنت؟!
- أنا كنت نايم

وهنا يتعرض محمد طوق للهجوم من الذين على اليمين ومن الذين على اليسار!

وجاءته قبضات مشدودة من كل صوب والركلات إلى أن وقع أرضاً، لكنهم ينهضوه ويشبعونه ضرباً فيسقط أرضاً فينهالون عليه بالضرب وهو ممدد فوق أرضية الغرفة .. وكانوا يجمعون بين الضرب وبين السب:

- إرهابيين!! شيعة!! احنا بنأدبكم!

واستمرت جولة التعذيب إلى حدّ الانهيار؛ وفي هذه اللحظات يتوقف التعذيب ويخرج من الغرفة ثم يطلب منه الوقوف خارجها وعدم الجلوس بتاتاً!

بقي محمد طوق واقفاً لأكثر من ست ساعات .. إلى مطلع الفجر!

المكان كان بارداً وقد ساد صمت موحش فلا يسمع إلّا دوي المكيفات .. فجأة يسمع صوت خطى تقترب .. تحفز محمد لما يحدث .. ربما يتلقى صفعة مفاجئة أو رفسة .. ارتجف جسده من الإرهاق فتهاوى جالساً وهنا جاء من يجرّه بعنف:

- يلا قوم!

- ما اقدر!

- قوم! ما بنوقفك بنوديك المستشفى!

لم يصدق محمد طوق .. حتى عندما اركبوه سيارة نيسان بترول اتجهت السيارة بالمعتقل إلى مستشفى القلعة..

في العيادة طلب المسؤول فك قيوده .. لينقل إلى قسم خاص بالمعتقلين .. وجد محمد طوق معتقلين كثيرين .. كان بعضهم يتشوق إلى الحديث معه لكن التعليمات كانت تمنع منعاً باتاً الاقتراب منه .. كان المعتقلون في جهة ومحمد طوق في جهة أخرى..

عندما أجلس في المكان المخصص له كان ثلاثة من عناصر الأمن يراقبون حركاته، كلما رفع رأسه قالوا:

- نزل راسك لا تطالع أحد!

نادى الدكتور عليه .. وراح يجري فحوصاته .. قاس حرارته ثم قال لعناصر الأمن:

- هذا يحتاج إلى ترقيد في القلعة!

لكن المسؤول الأمني رفض قال:

- ترقيد ما يترقد!! هذا ما يترقد هني! هذا الحين ضربه «سيلان» وضربه «ابر» .. أي شيء عندك .. احنه نبغيه يوقف .. ترقيد ما يترقد! .. تصرّف

أجاب الدكتور:

- إن شاء الله

أمر الدكتور بحقن «السيلان» بعدد من الابر .. كانت قطرات المغذي تواكب حركة الثواني وقد ساد الصمت المكان .. تمنى محمد بعد أن انتهى «السيلان» أن يوافقوا على رقوده في المستشفى ولو لبضعة أيام حتى يسترد عافيته قليلاً قبل إعادته إلى تلك الغابة المليئة بالوحوش والذئاب..

ولكن ما حصل أنهم قاموا بإعادته إلى سيارة النيسان وعندما ركب ركّب المسؤول الأمني «الصنقل» في يديه وقدميه ثم شدّ عينيه بـ«الصماد» وأمره أن يخفض رأسه..

أعيد «محمد طوق» مطوّقاً إلى مبنى «التحقيقات» إلى أمن الدولة .. تم توقيفه في غرفة صغيرة مساحتها متر ونصف في متر ونصف متر مجهزة بـ«اي سي» .. قام عنصر الأمن بتشغيل الجهاز وطلب من المعتقل عدم الجلوس:

- ممنوع تقعد!

تحولت الزنزانة إلى مجمدة وكان هذا الأسلوب في التعذيب من

أقسى الأساليب في إرهاق الجسد البشري من أجل إزهاق الروح .. بقي محمد طوق واقفاً ساعات طويلة إلى حين انتصاف النهار .. عرف محمد طوق ذلك عندما أحضروا طعام «الغداء» وهكذا كان محمد طوق يعرف مواقيت الصلاة من خلال وجبات الطعام..

عندما كان يشعر بخلو المكان كان يجلس على الأرض وعندما يسمع أصداء الخطى كان ينهض..

بعد تناول الغداء جاء رجل الأمن ورفع عنه «الصماد» وسأله:

- شنو تبغي؟! تبغي شيء؟ ماي؟
- ابغي اروح الحمام
- حمام مافي

سكت محمد ورجل الأمن يضع على عينيه «الصماد» .. قال رجل الأمن:

- يلا تعال

قال ذلك وأمسكه من الفانيلة وقاده في ممر ليوقفه أمام الباب .. رفع عن عينيه «الصماد» وقال:

- دش هذا الحمام!

أغلق الباب وراءه وبعد لحظات فتح الباب وصرخ بالمعتقل الأسير:

- يلا اطلع

كان الشرطي الباكستاني المجنس يؤدي عمله الذي اعتاد عليه منذ

سنوات!

جاء الباكستاني وقال:

- يلا اوقف

ثم قتح الباب:

- يلا مش

اقتادوا محمد إلى خارج المبنى؛ رفعوا عنه «الصماد»:

- يلا نزل راسك!

كان رجل الأمن يمسك برأسه من الخلف ويسوقه إلى مبنى آخر .. وضع «الصماد» على عينيه قبل دخول المبنى الآخر .. كان الهدوء والصمت يسودان المكان، حتى ظن أنه لا يوجد في المكان أحد .. فجأة سمع صوتاً يسأله:

- ويش اسمك؟!

- محمد إبراهيم ملا رضي آل طوق

- ها أنت مال سترة

- اي

- الحين بجي الضابط وبيبتدي التحقيق وياك!

أدرك محمد أن الجولة السابقة لم تكن للتحقيق وإنما للتعذيب فقط ودفع المعتقل إلى الانهيار!

خامره إحساس بأنه ليس أسيراً .. هم الأسرى والجبناء .. تصوّر نفسه أسداً يتفجر غضباً ولذا فقد قيدوه بالسلاسل والأغلال .. إنهم مجرد فئران مذعورة .. ولولا أنه أسد لما قيدوه!

- من وين؟
- من سترة من واديان
- جم عمرك؟
- خمس وعشرين سنة!
- محمد! من البداية تعاون ويانه .. شوف بقول ليك .. اهني محد يفيدك .. احنه القانون! كل شيء مصرّح لينه نسويه .. كل شيء .. محد ليك أنت هني .. فتعاون .. لا تماطل لا تجذب
- إن شاء الله ما راح أجذب .. أنت ما سألتني علشان تقول لا تجذب
- أول سؤال
- شنو!
- تفجير سترة! أنت وينه كنت لحظة التفجير؟!
- كنت نايم

كانت القضية الأساس لديهم تفجير سترة! لم يسأله عن إيران ولماذا جاء من إيران!

- هذا جوابك!
- اي هذا جوابي!

وهنا انقضّ عليه الزبانية .. فوجئ محمد بهجوم أيدي كثيرة وأرجل .. كان يتلقى القبضات والركلات والشتائم في آن واحد:

- هذا الرافضي ابن المتعة!

- هدوله ما ينفع وياهم

ثم قال لجلاوزته:

- وقفوه!

شغّل الكهرباء قرّب إلى أذنيه .. شعر بأن الصعقة تضرب في قلبه لا في أذنه!!

- تتماشى ويانه أو نستخدم وياك هالأسلوب!!

قال الأسير المكبّل:

- أنتون سألتوني وأنا جاوبت!!

- بسألك سؤال محمد!

- قول!

- لحظة تفجير سترة وين كنت؟

- كنت نايم

وجاءت الصعقة الكهربائية فوراً بين فخذيه!! شعر بأن عينيه تقفزان من محجريهما لهول الصعقة؛ ترنح الأسير المكبّل ليسقط ويتهاوى على الأرض؛ تخطفته الذئاب المتوحشة ضرباً .. الضابط يستخدم أسلوب المكر، قال:

- أنا الي بينقذك!

ثم وجّه خطابه للجلاوزة:

- بس خلاص لا أحد يضربه! وقفوه!

قام أحد كلابهم بعد أن أوقفوه بعمل مخل للآداب؛ عضّ الأسير على شفتيه غضباً! قال الضابط:

- شفيك مو عاجبك؟!

قال الأسير بإباء وشمم:

- لا مو عاجبني

- ليش؟!

قال الأسير يذكر الضابط بكرامته الإنسانية:

- أنت رجال وأنا رجال .. شلون رجال مقابل رجال جدي؟!!

التفت الضابط إلى أحدهم قائلاً:

- قوموا وتباعدوا عنه!

نفذ الجلواز أمر الضابط .. قال الضابط لجلاوزته:

- لحد يسوي هذي الحركة؛ لا أحد يعيدها!

أدرك محمد طوق أنه على المرء أن يتخذ موقفه الحاسم في هكذا ظروف لأن السكوت في هكذا ظروف يشجع الجلادين على اقتراف ما هو أفظع وأبشع!!

نهض الضابط من كرسيه وراح يذرع المكان جيئة وذهاباً؛ أدرك محمد ذلك من أصداء خطواته .. اقترب من أسيره وقال:

- افتح ايدك!

تصوّر محمد أن الضابط سوف يضرب على يده لكنه فوجئ بيد الضابط في يده:

- شوف محمد! ترى أنا الزين هني! أنا الي ما أرضى أن يصيدك جدي! وما أبغيك تتعذب .. بس خذ وعط وياي في هذا الموضوع
- أنت سألتني وأنا جاوبتك
- محمد! هذا اللف والدوران ما نبغيه! نبغاك تعترف على قضية تفجير سترة
- أنا ما سويت تفجير سترة!
- شوف! أنا ما ابغي أشيل ايدي .. إن شلت ايدي عن ايدك يعني بنسحب عن القضية! فأنت لا تهد ايدي علشان أكون جنبك .. وأكون ما يعذبونك .. وأنا أوصلك لحبل المشنقة بيدي وأنت مستانس .. وأكون أنا الزين..

قال محمد يكرر ما قاله قبل دقيقة:

- أنت سألتني وأنا جاوبت
- مو مشكلة .. بنرد نسألك .. قبل ما تجاوب عطني دقايق بروح الحمام وبجي

أرهـف محمد سـمعه .. خطـوات الضابط تبتعد .. صـوت فتح الباب وإغلاقـه .. وفـي هـذه اللحظة هجم الجـلاوزة وتخطفوه ضربـاً على كل جزء في جسـمه من رأسـه إلى قدميه .. هوى الأسيرة على الأرض صريعاً .. وفي هذه اللحظات شعر محمد بأن قلبه يفلت من بين إضلاع القفص الصدري كعصفور تحرر من سجنه .. العصفور ينطلق في الفضاء اللانهائي .. في رحاب الله وجد محمد نفسه:

- يا الله! يا الله! خلصني منهم! طلعني منهم..

كان يتوسـل إلى الله بالرسـول ﷺ وبالسيدة فاطمة الزهراء .. ألم يقل سبحانه وتعالى: ﴿ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[1]..

- يا الله أتوسل إليك بالسيدة زينب الحوراء..

سمع محمد في الأثناء صوت انفتاح الباب ثم أغلاقه وصوت الضابط يخاطب الجلاوزة:

- ويش تسوون؟!

ثم صرخ بهم:

- تباعدوا عنه! قايل لكم لا أحد يلمسه..

محمد سـاورته شـكوك في أن تكون هذه لعبة الضابط .. ولعله كان يتظاهر بمغادرة الغرفة فيقوم بفتح الباب وإغلاقه!

الضابط ينكل بهم وهو يأمرهم بإنهاضه:

---

1. المائدة: 35

- ليش تسوون فيه جدي!

ثم خاطب الأسير المعذّب قائلاً:

- محمد! يعجبك دلين الي يسوون فيك؟! أنا ما ابغي هالأمور تصيدك .. فأنت اتعاطى ويايي
- اتعاطى وياك في شنو؟! أنت سألتني وأنا جاوبتك
- باختصار الموضوع .. انهي الموضوع .. شوف محمد! أنت متهم بتفجير سترة!! كل الأدلة الي عندنا وهم الاعترافات .. محمد رضي معترف عليك! صلاح معترف عليك .. تبغاهم .. اجيبهم قدامك يعترفون عليك .. إن أنت الي نفذت تفجير سترة..

أصر محمد على موقفه:

- مو أنا

وأصرّ الضابط:

- لا! لا تقول مو أنا! شوف خلنه نبتدي حلقة جديدة .. نفتح صفحة جديدة من البداية! أولاً بتتكلم كلام عادي بصدقك بس بتقسم ما بصدقك .. هني مافي شيء اسمه قسم .. لا تحلف!!

هنا .. في هذا المكان لا يجدي القسم بالله شيئاً .. لأنهم وبكل بساطة لا يؤمنون بوجود إله .. لهذا أخبره الضابط بكل وضوح بعدم جدوى أن يحلف أو يقسم بالله..

قال الضابط:

- لا تقسم بالله لأن أنت مو مصدق

- انزين!

- الشغلة الثانية! نايم؟! هذي الشغلة ما ابغيها! أنت سويت تفجير سترة يعني سويت تفجير سترة!! ما عندك خيار ثاني .. احنه نعرف أن أنت الي فجرت والاعترافات والأدلة كلها تثبت إن أنت الي فجرت!!! احنه نبغي شلون فجرت .. شلون استلمت .. احنه نريد السالفة من البداية..

استغرب محمد من معاملة الضابط!! في هذا المكان المطلوب من المعتقل أن يقول الأكاذيب! هؤلاء لا يريدون الحقيقة! يريدون منه أن يقول الأكاذيب وعقوبتها الإعدام..

سأل الضابط بهدوء مفتعل:

- أنت لحظة التفجير وين كنت؟!

- كنت نايم!

فجأة راح الضابط يصرخ:

- لا تجذّب! ما ابغي أمد ايدي عليك!! تخلينه تجبرنه إن احنه نمد ايدنه عليك! لا تخليني اضطر إن امد ايدي على واحد بحريني .. شوف عورت رأسي!! أنا بروح اشرب حبوب «بندول» وبجي..

قال ذلك بعصبية!

محمد كان يشك بالضابط!! هل حقيقة يخرج ثم يعود!

محمد يسمع صوت فتح الباب وإغلاقه بشدّة .. ومع «صكّة» الباب انهال عليه الذئاب يتخطفون جسمه كعصفور وسط مخالب قطط متوحشة!!

كانوا يضربونه بقسوة ومع الضرب يكيلون الإهانات .. يسبّون مقدساته ويصرخون: يا إرهابي احنه بنقتلك!! ما بنخليك!!

قال أحدهم:

- تعرف فلان؟

ذكر له اسم شهيد من منطقة الدير..

- تعرفه؟! احنه الي قاتلينه هني وفلتناه في البحر وبعدين طلع أن هو منتحر!! أنت مصيرك جدي..

استمر التعذيب أكثر من ساعة .. وأثناء ذلك قال أحدهم:

- بتجذب؟!

ومحمد يصر:

- أنا ما بجذب..

وصل محمد إلى حافة الانهيار، قال أحدهم:

- الحين بجي الضابط ولا تجذب عليه!!

وهنا يدخل الضابط قائلاً:

- جيبوا له ماي! جيبوا له ماي!

أحضر أحدهم الماء وراح يسقي محمد الذي كان يتنفس بصعوبة بالغة .. قرر محمد أن يكذب .. لم يعد يحتمل العذاب، سأله الضابط:

- محمد!
- نعم
- لحظة تفجير سترة وين كنت؟
- موقع التفجير
- اي خلك جدي ويانه
- إن شاء الله مدام أنتون تبغوني إن أنا اجذب مو مشكلة
- حلو .. شنو دورك في التفجير؟

سكت محمد لأنه لا يعرف ماذا سيقول أو ماذا يرغبون في أن يقول!!

- شنو موقعك في التفجير؟!
- !!!!
- محمد!
- نعم
- شوف! في اعتراف عليك من محمد رضي وصلاح إن أنت الي منفذ التفجير .. وأنت الي زارع .. وأنت ضربت الريموت..

كان الضابط في الحقيقة يشرح له ويلقنه الاعتراف! ويوضح له «السيناريو»!!

قال محمد:

- اي نعم! أنا نفذت وأنا الي زرعت!!

تصوّر محمد بعد هذا السيناريو أن التحقيق سينتهي .. لكن ما حصل أن الضابط يريد التفاصيل كل التفاصيل، قال الضابط:

- تمام! الحين نبغي شلون من البداية فكرتون في التفجير؟ شلون كلمتون؟! من عند منهو استلمتون العبوة؟ وين استلمتونها؟ في وين وديتونها قبل التفجير؟ أنت وين في وين؟ شلون كلمت محمد رضي؟ شلون رحت ليه؟ وين قعدتون؟ وين انتقلتون؟ بشنو انتقلتون؟ منهو الي كان يتمشى قدام .. أنت لو محمد رضي؟ العبوة كانت عنده لو عندك؟

شعر محمد بالصدمة وشعر برغبة في أن يضحك لكنه كان ينوء بنفسه كيف سيرتب كل هذه الأكاذيب المضحكة لذلك قال:

- مو مشكلة

وراح يجيب عن تلك الأسئلة، سأل الضابط:

- منو نفذ؟

- أنا نفذت

- منهو وياك؟ محمد رضي؟

- نعم وياي محمد رضي

- اسمع!

- نعم اسمع
- اسمع! هذي الأقوال وبعدين نبتدي بالسؤال .. في اعتراف عليك إن أنتون خططتون من البداية إلى هجوم على الباص .. «ليث» قعد وياك أنت ومحمد رضي وعطاكم سيناريو إن انكم تهجمون على الباص بملتوفات؟!
- اي
- بعد ما اخذتون الفكرة من عند ليث .. أنت تكلمت ويه محمد رضي وصلاح أنكم تطورون العمل .. تزرعون عبوة إلى الباص وتفجرونه .. تسببون خساير أكبر .. تقتلون من الشرطة؟!
- اي!
- أنت كلمت .. سألوا منهو بجيب العبوة؟ قلت أنت بتتكفل بموضوع العبوة .. كلمت علي العنصرة أن يجهز ليك عبوة تلفزيونية حق أنكم تضربون الباص وهم عطيته شغلة ثانية إن هو يسوي خيرة على العملية؟!
- اي
- بعد ما سلمكم العبوة أنت ومحمد رضي رحتون شلتون العبوة اثنينكم وخشيتونها إلى أربعة أيام .. بعد هاي الأربعة أيام أنت ومحمد رضي رحتون زرعتون العبوة وفجرتون .. أنت زرعتها وفجرت؟ صح هذا الكلام؟!
- صح هذا الكلام!

- لهني وخلصنه بس .. روح الحين بننقلك احنه تروح ترتاح وتجي يوم ثاني

- مو مشكلة

جاء أحدهم واقتاد محمد إلى خارج المبنى ورفع «الصماد» عن عينيه .. كان الظلام حالكاً و«الدنيا ليل» قال له الشخص:

- نزل رأسك

ثم اقتاده إلى مبنى «التحقيقات» .. عرف محمد أن هذا المبنى هو «جهاز أمن الدولة» وذاك مبنى التحقيقات .. ادخله إلى مبنى التحقيقات وقبل أن يدخله أعاد «الصماد» على عينيه..

فجر الليلة الثالثة على وشك الانفلاق .. مرّت على محمد ثلاث ليالٍ وما يزال خائفاً يترقب .. لا يستطيع النوم..

جسده يكاد يكون خاوياً ويشعر بالإرهاق الشديد .. أذناه هما الشيء الوحيد الذي بقي يعمل بحيوية .. كانت أذناه مفتوحتين يرهف السمع إلى كل حركة .. يسمع صراخ المعذبين..

طلع الفجر .. أشرقت شمس الصباح .. عرف محمد ذلك من وجبة «الريوق»..

حان وقت الغداء .. احضروا له الغداء .. بعد الغداء جاء ذلك الشخص وأخرجه من الغرفة الضيقة وأدخلوه غرفة التحقيق .. وجهوا له سؤالاً واحداً:

- محمد أنت مال سترة؟

- اي

ما إن قال بالإيجاب حتى هجموا وراحوا يضربونه بقسوة واستمر الضرب ساعة .. قال أحدهم بفظاظة:

- شيلوه!

يبدو أن مراسم الاستقبال هكذا! حل المساء وهو جالس في غرفته الضيقة .. جاء شرطي باكستاني فتح الباب وقال:

- إرهابي! ها إرهابي قوم تحقيق!

اخرجوه إلى ساحة المبنى الآخر!

اختلفت المعاملة قليلاً عندما دخل محمد قال له الضابط:

- شلونك؟

- الحمدلله

- تغديت؟

- اي نعم

- ما تبغي أجيب لك غدى هني؟ لأن ورانه قعدة طويلة!

- لا متغدي

- يلا محمد نبتدي سين جيم

- محمد! تفجير سترة! نبتدي من البداية! من أول فكرة عطاكم وياها؟

كان محمد قد حفظ السيناريو جيداً .. حفظ كل الأكاذيب التي نسجت حول تفجير سترة لذلك قال:

- ليث قعد ويانه وعطانه فكرة إن نفذ هجوم على الباص .. هجوم ملتوف .. جيم!
- اي نعم
- بعدين أنا طورت الفكرة إلى عبوة
- حلوة .. السؤال الثاني؛ سين: محمد رضي ليه ايد في هذه الفكرة؟! جيم!
- اي نعم .. أيدني
- سين! كلمت من عشان تستلم العبوة. عشان يجهزها لك؟ جيم!
- كلمت علي العنصرة أن يبرز ليي عبوة تلفزيونية وعطيته مهمة ثانية إن بعد العبوة يسوي خيرة!!
- هل عطيت سيناريو العملية إلى علي العنصرة؟! شلون يعطيك عبوة من غير ما يعرفك؟!
- اي نعم .. عطيته سيناريو العملية ووافق فهو جهز لي العبوة..
- متى سلّمكم وياها؟
- سلّمني وياها قبل أربعة أيام من العملية
- في وين سلّمكم؟ وشلون كلّمك؟
- بعد الساعة 12 ليلاً..

بدأ محمد يضيف من عندياته لتغطية سيناريو الأكاذيب..

- وين سلّمكم. والساعة كم؟
- سلمنا في مقبرة واديان الساعة 12 ليلاً
- منهو راح ليها؟
- أنا ومحمد رضي
- شلون؟
- مشي طلعت من المكان الي أنا فيه ورحت إلى محمد رضي ورحنا شلنا العبوة
- وين وديتونها؟
- فيه خرابة .. في بيت خرابة كنت أعرفه .. خليناها فيه
- انزين شغلة المراقبة

فوجئ محمد بالسؤال!! لم يضع في باله أنه سيسأل عن موضوع المراقبة!! لذا قال:

- المراقبة مادري بها .. المراقبة صوب محمد رضي .. مو صوبي
- صح .. صح كلامك .. من صوبه مو من صوبك أنت!!

قال محمد في نفسه: الحمدلله!!

- بعد المراقبة وبعد المطالعة؟!
- بعد المراقبة وبعد المطالعة علي العنصرة كلمني قال ليي الخيرة

زينة!

- عند من سويتون الخيرة؟!
- في سيد يسمونه السيد الأصفهاني
- أنتون الشيعة شلون تسوون الخيرة؟!
- شيخ معمم أو سيد معمم .. يفتح القرآن والآية الي تطلع ليه يبني عليها
- أها يعني نفسنا بس احنه نصلي ونستخير في الصلاة .. نرجع إلى الموضوع .. بعد ما استلمتونها بعد المطالعة؟
- بعد المطالعة وبعد الخيرة قررنا تنفيذ العملية
- حلو! ليلة التنفيذ الساعة كم رحتون زرعتون العبوة؟

أجرى محمد محاسبات زمنية سريعة .. التفجير حصل في الساعة السادسة والنصف صباحاً، لذلك قال:

- الساعة أربعة الفجر! طلعت مرّيت على محمد رضي وشلنه العبوة أنا ومحمد رضي بركناها عند البيوت المحاورة إلى المدرسة .. نزلنا محمد رضي انتهت مهمته!
- أنت الي نفذت!
- من نزلنا قلت لمحمد رضي أنت روح قدام طالع الشارع في أحد؟ تقجم عني 200 متر طالع مافي أحد! شلت العبوة .. هناك الرصيف طابوق أحمر .. شلت الطابوق وشلت العبوة بعد رديت

ركبت الطابوق!

- شلته بشنو؟

- بإيدي

- بإيدك؟!!

- اي بإيـدي .. بعـد مـا زرعناهـا انسـحبت وانسـحب ويايي محمد رضـي .. رجعنـا قعدنـا في الديرة في السـيارة إلى السـاعة خمس ونـص تحركنـا إلـى موقـع التفجيـر .. رحت ورا مستشـفى سـترة .. وقفت في زاوية اطالع الباص

- انزين .. أنت وش درّاك أن الباص جاي؟

- المراقبة

- اي مو عندك!!

- اي محمد رضي ويايي

- ها!

- هـو مطـرش أحد يراقـب مادري منهـو! فقال ليي محمـد رضي أكو الباص طلع من مركز سـترة اسـتعد! فأنا اسـتعديت وصل الباص .. اتصل..

- يعني العبوة رابطينها بجهاز شنو؟!

- تلفون شابكين فيها وتلفون الثاني عندي

- انزين .. نسكر هذا الموضوع

- تمام
- خل نتكلم في شلون رحت إيران
- بطراد رحت إيران .. بطراد على البحر
- اي ادري .. طلعت بطراد .. شلون طلعت؟! الطريقة منهو رتب لك؟
- رتب ليي سيد مرتضى السندي!
- شلون أنت وصلت لسيد مرتضى السندي! يعني شلون وصلت لسيد مرتضى وليش فكرت أنت تهرب من البحرين؟!
- صارت عليي قضايا كبيرة .. صار ضغط من عندكم .. فاضطريت أن أنا اطلع برا البحرين
- شلون وصلت لسيد مرتضى؟ عندك علاقة به من قبل؟
- لا .. سيد مرتضى ما عندي علاقة فيه .. عندي علاقة بـ«ج» .. كلمت «ج» إن أنا ابغي اطلع برا البحرين .. شوف ليي أحد يطلعني!
- انزين بعد كم يوم جه ليك؟
- بعد ثلاثة أيام تقريباً جه وقال ليي: أنا حصلت ليك طلعة .. بس ما بخليك تضيفهم، قلت ليه: إن شاء الله .. بعد يومين من هذا الكلام جه وعطاني مادري منهو كان .. ما اعرف منهو هذا الشخص .. ضفته وقلت ليه: أنا من طرف «ج»..

- انزين استمر!
- ليلة الطلعة كلمني هذا الشخص..
- منهو هذا الشخص؟
- اسمه جعفر يحيى، قال: أنا جعفر يحيى .. هذا من منطقتنا عرفته قلت ليه هلا أبو يحيى قال لي: في شخص بجي الحين هذا يكون وياكم .. شخص مريض..
- انزين بعدين ويش صار؟
- جه الشخص..
- منهو هذا الشخص؟
- صادق الحايكي .. موجود في إيران الحين
- انزين وبعدين؟
- المغرب جعفركلمني قال ليي: روح عند مقبرة واديان بتجي ليكم سيارة بتشيلكم .. جت سيارة وشالتنا ودتنا إلى بيت .. ما أعرف هذا البيت .. ما خلونه نعرف هذا البيت نزلوا رأسنه وأخذوا تلفوناتنا وانقطعنا عن التواصل..
- منهو هناك؟
- ح.ط ومهدي السندي وعلي بداح و...
- منهو يدير العملية هذي؟
- ح.ط

- منهو الدريول في الطراد؟

قدحت في ذهنه أن يذكر اسماً في إيران حتى يبقى سائق الطراد في أمان لذلك قال محمد:

- فلان!

- هذا وينه فلان؟

- هذا في إيران!

- وصّلكم ورجع؟

- لا وصّلنا وقعد .. بعدين ندش في هذا الموضوع!

- انزين وفي إيران .. شلون تدربت عسكرياً؟ شلون رحت العراق وتدربت؟

- أنا ما تدربت عسكرياً!!

أطلق الضابط قهقته عالياً:

- لا .. الي موجودين في الخارج كلهم تدربوا عسكرياً .. وأنت متدرب عسكرياً .. احنه ماشين وش حلاوتنا فلا تقول أنك ما تدربت!!

أجاب محمد متماهياً مع أسلوبه:

- مو مشكلة .. تدربت .. أنت تبغي تدربت؟! خلاص تدربت!

أدرك محمد خلال تلك الأيام الأربعة أنهم يريدون منه إجابات تلائم تصوراتهم .. لا يريدون معارضة .. هم يتصورون أنه تدرّب .. لا بد وأنه

فعـل ذلـك .. لا يهم أين تدرب فـي العراق! في إيران! المهم أن يعترف أنه تدرب لذلك قال:

- في العراق تدربت
- على شنو تدربت؟
- تدربت على سلاح الكلاشنكوف والفرد
- جم صار ليك تدربت؟
- 15 يوم
- شلون كان التدريب؟
- 3 أيام نظري والباقي عملي

اسـتمر التحقيق أكثر من سـت سـاعات .. سـألوه عن عودته ورجوعه إلى البحرين:

- محمـد! شـلون رجعـت للبحريـن؟ فـي اعتـراف أن «د» هـو الـي مرجعك البحرين؟!
- اي نعم «د» هو الي دخلني البحرين..
- شلون دخلك؟!
- دخلت عبر السعودية .. قصيت تذكرة من إيران إلى الكويت ومن الكويـت دشـيت مـن البر إلـى السـعودية وطلعت من السـعودية تهريب إلى البحرين

سـأله الضابـط عن الشـباب فـي إيران و.. .. اسـتمر السـين جيم حتى

مطلع الفجر .. قال الضابط وهو ينظر في ساعته:

- الحين بنوديك هناك ترتاح .. وجيّتي أنا بكرة بستدعيك

- مو مشكلة

أعـاده إلـى نفس المكان وطلبوا منه الوقوف، قال محمد وهو ما يزال معصوب العينين!

- قعدوني في الممر .. الجو بارد جداً في الغرفة!!

- ممنوع أنت لازم تدخل الغرفة

قال الشرطي الباكستاني:

- أنا ببنده .. بس ما تنادينه تقول شغله .. الجو صيف!

- تبنده أهون من يكون الجو بارد .. بند الايسي ما أبغيه..

أدخله الشرطي في الغرفة:

- ممنوع تقعد!!

عندمـا شـعر محمد بخلـو المكان وقد سـاد الصمت .. جلـس متهالكاً يريد أن يسرق غفوة ولو لدقائق..

كان يغفـو قليـلاً ويهـب مـن رقدته خائفـاً يترقب .. انتصـف النهار .. عرف ذلك من إحضارهم وجبة الغداء .. تناول غداءه .. وتكرر المشـهد .. جاؤوا وأخذوه إلى غرفة التحقيق .. صرخ الشرطي الباكستاني بقسوة:

- يلا قوم يالإرهابي يالقاتل! يالمجرم! قوم!

فكر أنهم سيأخذوه إلى «أمن الدولة» للتحقيق! لكنهم اقتادوه إلى نفس المكتب الذي أخذوه إليه في اليوم الأول!

سأله المحقق:

- أنت توالي البحرين أو العراق وإيران؟!

- أنا بحريني!

فوجئ بالضرب والسباب ينهال عليه:

- أنتون ولائكم مو إلى البحرين! أنتون خونة! أنتون ولائكم إلى إيران!

عرف من خلال لهجاتهم أن هؤلاء ليسوا من البحرين .. كانوا باكستانيين ويمنيين..

«نفيت واستوطن الأغراب في وطني .. ودمّروا كل اشيائي الحبيبات»!

أصعب ما يواجه الإنسان في بلاده أن من يقوم بتعذيبه بشتمه بإهانته غرباء .. في كل شيء!!

وهوى على الأرض صريعاً .. جرّوه وأوقفوه وأعادوه إلى الغرفة ثم عاد إليه الشرطي مرّة أخرى!

- يلا قوم

اقتاده إلى خارج المبنى .. فكر محمد أنهم سيأخذونه إلى «أمن الدولة» ..

في المكتب لم يجد الضابط الذي حقق معه بالأمس .. وجد شخصاً

آخر استقبله!

- شلونك محمد؟

- الحمدلله بخير!

بدأ التحقيق معه حول التفجير في سترة، سأله عن هروبه إلى إيران ومتى عاد إلى البلاد .. وأخيراً قال:

- الحين بجي الضابط عشان يبتدي التحقيق!!

ابتسم محمد في داخله ساخراً .. إذن التحقيق لم يبدأ بعد! كان هذا الشخص فضولياً جداً أو أنه يطمح إلى أن يكون محققاً في أمن الدولة!!

انفتح الباب وجاء الضابط ليبادر محمد قائلاً:

- شلونك أبو إبراهيم؟

كان هذا الضابط هو أول شخص يخاطب محمد طوق بهذه الكنية!! محمد طوق كان معروفاً بكنيته «أبو جاسم»! لم يخف محمد طوق ارتياحه لهذه الكنية .. لهذا أجاب قائلاً:

- الحمدلله!

- عرفتني؟

- اي عرفتك

قال متعجباً:

- شلون عرفتني؟

- من صوتك .. أنت الي تحقق ويايي

شعر محمد طوق بحدوث تغيير في معاملته؛ وعرف محمد طوق فيما بعد أن كل شخص يعترف تتغير طريقة معاملته 180 درجة!

يبدأ الحديث معه بأنه نحن مجبرون على أداء وظيفتنا..

- «أنت سويت قضية واحنا واجبنا نسوي جدي .. نحقق وياك وتصير بعض الأساليب»!

سأله الضابط:

- تغديت؟

- اي تغديت

في هذه المرّة احضروا له كرسياً يجلس عليه أثناء التحقيق!

- جيبوا ليه كرسي خله يقعد!

يحاول محمد طوق فك رموز هذه المعاملة الجديدة! .. وعلى مدى عشرة أيام كانت معظم جلسات التحقيق عبارة عن معلومات وصور حوله .. تفاصيل كثيرة عن تغيير في قصة شعره .. بدلته وثيابه .. نشاطه .. «نعرف حتى عدد أنفاسك!!»

- كان باستطاعتنا نجي نعتقلك بس كنا مخلينك فترة .. بس من وصلت الأمور لتفجير سترة جت أوامر أن احنا نعتقلك!

أدرك محمد طوق أن الضابط يريد أن يوحي إليه أنه يعرف كل شيء .. كل ذلك من أجل استلال كل المعلومات .. كان الضابط يسرد له بعض

المعلومات البدائية .. ثم يقول له:

- كمّل محمد! كمّل البقية

سـأله عن الشـباب في إيـران فرداً فرداً .. أطلعه علـى صورهم .. كان الضابط يحوّل التحقيق إلى دردشة أحياناً يحاول كسب ثقته ويوحي إليه أنـه يريـد مصلحته ولا يريد أن «يصيدك جدي» .. وفي الحقيقة كان هذا الأسلوب الناعم نعومة جلد الأفعى يحاول اقتياده إلى حبل المشنقة!!

يقف الضابط خلفه يرفع «الصماد» عن عينيه يريه صور بعض الشباب الموجودين في إيران:

- لا ترفع راسك أنا براويك صورة وأنت تقول تعرفه أو ما تعرفه

وضع أول صورة .. كانت صورة سيد مرتضى السندي

- تعرفه؟!

- اي اعرفه

- حلو..

راح يسـأل عـن سـيد مرتضى .. عـن تحركاته .. عن حياتـه اليومية .. متى يطلع من بيته .. «شنو سيارته» .. سأله عن «قعداته مع الشباب» .. يعطيكم رواتب! .. الرواتب مشـروطة بالعمل .. إقاماتكم شلون يسويها .. سألوه حتى عن قضايا نفسية!!

أراه صور عديدة .. صور شباب يعرفهم جيداً لكنه أنكر معرفتهم تماماً أو أنه يعرفهم عن بعد!

- هذه صورة صديقك المقرّب .. أحمد يوسف
- اي هذا صديقي المقرّب
- هذا خبير المتفجرات! هذا نبغي معلومات عنه
- شنو المعلومات الي تبغيها
- مثلاً احنه نعرف أن هو صديقك .. نعرف أن تنامون في غرفة واحدة .. كنتون اثنينكم ما تحطون خيط في إبرة إلّا ويه بعض!! اثنينكم رحتون اشتريتون ليكم مواتر سيكل!! تعرف حياته اليومية! نريد نعرف عمله هني في المقاومة .. علاقاته؟
- هذي أنا ما اعرفها
- أبو إبراهيم! لا تجذب!
- لا مادري! حتى لو هو يعمل أكيد العمل بكون سرّي .. فما يقدر يجي يقول ليي .. ما بيعمل قدامي
- انزين .. كم جهاز موبايل عنده؟!
- أنا اشوف عنده جهاز واحد

أراه صور عديدة تتعلق بأشخاص يعيشون في إيران .. فكان محمد طوق يعطيه إجابات عامة:

- ما اعرفه! اعرفه بس ما عندي علاقة فيه!
- انزينّ تعرف واحد يسمّونه «بنقل»؟!
- لا ما اعرفه!

ثار غضب الضابط وصرخ بعصبية:

- ما تعرف بنقل؟!!

- لا!

ضرب الطاولة بعنف:

- لا تجذّب تعرفه! قسم بالله بقوم ارقع رأسك بالطوف

- ليش ترقع رأسي بالطوف؟! قاعد اجاوب!

- برقع رأسي أنا بالطوف! مو أنت أبو إبراهيم! لا تجذّب! أنت تعرفه أبو إبراهيم! نزّل رأسك

نزل محمد رأسه؛ فأراه الضابط صورة في جهازه النقال! ما إن وقعت عيناه على الصورة .. كان معه في الصورة حسين آدم .. صورة تجمعه مع حسين آدم في حرم الإمام الحسين

- اي اعرفه هذا حسين آدم!

- هذا بنقل!

- أنا ما اعرف أن هذا بنقل .. أنا اعرفه حسين آدم

أراه صورة أخرى كانت صورة رضا الغسرة .. قال محمد طوق:

- اعتقد أن هذا رضا الغسرة!

- لا هذا مو رضا الغسرة! هذا ولد عم رضا بس يشبهه! تعرف رضا الغسرة؟!

- جذاب لين أقول ليك ما أعرفه .. رضا معروف في البحرين!
- من وين تعرفه؟
- من الأحداث الي صارت!
- من وين ومتى سمعت اسم رضا؟
- من أول كمين ليه ويه عقيل
- اها .. ما عندك علاقة ويه رضا؟
- لا!
- هذا مو رضا الي راوياك وياه .. ولد عمه!!

وراح يسأله عن آخرين؛ إلى وقت متأخر من الليل، بعدها قال:

- أبـو إبراهيـم! الحيـن بنوديـك ترتـاح .. تروح تنام بكـرة لين جيت الدوام بستدعيك..

سكت محمد وكان سكوته يعبّر عن شيء .. فقال الضابط:

- تبغى شيء أبو إبراهيم؟!
- خلني قاعد هني!
- شنو اقعد هني!
- ابغي اقعد هني! ما ابغى اروح هناك!
- أنت تعرف في وين؟!
- اعتقد أن أمن الدولة

- اي صح!! في أمن الدولة .. تعرف أنت ثاني واحد قال يبغي يقعد هني!! أنت ورضوو الغسرة!! شفيكم مجانين!! هني أمن الدولة!! يبه شفيك!!

- ....

- شله ما تبغي تروح هناك؟!

- أنت كل هذه الليالي الي طافت تقول: الحين بوديك ترتاح وبكره بجي وبستدعيك .. أنت تودیني عشان ارتاح!! لكن ما ارتاح

- شلون؟!

- هناك يعذبوني! يودوني في غرف يحققون ويايي ويضربوني!

- من يحقق وياك؟!

- والله مادري من يحقق وياي

ثار الضابط واعتبر تدخل غيره في التحقيق إهانة له! رفع سماعة الهاتف وقال:

- شوفوو! اجي هذا نطرش ليكم محمد طوق تدخلونه الغرفة وما اسمح لأي واحد منكم أن يجي يتكلم وياه بكلمه حتى اسمه ممنوع تسألونه!

التفت إلى محمد طوق وقال:

- خلاص .. محد يكلمك .. ومن تدش بتنام!

تغيّرت المعاملة تماماً!!

سأله الشرطي بعد دخوله الغرفة:

- تبغي تروح الحمام؟

- لا

- تبغي ماي؟

شـعر محمد طوق بتحسـن في المعاملة! كانوا يحرمونه من الذهاب إلى الحمام وكان الشرطي يفتح عليه الباب ويصرخ به: يلا اطلع!!

لكن الآن إذا نادى على الشرطي من أجل الحمام! يأتي راكضاً ويأخذه باحترام ويقول له:

- لين كملت اضرب الباب وطالع الطوف وبطّل

لكـن مـا كان يؤلمه كثيراً أصوات المعذبيـن من أخوته الموجودين .. كانوا يتعرضون للضرب وكانوا يصرخون من ألم العذاب!

كان من بينهم أطفال صغار في السن..

بعـض المعتقليـن فـي الغـرف وبعـض فـي الممـرات وممنوعيـن من الجلوس وكانوا يتلقون الإهانات باستمرار .. ركلات! صفعات! وشتائم!

- أبناء المتعة! روافض!! إيرانيين!!! عجم!!!! أنتون مو عرب

يتناهى له صوت طفل يصيح:

- ما اقدر! ما اقدر

وكان صوت الشرطي وهو يضربه:

- قوم اوقف!!

الطفل يصيح:

- تعبان!

يقول له:

- انبطح!

ينبطح الصبي والشرطي يقود بعض المعتقلين إلى الحمام ويجعل طريقه على الطفل فيدوس عليه وهو لا يدري لأنه معصوب العينين!!

فكان الصبي المسكين يتعرض للدوس في كل دقيقتين..

قال الشرطي له:

- الحين احنه بنوديك لربعك!! ربعك موجودين هناك .. إذا كلّمت واحد منهم تعرف ويش بنسوي فيك؟!

- ؟؟؟

- بنكسر عظامك تكسير

- ما بتكلم ويه أحد!

أخذوه إلى مكانٍ ما معصوب العينين؛ جاء أحدهم يسجل المعلومات عن الموجودين «منهو موجود في هالغرفة؟»

- شنو اسمك؟

- محمد إبراهيم رضي آل طوق

سمع أحد المعتقلين الاسم .. نادى عليه بعد لحظات:

- محمد! محمد!

عرف محمد طوق الصوت!! صديقه «صلاح» لكن محمد لاذ بالصمت .. عاد النداء:

- محمد!

- !!!

- محمد!!

- هلا صلاح!

- شخبارك؟!

- الحمدلله بخير! «ولا تحاتي وخلاص لا تتكلم»!

وفي اليوم التالي عندما أخذوه للتحقيق كان السؤال الأول:

ليش تكلمت ويه صلاح؟! احنه قايلين ليك لا تتكلم! ليش تكلمت..

انهالوا عليه بالضرب قال محمد محتجاً:

أنت مدام سمعتني اتكلم .. سمعت أنا شنو قلت سألني صلاح: شخبارك وقلت ليه تمام الحمدلله بخير وخلاص لا تحاتي

احنه عاطينك أوامر!! حتى لو سلم عليك لا ترد عليه .. احنه عطيناكم أوامر ممنوع الكلام!! ما تتكلمون!!

الفصل الثامن: سين جيم؟!

كان الوقت عصراً عندما جاء أحد الجلاوزة إلى غرفته:

- قوم!
- وين؟!
- قوم! قوم!

نهـض محمـد طوق ليقتادوه خـارج المبنى كان ذلك فـي اليوم الثامن من اعتقاله!

لـم يضعـوا علـى عينيـه «الصمـاد» .. فـي الطريق تصـوّر الأسـير أنهم سيأخذونه إلى «جهاز أمن الدولة»!

أركبوه سيارة مصفحة وبالقرب منها سيارات جيب لقوات «الكوماندوز» خطرت في ذهنه أنهم سـيذهبون به إلى «سـجن جو» كانت القوات في حالة استنفار إلى جانب قوات المرتزقة .. ركبّوا «الصنقل» ومن ثم أركبوه السيارة، قال الشرطي:

- لا ترفع راسك

شغلّوا صفارات الإنذار في ساحة المبنى لإعداد حالة الطوارئ .. ارتفعت أصداء الضجيج .. تداعت في ذهنه الأفلام الأمريكية لدى نقل سجين خطر من مكان إلى مكان آخر .. قوات كوماندوز مدججة بالسلاح وفي حالة تأهب قصوى!!

صفارات انذار تدوي!!

غادرت السيارة المصفحة وسيارات الجيب المشحونة بقوات الكوماندوز..

كانت السيارة المصفحة ومن فرط السرعة ترتطم بالأرصفة تتجاوز الرصيف!!

الموكب المهيب بسرعته الجنونية وصفارات الإنذار يصل إلى منطقة ما .. المكان مليء بالعمارات قوات كوماندوز كانت متأهبة بكامل أسلحتها وتوجه السلاح صوب العمارات .. كلاب بوليسية «تتشمم» الأرض .. قوات الكوماندوز كانت تعيش في «جو» خاص ومن المؤكد أن كل هذه الضجة وكل هذه الاستعدادات هي من أجل سجين في غاية الخطورة!!!

عندما توقفت المصفحة وفتحت الأبواب .. ثلاث درجات تفصله عن الأرض:

قوم انزل!

ترجل محمد طوق شاب نحيل القوام وديع المنظر وجهه مفعم

بالبراءة!! كحمامة برية!!

شعر الكوماندوز بالصدمة وربما سخروا من أنفسهم!! كل هذه الضجة! كل هذه الاستعدادات وحالة التأهب القصوى وصفارات الإنذار والطوارىء من أجل هذا الشاب الوديع!!!

أدرك محمد طوق حالة الرعب لدى النظام الخليفي من شباب المقاومة!

شاب واحد نحيل القوام هادئ جداً تغمره السكينة!!

قليل الكلام طويل الصمت!! هذا الشاب بمجرد أن يتشرب الفكر المقاوم يتحول إلى «بعبع» مخيف في ذهنية أجهزة أمن النظام!

كل هذه الاستعدادات وحالة الطوارئ وصفارات الإنذار وقوات الكوماندوز هي من أجل شاب أسير مكبل بالسلاسل والقيود!!

في هذه البلاد كل من ينشد الحرية والكرامة يعيش مكبلاً بالسلاسل والأغلال!!

أدخلوا الأسير إلى مبنى .. انتبه محمد إلى اللافتة كان مكتوبا فيها «الطبيب الشرعي».

كان الطبيب بحرينياً! لا ندري مشاعر محمد طوق عندما شعر بأن الطبيب الشرعي بحريني مثله في بلد مستباح أمام التجنيس المستمر للغرباء المستقدمين من أصقاع بعيدة يثير وجود ابن البلد مشاعر وأحاسيس إيجابية! قال الطبيب:

- لو سمحتون طلعوا! بطلوا الصنقل وطلعو!

أجاب المرافق الأمني:

- ممنوع نشيل الصنقل!

رفض الطبيب إجراء الفحوصات!

- ما أسوي ليه فحص يا تبطل الصنقل .. يا تشيلوه!

- دكتور! ممنوع

- بس شيلوه رجعوه جدي ما أقدر أفحصه .. ولا أكتب ليكم تقرير!

وأخيراً قال المسؤول الأمني:

- بنشيل الصنقل بس الأفكري بيظل عليه

قال الطبيب مذعناً:

- أول شي خله يفصخ فانيلته عشان أشوف جسمه

طلب منهم مغادرة الغرفة لكنهم أصروا على بقاء شخص واحد:

- دكتور! هذا إرهابي وعندنا أوامر ممنوع أن نخليه

كان المسؤول الأمني يحاول إخافة الدكتور أنه في خطر على حياتك .. وافق الدكتور على بقاء شرطي واحد..

رفع الفانيلة، ورفع السروال، راح الطبيب يصور المواضع التي تعرض فيها محمد للضرب..

طلب الدكتور من الشرطي أن يجلسه على الكرسي قال له:

- خله يقعد!

وخاطب الشرطي قائلاً:

- لو سمحت اطلع بره! ابغي اخذ تقرير .. اطلع عند الباب

عندما غادر الشرطي المكان قال الدكتور لـ«محمد»:

- محمد عذبوك؟!

أجاب محمد بالنفي:

- ما عذبوني!

ابتسم الطبيب وقال:

- ما يصير! أنا مصور صور الحين .. يبين آثار التعذيب فيك!

سكت لحظات ليقول:

- عذبوك لو ما عذبوك؟!

- أنا أقول ما عذبوني!! أنت تقول عذبوني! أنت اكتب .. أنا ما راح أقول إن عذبوني!! ما دام أنت تشوف إن أنا معذب .. أنت اكتب إن أنت شفت التعذيب

أجاب الطبيب:

- خير خير ان شاء الله!

لا يدري محمد ماذا كتب الطبيب في تقريره!! أعيد محمد إلى نفس المكان إلى مبنى التحقيقات بنفس الطريقة!! كانت الشمس قد جنحت للمغيب..

وفي وقت متأخر من الليل جاؤوا إليه لاستدعائه وقد سبق وصولهم وصول صراخهم وزعيقهم:

- عمليات!

هذه المفردة التي تبث الخوف في نفوس المعتقلين في هذا المكان الموحش!

كل معتقل في هذا المكان يتصور أنه سوف يستدعى للتعذيب والتحقيق..

أصداء «الجواتي» تقترب ودفع باب الغرفة:

- قوم!

نهض محمد ليقاد إلى خارج المبنى .. اركبوه سيارة وحدة دورية كان فيها «باكستاني مجنس» على يمينه بحريني الجنسية وإلى جانب محمد شرطيان باكستانيان مجنسان!

لم يضعوا هذه المرة «الصماد» على عينيه وطلبوا منه أن ينزل رأسه فقط!

غادرت السيارة مبنى التحقيقات؛ كانت السيارة تسير إلى نقطة مجهولة بالنسبة للمعتقل الأسير! توقفت عند نقطة تفتيش طلب الشرطي البحريني من الباكستاني الجالس إلى جانب المعتقل أن ينزل ويخبر نقطة التفتيش:

- انزل وقول ليهم داخلية عشان يبطلون ونطوف!

نزل الشرطي الباكستاني ليعود بعد ثواني ليركب السيارة التي

تحركت..

الشخص البحريني التفت إلى الباكستانيين الجالسين على يمين ويسار المعتقل قال لهما:

- تعرفون هذا الشخص إلي وسطكم منهو؟!

- لا؟!

- تدرون إن هذا هو الي فجر تفجير سترة وقتل اثنين باكستانية؟!

ما إن قال ذلك حتى انهالا على محمد طوق بقبضات مشدودة!! السيارة تسير في طريقها والضرب مستمر على الرأس وعلى الظهر! إلى أن قال البحريني:

- بس خلاص! خلوه

وصلت السيارة إلى «مركز الحد» .. دخلت الساحة .. ثمة ملعب في مدخل الساحة ومدرج قال البحريني لهما:

- دخلوه الزنزانة ولا تبطلون عليه الصنقل .. بس خلوه يرتاح وينام!

ادخلوه في زنزانة فيها شخص:

- دش ونام!

وجد محمد سريرا مع «برنص» لكن لا وجود للوسادة!! يمكنه النوم هنا شكر الله في نفسه ربما سيدعونه يرتاح هنا دخل محمد وخطا ثلاث خطوات ليجلس على السرير وإذا بصراخهم!!

- قوم اوقف!!

- شـنو الموضـوع؟! انتون الـي جاييني وقلتون دش نـام!! ليش قوم اوقف

- قوم اوقف تعال

عاد إليهما أمسكاه واقتاداه نحو السيارة:

- اركب!!

ثارت التسـاؤلات في أعماقه: شـنو الموضوع؟! شـفيهم دلين؟! ويش قاعدين يسوون!!! يبغون يتعبوني نفسياً؟! «شنو السالفة»؟!

عادوا به إلى مبنى التحقيقات!

كان جالسـا أمـام ضابـط التحقيـق .. الجـو ما يـزال طبيعياً! وسـخونة «التحقيق» منخفضة!

وسير التحقيق يمضي على نحو «طبيعي» لكن أحدهم «نط» يخاطب الأسير المعتقل:

- أنـت ليـش رجعـت البحريـن؟! أنـت كنـت فـي إيـران! ويـش الي رجعك؟!

أجاب محمد طوق فوراً:

- ما قدرت أعيش في إيران .. رجعت البحرين!

- جـداب!! انـت رجعت عشـان تأخذ .. على فكرتـك .. انك بتاخذ ثار علي فيصل

أجاب وقد تدفق نبع الحب للوطن:

- لا!! أنا راجع لديرتي ومو جاي آخذ بثار!!

صرخ بوجه المعتقل:

- أنت راجع تاخذ ثار تبي تسوي روحك تاخذ ثار!!

- أنا راجع لديرتي وبس!!

لا يمكن لذلك الوغد أن يدرك أن «محمد طوق» ابن هذا البلد .. ابن البحرين وحب الوطن مغروس في أعماق نفسه ربما ينشأ نزاع بينه وبين السلطة! بينه وبين النظام السياسي .. ربما تضطره الظروف إلى مغادرة الوطن! إلى الهجرة لكن ما إن يضع قدميه في أرض المهجر حتى يشعر بالحنين إلى الوطن!!

«محمد طوق» لازمه هاجس العودة إلى الوطن .. إلى الديار منذ الأيام الأولى على وصوله إلى إيران!

محمد طوق نبتة أهلية لا تعيش إلا في تربتها الأهلية .. عصفور دوري .. حب الوطن شعور ينبع في أعماق النفس غريزة مودعة .. وعقيدة متجذرة وحقا أن «حب الوطن من الإيمان»!

كل هذا الظلم والقهر الذي تمارسه السلطة .. ويمارسه النظام ضد أبناء الوطن!! سياسة التجنيس .. زرق الغرباء .. تسليطهم على ابن الأرض وابن البلد .. كل ذلك لا يمكنه أن يمحو هذا الشعور الجارف المتدفق داخل النفس .. محمد طوق مستعد في أي لحظة وإلى الأبد من أجل التضحية في سبيل الوطن..

الوطن منظومة إنسانية ونسق من العلاقات والذكريات والعقائد

والصداقات .. الأسرة .. الأصدقاء .. العلاقات الإنسانية كلها تجتمع وترسم صورة الوطن فوق شغاف القلوب الطاهرة لذلك فإن علي فيصل جزء من الوطن!

انتبه محمد طوق إلى صراخ هذا الوغد:

- تبي تسوي روحك تاخذ ثار .. كأن احنا الي قاتلين علي فيصل!! ... علي مو احنا الي قاتلينه!

«نط» أحدهم وراح يشتم محمد طوق ويشتم علي فيصل!! شعر محمد ببركان غضب يتفجر في أعماقه قال بصوت غاضب:

- ليش تشتم علي فيصل؟! شخص متوفي ليش تشتمه؟!

ارتفعت سخونة «الجو»!! وراحت تهدد سير التحقيق!!

تدارك ضابط التحقيق الأمر:

- لا أحد يسب علي فيصل! ما أرضى أحد يشتم واحد متوفي!!

والتفت إلى محمد طوق قائلاً:

- أنت شنو تبغي؟!

- ما أبغي شي .. بس ما يغلطون على واحد متوفي!! ما يصير يقعد يشتمه!

خاطب ضابط التحقيق جلاوزته:

- لا تسبونه ولا تشتمونه!

والتفت إلى محمد:

- ليك الحرية في كل شي!

سكت لحظات ليقول له:

- علي فيصل شنو؟!

أجاب محمد ببسالة:

- علي شهيد!

بهتوا لهذا الجواب الشجاع! قال الضابط:

- بس مدام إن علي شهيد فهو شهيد!! لا احد يتكلم!

والتفت إلى محمد قائلاً:

- محمد! لين تجيب اسم علي قول الشهيد علي فيصل

- إي .. الشهيد علي فيصل

- الله يرحمه

شعر محمد بزهو الانتصار ومجد المقاومة وشموخ الشهادة .. «علي فيصل» الشاب المقاوم الأبي الباسل الذي أذاق هؤلاء الأوغاد المرارة والهوان .. إن السر في تفوق شباب المقاومة أنهم ينظرون إلى الاستشهاد في سبيل الله وفي سبيل الكرامة والحرية والوطن حياة أبدية!!

اقتادوه من «الحد» إلى «التحقيقات» كان الوقت عصراً نقلته سيارة دورية بطحوه في داخل السيارة؛ التي تحركت نحو مبنى التحقيقات ترافقها سيارات جيب أخذوه إلى نفس الغرفة .. كان مقيد الأيدي والأرجل وكان أيضاً معصوب العينين وبقي ينتظر مترقباً ما سيجري لاحقاً!

جاء أحد الجلاوزة:

- يلا قوم!

فتح الباب ليقتاده إلى «تحقيقات أمن الدولة» .. ادخلوه على نفس ضابط التحقيق عرف محمد طوق ذلك منذ اللحظة الأولى لدخوله .. جاءه صوت الضابط:

- شلونك أبو إبراهيم؟

- الحمدلله

- ارجع ورا اتمشى!

تراجع محمد طوق على مهل إلى أن لامس جسمه الكرسي خاطبه الضابط:

- اقعد .. تدخن أبو إبراهيم؟!

- اي

- شنو تدخن؟!

- مالبورو احمر!

نهض الضابط وتقدم نحو المعتقل الجالس .. أمسك بيده ووضع «القوطي» و«الليتر»:

- هذا جقاير وليتر! .. اشرب على راحتك .. لا تسألني أن بتولع أو لا .. ولع على راحتك .. هذا القوطي ليك أنت!

مد يده إلى «القوطي» وجاء صوت ضابط التحقيق:

- أبـو إبراهيـم مـا عندنا شـي وياك .. خـلاص .. كل الأمـور تحققت ورحت نيابة وصورت

- عرضتون التقرير؟

- لا لا .. قايل ليك أنا .. التصوير حق الداخلية .. مو حق عرض!!

اعتقـد محمـد فـي داخلـه أن الضابـط يكـذب عليـه!! مـن المؤكد أن التصوير قد عرض قال له:

- زين!

- احنـه مخلصيـن .. وانـا جايينك ما عندي شـي وأنـت عن قعدتك بروحك هناك .. جايينك نسولف سوالف عادية

اسـتمر الضابـط فـي لعبته يوحي إلـى محمد طوق أنـه صديقه وليس ذلك الأفعى الذي يسعى أن يقوده إلى حبل المشنقة!!

هذا الأفعى لديه ما يهدف إليه!! يدس السم في العسل!!

قال بتودد:

- نبغـي نتكلـم بـكل أريحيـة!! سـوالف عاديـة .. أنـت مـو مقابلـي كسـجين وأنـا ضابـط احقـق ويـاك .. اعتبرنـي صاحبـك! اعتبرنـي أخوك بنسولف سوالف عادية!!

سكت لحظات قبل أن يقول:

- تبغي شي قبل لا نبتدي؟!

- إي!

- شنو تبغي؟
- بطل الصنقل عني .. رجايلي وأيادي! بطل الصنقل وشيل «الصماد» عن عيوني!!
- أبو إبراهيم الصنقل عن رجايلك ممنوع! في أوامر أعلى من أوامري أن ما يتبطل عنك الصنقل وأنت هني .. وهم العيون ممنوع! ولكن تصرف شخصي من عندي .. أنا ببطل الأفكري الي على أيدك والصنقل إلي على ايدك حتى تاخذ حريتك ..

أطلق يديه فقط وقال له:

- نبتدي؟
- الي الحرية في الكلام؟!
- شلون يعني؟!
- لين تكلمت وياك .. انت تقول سوالف عادية الين تكلمت .. ما تقوم تضربني؟
- لا ما اضربك! هذا وعد! .. احنه نبغي نسولف .. هذا مو تحقيق
- ابو ابراهيم! انت قبل الأزمة انت انسان كانت هوايتك في الخيل! تربي خيول .. تشتري وتبيع!! وهم كنت تشتغل في هذا المحل .. كنت تشتغل في صيدلية! فشنو الي جرك الى هذي الأمور؟!
- .....
- تكلم! إليك الأمان!

- أولاً أنا بحريني

- صح

- البحريني يشتغل من الساعة 6 الصبح إلى 4 العصر .. يستلم راتب 250 وهـم ينقص منـه .. يحصل منه 230 والفورمان الي عليك هو هندي! البحريني يشتغل حمالي أو دريول والفورمان الي كان عليه هنـدي!! هـذي واحـد .. ثاني شـغلة مثلاً الشـخص يتـزوج يطلب بيت إسـكان .. عقب ما يجيب ولد .. ولدين .. ثلاثة .. عقب ما يكبرون هو يشـيّب .. تالي يحصّل البيت! فوق هذا يحصّل البيت ويحصّل عليه أقسـاط شـهرياً ويمكن يسـكن فيها سنة ويتوفى! لا بـد أن يصير انفجار من الشـعب! وموجة انفجـار! طلعوا الناس .. طلـع الشـعب وانخرطـت وياهـم في هذا الشـيء .. كنت اشـوف مطالبهم الحق .. وأنا طلعت وياهم!

وجاء جواب الضابط غير متوقعاً تماماً!!

- قسـم بـالله كلامـك كلـه صح! شـوف! أنا ضابـط ولكن مـو راضي! راتبي نص الشهر ما يكفيني! كلامك كله صح .. انطلاقكم بالثورة!

وهنا بدأ ينفث سمومه:

- بداية الثورة انطلاقكم صح .. وكلامك الي تقوله صح واحنه وياكم اصلاً .. نتمنى أن تزيد الرواتب ويتعدل حال المواطن البحريني .. ولكن بعض قادتكم أو قادة الثورة خانوا الوطن!

- شلون خانوا الوطن؟!

- باعوا القضية إلى إيران .. وهم اتباع إيران .. ينفذون أجندة إيرانية في البلد .. يبغون يسلمون البلد إلى إيران..

وراح يسوق بعض الأمثلة:

- شوف فلان في إيران! دعمه شنو؟! ايراني تدري أو لا؟ فلان وفلان وين؟!

- لا!

- هل شخص من أولادهم مسجون؟!

- لا!

- فلان ولده في لبنان يدرس .. فلان ولده في هذي الدولة يدرس

كل الأمثلة التي أوردها كانت صحيحة! بعض الشخصيات البحرينية المرموقة أولادهم في الخارج!!

- طالع دلين الشخصيات! فلتوكم في الموج! وهم حافظوا على عوائلهم! اصلاً طلعوا أولادهم يدرسون .. وأنتون السجن إليكم..

كان ضابط التحقيق ينفث سمومه كما تنفث الأفعى سمها .. استحال صوته إلى فحيح!!

كان غافلاً عما يضطرم في أعماق هذا المعتقل المكبل بالقيود .. في أعماقه نفس حرّة أبية .. لقد أشرق على قلبه الطاهر الوعي .. في داخله المفعم بالنور تموج قيم وتسطع مبادئ راسخة! الحق لا يقاس بالرجال!

أجل الحق لا يقاس بالرجال أبداً .. اعرف الحق تعرف أهله!

محمد طوق من الذين لا يعرفون الرجال .. إنه ينشد الحقيقة .. الحقيقة فقط!

أراد الضابط أن يصعق أسيره المبكل بالسلاسل:

- نزّل راسك

تقدم نحوه .. نحى «الصماد» عن عينيه .. أراه صورة فتاة تشرب «الشيشة»:

- تعرف هذي البنية؟!
- لا!
- هذي بنت فلان! شنو رايك؟!
- ما يهمني هذا الشيء!
- محمد! سؤال
- قول!
- هل تعتقد .. هل تؤمن بفكر المقاومة؟ الي تسمونه مقاومة تفجيرات وعبوات

وجاء الجواب صادماً:

- انا اعتقد بهذا الفكر .. عندي اعتقاد كلي بفكر المقاومة
- شلون؟! ليش تعتقد!
- المقاومة وضربات المقاومة .. إذا كان الحل بيكون بعد سنتين

من ضربات المقاومة والضغط بيصير في سنة!

- لا لا لا محمـد أنـت غلطان! اتفق وياك في بعض النقاط .. لكن هذي النقطة .. ما اتفق وياك فيها!
- .....
- انتون بمجرد تسـوون عملية اصلاً تعطون الضوء الأخضر .. ندش دياركـم ومناطقكـم .. نداهـم على راحتنـا .. نداهم بأي بيت لأن فيه عمليه إرهابية..
- .....
- أنا اشوف أن هذي تأثر عليكم .. ما تفيدكم .. تضركم ما تفديكم
- .....
- أنت غلطان في هذي الفكرة!
- ممكن أكون غلطان فيها .. ولكن انا اشوفها الحين هي الصح!!
- ليش استخدمتون هذي الأساليب؟!
- في شيء .. قاعدة يسمونها العنف يولّد العنف!
- فهمني شلون؟! ما فهمتها!
- أولاً تشـوف «الشـغب» أو الي يسـمونهم «مكافحة الشـغب» شنو يسوون في مناطقنا؟!
- لا! فهمني

- أولاً يدشون مناطقنا .. يعتدون على مقدساتنا .. من مأتم من مساجد .. من عقيدتنا في العزاء .. يضربونا .. «قراية حسينية» أو شعائرنا الحسينية يتدخلون فيها .. هم يداهمون بيوتنا .. إذا يدشون على نسوان .. أمهاتنا .. خواتنا .. رجالنه أبوتنه رجال كبار في السن! كانوا يدشون يضربونهم .. ما عندهم احترام لا كبير ولا صغير! ولا امرأة!! ولا أي أحد .. يدشون..

- استمر!

- ثاني شغلة الي زيّد هذا الرتم عندنا وخلتنا ننجر إلى ضرب وزرع عبوات إليهم .. هذي احنا البحرينيين هذي بلدنا .. الا يجي غريب .. يجي باكستاني ويمني وأردني وسوري! يدش منطقتي ويداهم بيتي!! من غير احترام .. من غير أي شيء!! شنو تبغي؟! يعني هل نقابلهم بالورد؟! اكيد لا .. مدام هم استخدموا العنف فاحنا نستخدم العنف! فاحنا استخدمنا وياهم العنف!!

حاول الضابط استيعاب هذا الهجوم والالتفاف على أفكار محمد طوق لذلك قال:

- صح كلامك! يمكن هذا الي صار شيء غلط من المنتسبين إلى وزارة الداخلية .. وهذا سبّب ثغرة! يعني تصرفات شخصية!!

- .....

- محمد! أنت بحريني لا شك في هذا وأنا بحريني! أنت مو إيراني! أنت بحريني .. أصالة البحرينيين أنت منهم

- صح
- وأنا بحريني
- صح
- تعـرف ان احنـا وأنتـون مـا لينـا غنـى عـن بعـض! احنـا اولاد بلـد وحـدة! شـوف أنـت بحريني .. أنـا اتألم الحيـن إن اشـوفك بهذا المنظـر .. مـا اتمنـى إن أنا قاعد وياك وأنت «مصمد» ما تشـوفني .. ومضروب صنقل .. لا أنا حاب اقعد وياك .. أنت مرتب لابس أحسـن الثياب وقاعدين مو في مكان مثل هذا! لكن مردها بتصير حلول في البحرين وبنلتقي وشوفك في ادنات مكان وبجي بسلّم عليـك وبذكـرك في هـذا اليوم وبقول ليك أنا الـي قعدت وياك أبو إبراهيم هاليوم! ولكن في ذاك الوقت نكون حبايب!!
- ولكـن هنـي أوامر .. الحين عندي أوامـر انفذها! أنا ما ابغي هذي الأمور تصير أصلاً .. أنتون ناس مغرر بكم!!
- .....
- أبـو إبراهيـم! فـي نـاس كثرة مـن الشـباب الموجوديـن المعتقلين طلعـوا ولكـن قضاياهـم عادية .. مثلاً طالع يحرق توايـر .. طالع مسكر شارع .. طالع مظاهرات .. أنت شنو سبب أن سيده قضاياك كبيرة؟!
- .....
- جم محكوم؟!

- مادري يمكن فوق أربعين سنة
- شنو السبب يعني؟ أنت محكوم فوق الأربعين؟
- منكم انتون!!
- شلون منا احنا! تتهمنا!
- ما اتهمك .. لكن منكم
- شلون؟!
- في قاعدة تتخذونها إن أي شخص يكون مطلوب .. لو على مسيرة .. شخص بداية حراكه يطلع في المسيرات داهمتون عليه بيتهم ما صدتونه .. انتون جايين ليه بقصد المسيرة .. لكن ما اعتقلتونه .. من يظل مطلوب أي قضية تصير في هذي المنطقة هو اسمه موجود!! الحين أنا مثلاً عليي قضية تفجير سترة! القضية الي أول قضية صارت عليي .. ثاني قضية هم قتل هم تفجير وقتل .. ولكن أنا ما ليي خص بهذيك القضية ولكن بحكم إن أنا مطلوب .. انحطيت في القضية!! أول حكم عليي مؤبد!! شنو تبغيني اجي!! هذا شيء سبّب عازل بيني وبين الحكومة شي كبير .. بعد إن أنا اظل أواصل في هذا الدرب .. استمر إلى آخر نفس فيه!
- شوف! شوف! مو أنت الي فجرت في ديك القضية .. ولكن منهو الي قص عليكم وغرر بكم؟! وقال ليكم؟! حراك عادي اطلعوا للشرطة مسيرة!! انتون يستخدمونكم أدوات وانتون ما تدرون عن روحكم .. زارعين عبوة .. دشوا الشرطة ضربوا قتلوا الشرطة ..

احنا نعرفكم انتون لأن انتون صايرين في الساحة الي يحركونكم هم يستخدمونكم أداة مو أكثر!

كان يحاول نفث سمومه للتشويش على طريقة تفكير الشباب المعتقلين وفصلهم عن القيادات الميدانية في الحراك الشعبي ضد النظام الغاشم!

سكت الضابط لحظات ثم أثار موضوعاً آخر ليتعرف على طريقة تفكير محمد طوق، قال متسائلاً:

- شرايك في داعش؟
- إرهاب
- خل نفترض إن داعش دشوا البحرين ويش بكون موقفك؟!
- موقفي مقاومة حتى الممات ضد داعش
- شنو السبب؟!
- محموعة إرهابية جاية تحتل
- حلوو .. تبغي تحتل وطنّه .. عدل؟
- اي عدل
- لو إيران دخلت البحرين تبغي تحتلها شنو بكون موقفك أنت؟ داعش تبغي تقاومها انزين .. أيران دشت البحرين شنو موقفك؟!
- محتلة البحرين؟!
- اي

- بنقاوم
- شلون؟ دولة شيعية! بتقاوم دولة شيعية؟!!
- دولة شيعية .. ولكن تبغي تحتل الحين .. هم غزاة بيحتلون وطنّه .. لابد إنك تقاومهم .. ما يصير تسلّم بلدك إلى دولة محتلة
- يعني تتحالفون مع آل خليفة؟!
- هذا قرار ما اقدر اقوله .. أنا شخص ما امثل أحد .. أنا امثل نفسي بروحي .. هذا قرار مو أنا الي اقوله أن الشيعة يتحالفون أو ما يتحالفون في البحرين!!

وهكذا استمر الحوار إلى ما قبل مطلع الفجر بقليل..

كان الضابط الأفعى يتلوى في حواره واسئلته من أجل أن ينفذ في أعماق شخصية الشاب الشيعي المعتقل ليتعرف على طريقة تفكيره .. فقد ينجح في تغيير موقفه من قادة المقاومة..

كان محمد طوق يدرك جيداً أن الثورة في البحرين فيها الكثير من الصور الإيجابية وفيها أخطاء .. وكان ضابط التحقيق كمسؤول أمني يبحث عن الأخطاء ومن خلالها يحاول النفوذ إلى داخل نفوس شباب المقاومة!

ويبدو أنه تمكن من إقناع الكثيرين من الشباب في المقاومة بأن الحراك كله غلط في غلط..

كان في أسلوبه ناجحاً خاصّة في طريقة تعامله!

طلب العشاء لـ«محمد طوق» من «ماكدونالز»!! وعندما سأله محمد طوق أن يسمح له بالتدخين قال الضابط بلطف:

- شـفيك أبـو إبراهيم؟ أنـا قايل لك أي جقارة تبغـي تولعها ولعها لا تسأل..

وعندما حان وقت العشاء قال:

- أبو إبراهيم بنطلب من برا عشا .. بطلب لك طلب من ماكدوناز!!

وفـي أثناء الحوار دخل أحدهـم وتقدم نحو محمد طوق وراح يمعن النظر إليه ثم قال من دون مقدمات:

- الحسين جننك!!

ردّ محمد طوق بإباء وبسالة وكبرياء:

- اي الحسين جنني!

- هالقد يسوي حب الحسين فيكم؟!!

- اي هلقد وازيد!!

لاذ الجلواز بالصمت المطبق .. كان يريد حلّ اللغز في نفوس الشباب الشيعة! ماذا يفعل حب الحسين في نفوسهم؟! قال الضابط وقد اطلّت ساعة السحر:

- بس أبو إبراهيم .. بنشيلك بنوديك ترتاح!

سأله محمد طوق:

- متى بتنقلوني؟

- وين تبغي تروح؟

- أي مكان!

- للحين ما طلع قرار نقلك .. فاقعد هني .. مافي شيء عليك فاقعد لمن تخلص .. نكمل إجراءات الأوراق وننقلك..

وهكذا أُعيد محمد طوق إلى مبنى التحقيقات وتناهى إليه وهو يدخل غرفته صراخ الشباب المعذبين..

وأمضى ليلته في هذا المبنى العتيد .. وفي مساء اليوم التالي وقبل أن ينشر الظلام ستائره جاؤوا .. سمع محمد طوق صوت الخطى؛ فتح الباب:

- قوم اوقف!

نهض محمد طوق معصوب العينين مكبلاً بالسلاسل!

- يلا تحرك!

رفع المأمور العصابة قليلاً .. شعر الأسير بالألم في عينيه .. كانت الرؤية مشوشة وضبابية..

توقع محمد طوق أنهم سوف يقتادونه إلى «أمن الدولة» للتحقيق .. كانت سيارة نيسان بترول واقفة في الساحة وإلى جانبها سيارة باص «المداهمات» .. ركبوا المعتقل في سيارة الـ«نسيان» التي تحركت يرافقها «موكب» من «المدنيين» أي عناصر من أجهزة الأمن ترتدي الزي المدني!

محمد طوق لم يكن يعرف أين وجهتهم اليوم؛ وصل «الموكب» إلى مبنى «المحكمة» في قسم «النيابة العامة»..

ترجل من السيارة وكان «المدنيون» يحيطون به كالدائرة وهو يسير

في وسـط الدائرة مكبل اليدين والقدمين ومعصوب العينين!! رفعوا عن عينيـه «الصمـاد» وهـو يدخل المبنى .. اجلسـوه في صالـة الانتظار حيث ينتظر المعتقلون محاكمتهم..

عندمـا دخـل الصالـة تطلعـت عيـون المعتقليـن إليـه .. أدرك الجميع أن هـذا المعتقـل يختلـف عنهـم .. وضعـه يختلـف عـن وضعهـم .. كل المعتقلين الجالسين في القاعة كانوا غير مقيدين باستثناء محمد طوق!!

على وجوههم ارتسـمت علامات اسـتغرب وتسـاؤل واسـتفهام!! في أعماقهم اسئلة حائرة:

- شنو السبب أنت جدي؟!

- منهو تكون أنت عشان مسوين ليك جدي؟!

لـم يجـرؤوا علـى سـؤاله .. فهنـاك «مدنـي» جالـس إلـى جانـب هذا المعتقل المكبل بالسلاسل!!

هـذا «المدنـي» يمنع محمـد طوق من الكلام مع أحد ويمنع كل أحد من الكلام معه .. لا يريدون أن يعرف أحد عن مصير هذا المعتقل!!

أسرته لا تعرف عنه شيئاً .. هل حي أم ميت؟!

مرّت الدقائق .. والـ«جو» في قاعة الانتظار ما يزال مشحوناً بالقلق!

بـاب القاعـة يقفل من الخارج .. تناهـى صوت فتح الباب ليدخل رجل «مغتّر» يضع على رأسه «غترة» .. ظن محمد أنه وكيل النيابة، قال «المغتّر»:

- وين محمد طوق؟

- نعم!

خاطب «المدني»:

- بطّل الصنقل عنه وجيبه .. حتى «الافكري» بطله

فتح «المدني» الصنقل والافكري .. قال شرطي باكستاني:

- يلا قوم امشي!

«مشى» محمد يقتاده «الباكستاني»! إلى أن وصل غرفة مكتوب إلى جانب بابها «رئيس النيابة» وهو في الحقيقة كان «الوكيل الرويعي» جالساً خلف مكتبه..

كان «الكاتب» الذي ينظم الاسئلة والأجوبة على الكمبيوتر جالساً أيضاً .. خاطبه وكيل النيابة:

- اقعد

جلس محمد في المكان المخصص له وفي الأثناء دخل رئيس النيابة ويعرف بـ«الحمادي» .. ولم يكن يعرف من سيحاكم .. لا يعرف هوية هذا الشاب المعتقل .. التفت إليه قائلاً:

- شلونك؟

- الحمدلله بخير

- الحمدلله

خرج ثم عاد مرّة أخرى .. بعد دقيقة واحدة فتح الباب وراح ينظر إلى محمد طوق نظرات ازدراء؛ قال بعصبية وفظاظة:

- انت مال سترة؟!

- اي!

أشار إلى صور رموز النظام حمد وولده!

- تعرف من ذوله؟!

أحياناً يكون السكوت أبلغ جواب خاصّة إذا كان السائل تافهاً ومتملّقاً:

- جاوب تعرف؟!

- اي اعرف

- ذوله شيوخنا!! ذوله تاج روسكم .. تسوون روحكم تطلعون عليهم .. تسوي روحك روبن هود؟!! تبغي تسقط النظام؟! يالإرهابي!

- .....

كان محمد طوق ينظر إلى «الحمادي» وقد لاذ بالصمت .. أحياناً يكون الصمت مدوياً .. أحياناً تكون لغة الصمت أبلغ من كل أبجديات الدنيا!

أجل اعتصم محمد طوق بالصمت أمام هذا المتعجرف .. غادر «الحمادي» القاعة .. التفت وكيل النيابة «الرويعي» إلى محمد طوق:

- شلونك؟

- الحمدلله

- بخير أنت

- اي بخير

مدّ وكيل النيابة يده تحت المكتب واستخرج كيساً يشتمل على ثلاثة «عصاير» وثلاثة «مطارات ماء» وثلاثة «كافي جلكسي» .. ناول الكاتب «عصير» و«مطارة» و«كافي جلكسي» ,, ووضع مثلها لـ«محمد»:

- محمد! تعال قوم خذ هذا
- مشكور ما ابغي!
- لا .. تعال أنا حاسبنك .. ورانه قعده طويلة .. قوم! أنا مشتري وحاسبنك .. يوم انزل البرادة حاسبنك ويانه .. قوم ورانه درب طويل!

نهض محمد وتقدم لأخذ نصيبه وعاد إلى مكانه؛ قال وكيل النيابة له:

- لا تخليهم .. كل الكافي واشرب العصير!

قال هذا وراح يتناول الكافي ويشرب العصير..

محمد تناول الكافي وشرب العصير..

عادة ما يتظاهر وكيل النيابة بالحياد .. ينظر في إفادات المتهم واسئلة التحقيق .. في «البحرين» يقرأ وكيل النيابة الاسئلة والأجوبة .. باستثناء الاسئلة الابتدائية..

- اسمك؟
- محمد إبراهيم
- كم عمرك؟
- 24 سنة

بعدها يقوم وكيل النيابة بقراءة اسئلة التحقيق ويقرأ أيضاً الأجوبة .. سين جيم!!! يكتفي بتسعة اسئلة أو عشرة ثم يرفع رأسه ويسأل المتهم؟

- صح أو غلط؟

فيجيب المتهم وهو يهز رأسه مؤيداً:

- صح!

كانت الاسئلة والأجوبة مملّة تبعث على السأم: أنت كنت في الساعة كذا واستيقظت في الساعة كذا و....

والويل للمتهم إذا أجاب على سؤال وكيل النيابة: صح أو غلط؟ فيقول: غلط!!

إنهم لا يتعبون أنفسهم في إعادة المتهم إلى مبنى التحقيقات! فهناك غرفة في نفس مبنى النيابة .. تقع الغرفة تحت الدرج في الطابق الثالث الخاص بـ«الجرائم الإرهابية» وهناك يعيدون استجواب المتهم والتحقيق وانتزاع الاعترافات بالقوّة!!

استمرت الجلسة حدود ثلاث ساعات متواصلة .. بعدها انفتح الباب .. يدخل شخص يلقي التحية على وكيل النيابة ويسأله:

- ولد طوق؟

- اي

- لو سمحت خله يروح غرفة التعرف .. نروح هناك يتعرف عليهم!

- يلا نروح على السريع ونرجع!

نهض محمد طوق وذهب إلى غرفة التعرف:

- دش غرفة التعرف

رفع محمد طوق رأسه وإذا به يري صديقه «محمد رضي» واقفاً عند الباب .. وهكذا التقى الصديقان لأول مرّة بعد الاعتقال!

هزّ محمد طوق رأسه يحييه وابتسم له؛ فردّ «محمد رضي» التحية بابتسامة مشرقة وهزّ رأسه بطريقة توحي بالأمل والثبات والإباء!

أدرك محمد طوق أن صديقه ورفيق الدرب المرير ما يزال قوياً وما تزال شعلة المقاومة تضطرم في أعماقه!

ودار حوار صامت .. حوار الروح مع الروح والقلب مع القلب:

- احنه بخير مهما صار ومهما يصير!

- احنه بخير .. ما بننكسر .. وما كسرنه هذا الي صار!

دخل محمد طوق غرفة التعرف ووقع بصره على بعض الأغراض؛ «سامان» «برانص» «مخاد» .. عرف محمد طوق أنها أغراض الشقة التي أرسل مفتاحها إلى «محمد رضي» .. وجاءه السؤال:

- تعرف هذي «السامان»؟

- اي نعم اعرفهم

طلب منه أن يستدير:

- افتر يمين

أشار إلى «شغلة» تشبه التلفزيون الصغير

- تعرف هذا شنو؟

- ما اعرف!

- ما يصير!! هذي عبوة تلفزيونية!

أشار إلى كيس فيه بعض المواد:

- تعرف هذا شنو؟

- ما اعرف!

- هـذا مالـك انت .. هذه عبوة تلفزيونيـة .. مثل العبوة الي فجرت ابها باص سـترة .. وهذي المواد مالك .. هذي صدناهم في شـقة .. هذي الشقة مو مالتك! مو أنت قلت الشقة تبعك!

- اي

- السامان هذي احنه صايدينهم في الشقة!

انكر محمد طوق أن يكون «السامان» له!

قال لـ«محمد رضي»:

- قول ليه!

التفت محمد رضي إلى محمد طوق، قال له:

- تذكّر!

أدرك محمـد طـوق أن صديقـه يمـرّ بفتـرة التحقيـق!! وكان يـودّ أن يعترف محمد طوق على أن السامان يعود إليه!

محمد طوق أدرك محنة صديقه لذلك التفت إلى المحقق وقال:

- تذكرت .. «السامان» مالي!

- شفيك؟! قبل دقيقة تقول مو مالك!! والحين تقول مالك!!

- اي ناسي والحين تذكرت!!

لو كان محمد طوق يعرف محنة صديقه ورفيق دربه لـ«تذكّر» ذلك جيداً .. وهل «يخشى المبتّل المطر؟!!» .. لقد البسه المحقق «تفجير سترة» وعقوبتها الإعدام!!

فهل يخشى أن «تثبت» عليه ملكية «السامان»؟!!

واستأنف وكيل النيابة عمله في «سين .. جيم»!

وتمر الساعات ويمضي الوقت إلى وقت متأخر من الليل..

طلب وكيل النيابة العشاء له وطلب لمن عنده كذلك؛ وراح يقرأ الاسئلة ويقرأ الأجوبة ويسأل محمد طوق كالعادة:

- صح؟!

- اي!

وصل الحمادي رئيس نيابة الجرائم الإرهابية .. فتح الباب وقال للوكيل:

- خلصت وياه؟

- لا .. ما خلصت

- مجبورين الحين نطلع!

- وين نطلع؟!!

- نوديه سترة موقع التفجير .. يمثل شلون فجّر وشلون زرع وجيي؟ من وين خله العبوة؟ شلون ضرب؟!

خطر في بال محمد طوق السيناريو الذي ألّفه في التحقيقات .. عليه الآن أن يقوم بتنفيذ هذا السيناريو! عليه أن يقوم بتمثيل كل الأكاذيب على أرض الواقع!

قال وكيل النيابة:

- ما اقدر! باقي علينه واجد اسئلة وبنتأخر واجد!!

كانت الساعة تشير إلى الرابعة فجراً!

استطرد وكيل النيابة قائلاً:

- الحين الدنيا ليل! والدنيا ظلام!! سترة ما تندش الصبح! سترة أشبه ببيت الوحوش! شفيك أنت مجنون ندشها!

أدرك محمد طوق أن أرض سترة باتت ترعب الطغاة ووهج المقاومة ما يزال يشتعل!

أصرّ الحمادي على التوجه إلى سترة في هذا الوقت ولم يجد وكيل النيابة إلا أن يذعن!

- الحين لازم نروح ونرجع .. وكيفك وياه تقعدون متى كيفكم .. بس الحين نطلع

قيدوه بـ«الصنقل» و«الافكري» وعصبوا عينيه بـ«الصماد» وهكذا فعلوا مع «محمد رضي» واقتادوهما إلى «باص 16 راكب» .. وانطلق «الموكب» صوب جزيرة سترة .. توقف «الموكب» .. فتح باب السيارة:

- وين «محمد رضي»؟

- نعم

- قوم انزل!

انزلوه من السيارة وبعد ثلاث دقائق تقريباً فتح الباب:

- محمد!

- نعم

خاطب الجالس إلى جانب محمد:

- شيل الصماد!

رفع العصابة عن عينيه وجاء الصوت:

- ارفع راسك!

رفع محمد طوق رأسه فوقع بصره على شخص ملثم يرتدي الزي «المدني»! خاطبه المدني:

- قرّب صوبي!

اقترب محمد من الباب، قال «المدني»:

- اسمع! أنا الحين ببطل عنك القيد .. وببطل عنك «الافكري»!

ثم أشار إلى فخذه حيث لف عليه سلاح «الفرد»

- طالع ذي! هذا معبأ!! إن فكرت تهرب أو إن ركضت بفرغه كله فيك! لا تفكر تهرب! المحل محاصر!!

وهنا حصل شيء في داخله عندما شعر أنه يضع قدميه فوق تراب «سترة» .. شعر أنه في أرضه .. في دياره .. في ملعبه .. شعر بتيار من القوة والعزيمة يسري في كيانه! كان وحيداً! أما هم فقد كانوا بالعشرات .. قوات كوماندوز ومكافحة «الشغب» وهي في الحقيقة مكافحة «الشعب» .. كانوا منتشرين في جميع جهات التقاطع! هم وكلابهم البوليسية..

نزل محمد طوق وراح يمشي شامخ الرأس! ثمة فرصة للهروب لكنها كانت قريبة من الصفر! تمنى أنهم يتركوه قرب الجدار حيث حصل التفجير .. فقد يكون بإمكانه العبور إلى المدرسة وليحصل ما يحصل!!

فهو مهدد بالقتل في نهاية الأمر! فليكن ذلك لمرّة واحدة لا عشرات المرّات .. لم يتركوه يقترب من الجدار .. جدار المدرسة..

لاحظ وجود عدد من «الكاميرات» وكان عندهم «ميكرفون» .. وعندما وقف جاء النداء من أحدهم:

- اوقف مني قبال الكاميرا

وقف مقابل الكاميرا .. جاء وكيل النيابة ليسأله:

- أنت من وين جيت؟

- جيت من هذا الصوب

- محمد رضي وين وقف؟ شلون زرعت العبوة؟ وين حطيت العبوة؟ و.....

وراح محمد طوق يصوّر لنفسه أنه من قام بعملية التفجير .. فكان يستعيد تفاصيل السيناريو الذي سرده في مبنى التحقيقات .. أكملوا تصوير هذه التفاصيل وبعدها أعادوا محمد طوق إلى سيارة الباص وأركبوه مرّة أخرى ليعيدوه إلى مبنى «النيابة العامة»..

واختفى «محمد رضي» لم يره محمد طوق ويبدو أنهم أعادوه إلى مبنى التحقيقات..

وفي مبنى النيابة العامة طلبوا من محمد طوق التوقيع على عشرات الأوراق .. كان محمد طوق يعدها في داخله .. كانت في حدود خمس وستين ورقة!!!

كانوا يطلبون منه التوقيع على كل ورقة إلى جانب البصمة!

كان الكاتب يساعده في إنجاز هذه المهمة .. فقد كان مستعجلاً من أجل إنهاء هذه المرحلة الأخيرة!

وعندما وقّع محمد طوق الورقة الأخيرة وبصم .. قال الوكيل:

- الحمدلله على السلامة! خلصنه

- يلا خلصنه .. بعد ويش نسوي؟

بعد دقائق جاء أحدهم من قبل «التحقيقات»:

- يلا قوم!

أعيد محمد طوق إلى مبنى التحقيقات وسار «الموكب» .. كانت الشمس قد أشرقت وغمر نورها الوجود!

وضعوه في نفس الغرفة .. وكان محمد يتصور أنهم سوف ينقلونه إلى «سجن الحوض الجاف» أو أنه سوف يأخذونه إلى «سجن جو»!

لكن ما حصل أن أحد الشرطة جاء عصراً واقتاده إلى «الحمام» .. قال له بعد أن ناوله الصابونة والمشط:

- دش الحمام وغسل وجهك وشعرك بصابونة وعدل شعرك!

استغرب محمد طوق من هذا الإجراء .. قال له الشرطي:

- تعرف القمل!

- لا ما أعرف!

ضرب على رأسه وقال:

- في راسك قمل! غسل راسك وطيّح القمل الي في راسك!

- مو مشكلة!

لأول مرة بعد كل هذه الأيام العصيبة .. يرى نفسه في المرآة .. كانت عيناه منتفختين يحيط محجريهما السواد .. وقد ظهرت آثار ضربة على عينه اليسرى .. ولم تكن مفتوحة بالكامل .. وقد طالت لحيته..

اغتسل محمد طوق .. وفي الحقيقة غسل رأسه:

- اطلع ريوس!

وضع «الصماد» على عينيه واقتاده إلى الخارج وادخله إلى نفس

الصالة .. رفع عن عينيه «الصماد» فوقع بصره على عدد من «المدنيين» الملثمين!

فتح «الصنقل» وأجلسوه على كرسي أمام الكاميرا .. قال المصوّر الذي بدا من أصل افريقي:

- تعال اقعد هني على الكرسي .. بنصورك!

جلس محمد أمام الكاميرا متسائلاً:

- ليش تصورني؟! حق شنو تصورني؟!

لاحظ محمد طوق شعار قناة البحرين فأدرك إنهم يريدون التشهير به كإرهابي!! لذلك قال:

- ما ابغي اصور!

- ليش خايف من التصوير؟!

- هذا حق قناة البحرين؟!

- لا هذا مو لتلفزيون البحرين! هذا تابع للداخلية نحتفظ به للداخلية!! .. لا تفكر احنه بنطلعك بطل وبننقلك على قناة البحرين! هذا تابع للداخلية..

أطلعه على بعض الأوراق:

- شوف هذي الأقوال الموجودة الي عندي .. ابدأ اسأل وأنت تجاوب..

بدأت الاسئلة وكان محمد طوق يجيب وكان المصور يقوم بعمله

بـدون مقاطعـة لكـن عندمـا ينتهـي الجـواب ويلاحـظ وجـود تغييـر في الإجابة .. يقوم بإعادة التصوير من جديد:

- في السؤال رقم «هلقد»

ويقرأ السؤال:

- انت قلت ليي هذا الكلام وفي الأقوال كلام غير!!

وأحياناً يوجه المصور بأن يسرد بعض النقاط:

- تقول جدي جدي!

وهكـذا تـم التصويـر بعد إعادتـه ثلاث مرّات .. لم يكـن يعلم محمد طوق أنهم يريدون التشهير به وتصويره كإرهابي نفذ عمليات تفجير وقام بأعمـال إرهابيـة! كانوا يكذبون عليه عندما قالوا له أن هذا التصوير لوزارة الداخلية وليس للعرض على القنوات التلفزيونية!!

بعـد التصويـر قامـوا بنقلـه إلـى «أمـن الدولـة» ليلتقـي هنـاك بضابط التحقيق الذي بادره بالقول:

- شلونك أبو إبراهيم؟

- الحمدلله بخير!

- خلصت أمورك؟

- اي خلصت

- رحت نيابة اليوم وصورت؟

- اي صورت .. ليش مصوريني هني حق قناة البحرين؟!

- هـذا مـو حق القناة! هـذا حق الداخلية .. مـا بنعرضه .. بس هذا التصوير للداخلية .. احنه نحتفظ فيه..

ثم استطرد قائلاً:

- محمد تبغي شيء؟

كان محمـد فـي غاية القلق على أسـرته .. خاصّـة عندما جاء أحدهم وأخبـره بـأن والـده قد انتكسـت حالته الصحية بسـبب ما فعلـه ابنه من مصائب لذلك قال للضابط:

- أنـا صـار ليـي أيام طويلـة في التحقيقـات ما اتصلـت للبيت! ابغي اتصل ليهم!

كان محمد طوق قد طلب قبل أيام الاتصال بأسـرته فقال له الضابط حينها:

- لا تحاتـي! أنـا اتصلـت لبيتكـم وطمنتهـم .. إن من يخلـص نوديه «الحوض» .. فلا تحاتون هو بخير!

لذلك أعاد طلبه مرّة أخرى:

- ابغي اتصل للبيت

تظاهر الضابط بالاستغراب:

- ما اتصلت؟

- لا!

- شلون ما يخلونك تتصل؟! الحين نخليك تتصل

احضروا جهاز الهاتف .. قال الضابط:

- تعرف رقم أحد؟

- اي اعرف رقم الوالد

اتصل محمد طوق بوالده ليطمئنه:

- الو السلام عليكم .. أنا بخير .. لا تحاتون .. إجراءات بخلصها وبنقلوني..

قطع محمد طوق الاتصال .. كانت مكالمة موجزة من أجل طمأنة الأسرة حول مصيره!

قال الضابط:

- تبغي شيء ثاني؟!

- اي

- شنو!

- متى بتنقلوني .. خلصت تحقيق .. وديتوني نيابة .. خلاص متى بتنقلوني؟

- أنت وين تبغي تروح؟!

- والله أي مكان بتودوني بروح! الحين أنا محكوم فالمفروض «جو» أنا اروح!

- لا! لا! احنه بنوديك «الحوض الجاف» لأنه أقرب إلينه .. عشان أي وقت نبغاك نجي لك .. ما بنوديك «جو»

- مو مشكلة!

خاطب الضابط عناصر الشرطة لإعادته:

- ودّوه!

الفصل التاسع: جو

أعيد محمد طوق إلى غرفته .. كان قد اشتاق إلى سماع صوت صديقه «محمد رضي» .. صوته يشعره بالأمان .. حقاً أن الصديق هو رفيق درب في الطريق .. طريق الحياة..

«محمد رضي» رفيق الدرب والصديق .. وعندما يشعر المرء بوحشة السجن وغربة الحبس بين الجدران الأربعة وخلف القضبان فإن وجود الصديق هو نافذة أمل .. من خلالها ينفذ الدفء!

كان محمد طوق يستأنس بسماع صوت «محمد رضي» وهو ينادي على الشرطي من أجل الذهاب إلى الحمام!

أو عندما ينادون عليه للتحقيق..

صوته وصوت «الصنقل» في قدميه وهو يسير في الممر .. يشعر «محمد طوق» بحالة من الأمان!

صوت «محمد رضي» اختفى! انقطع .. لم يعد يسمع له «حسّاً»!

شعر بالوحشة .. كان يسمع صوته فيشعر بالأنس والأمان .. كان يتساءل في داخله! ترى إلى أين أخذوه! ولماذا لم يأخذوه معه؟!

وفي المساء وعند نشر الظلام ستائره .. جاء إليه أبناء الظلام:

- قوم!

اقتادوه إلى الساحة؛ كان عدد من الدوريات تنتظر وعدد من سيارات الجيب تابعة لقواب «مكافحة الشغب»!

اركبوه سيارة دورية وصعد معه اثنان من الشرطة وتوجه «الموكب» إلى جهة مجهولة بالنسبة له! لا يعرف إلى أين سيأخذوه!

وصل الموكب «الحد» وكان محمد طوق يعرف هذا المكان .. فقد أخذوه إلى هذا المكان من قبل!

قال في نفسه: الحمدلله .. أنا خلاص بقعد برتاح..

ترجل الشرطة .. ضرب أحدهم على الباب وانتظر .. كان «الجو» مشحوناً بالخطر!!

كان بعض المعتقلين موجودين .. لكن محمد طوق وضع وحيداً مقابل الجدار في زاوية وكان المعتقلون في الداخل يقرأون أسماءهم والمعتقل يجيب:

- حاضر

وكلما مرّ أحدهم به أمسك برأسه وأداره يراه وعندما يفعل ذلك يصرخ به:

- ها يالإرهابي! يالقاتل! يالمجرم!

أدرك محمد طوق أنهم كذبوا عليه وأن «التصوير» عرض على شاشة قناة البحرين..

وبدأت مراسم «الاستقبال» لـ«محمد طوق» .. انهال عليه الجلاوزة بالضرب الشديد وآلمه أن الذين كانوا يضربونه باكستانيون مجنسين!

الغرباء القادمون من شرق آسيا يصبحون أصحاب البلد وابن هذا البلد يصبح غريباً في وطنه!! هذه هي محنة الإنسان الشيعي في «مملكة البحرين»!!

كانت الأرض تميد به يسير مترنحاً .. ادخلوه في زنزانة وكان فيها شخص ملتحٍ وشعره طويل؛ قال الشرطي وهو يدفعه إلى داخل الزنزانة:

- هذا سريرك روح اقعد على السرير

وبعد دقائق عاد الشرطي ليسأله:

- تغديت

- لا

- انزين

وغادر الشرطي ليعود وهو يحمل «بارسل» الغداء، فتح الباب ووضعه على أرضية الزنزانة!

- قوم اتغدى

- ما ابغي غدى!

- شلون ما تبغي غدى

- ما ابغي!

أغلق الباب بعصبية ومضى..

جاء ضابط بحريني فتح الباب:

- محمد؟

- اي

- شله ما تبي غدى

- ما ابغي غدى

محمـد طـوق لـم يكـن يعرف عن الحيـاة في السـجن .. لا يعرف أن عدم تناول الطعام يعتبر عمل مخالف لقانون السجن!! يعتبر إضراباً عن الطعام؛ والإضراب عن الطعام قد يؤدي إلى انتكاسـة في صحة السـجين وقد يُنقل إلى المستشـفى؛ وفي هذا تقع المسـؤولية على إدارة السـجن؛ لاحظ محمد طوق حالة من الارتباك في تصرفات الضابط:

- ليش ما تبغي غدى؟!

- ما اقدر على النعمة وريحتي جدي!! أنا ما اقدر اشتم ريحة ثيابي!!

- انزين شلون يعني؟!

- خلوني اتسبح عقب بتغدى! ما تبغون تخلوني اتسبح ما باكل!

قال الضابط:

- ما عندك ثياب؟!

- جيبوا ليي أي بدلة هني .. خلوني اتسبح!

- مو مشكلة!

مضى الضابط وبعد دقائق احضروا له «فانيلة» برتقالية و«سروال» أزرق:

- هذي فانيلة وهاي السروال .. بنخليك تسبح .. بس تجي تتغدى!

- إن شاء الله!

وقبل أن يغادر الضابط قال له محمد طوق:

- لو سمحت بطلو الصنقل..

كان «الصنقل» قد آلمه كثيراً وتسبب ضغطه المتواصل في تآكل الجلد وإحداث جروح!

قال الضابط:

- ببطل الصنقل .. تسبح عقب ما تسبح بركبونه!

- إن شاء الله

قام الضابط بفتح «الصنقل» وشعر محمد طوق بالارتياح؛ شعر بأن جسمه قد تخفف من هذه الأثقال والأغلال؛ ولأول مرّة محمد يدخل الحمام بعد خمسة عشر يوماً من أيام الاعتقال المريرة!

كان الشرطي يطرق عليه باب الحمام بعد كل دقيقة:

- يلا اطلع

كان محمد طوق يسرع في الاغتسال والاستحمام ويحاول استثمار دقائق الزمن .. ارتدى بدلته الجديدة .. عند خروجه من الحمام رأى الضابط أمامه:

- الحين بتاكل؟

- أنا ابغي قبل ما تركب عليي الصنقل .. ابغي اصلّي!

صلّى محمد طوق لأول مرة بعد كل هذه الأيام .. لم يقيدوا يديه بالصنقل وأُدخل الزنزانة..

صلّى داخل الزنزانة وكان الشرطي يراقب من خلال الفتحة وبعد أن فرغ من الصلاة قيد يديه بـ«الصنقل» والافكري:

- تغدى!

وتناول محمد طعامه وجلس على سريره؛ التفت إليه السجين الملتحي:

- أنت مال قضية تفجير سترة؟!

- المفروض!

كان محمد طوق يعني أنهم هم من ألبسوه هذه القضية!

أبدى السجين استغرابه:

- ليش مسوين فيك جدي؟! ليش أنت بالصنقل؟ ليش أنت بالأفكري؟ داخل الزنزانة؟! وفي التوقيف!!

شعر محمد طوق هو الآخر بالاستغراب وسأل:

- ليش أنت ما يسوون ليكم جدي؟! انتون ما يسوون ليكم جدي؟

- لا!

ساوره شك في هوية هذا السجين الذي قال له:

- حالتك تعبانة! واجد تعبان! ما ابغي اطول عليك .. كمل ريّح

- اي انا تعبان واجد!

ألقى بنفسه على السرير مسترخياً يتوخى قليلاً من الراحة بعد كل هذه الأيام العصيبة .. سأل السجين الملتحي عن قضيته:

- شنو قضيتك؟!

وجاء الجواب الصادم بعد أن رفع السجين رأسه وقال وهو يبتسم ابتسامه غامضة:

- قضية الدولة الإسلامية!

شعر محمد طوق بصعقة كهربائية هزّت كل خلايا جسمه!

وانبعثت صرخة في أعماقه: واويلاه! داعش!!! أنا مع شخص من داعش في زنزانة واحدة!!

هذا الكائن المتوحش يقتل أتباع أهل البيت عليهم السلام ويتقرب إلى الله بقتلهم..

كان محمد طوق تحت تأثير الصدمة .. تحطمت تصوراته .. كان يتصور أنّ داعش في العراق والشام! لم يخطر في باله أن يكون هناك

دواعش في البحرين!!

طار النوم من عينيه بالرغم من الإجهاد والإرهاق والتعب .. أمضى ساعات الليل يفكر كيف يقاوم؟ كيف يدافع عن نفسه؟ إذا حاول هذا «المتوحش» مهاجمته وقتله ليتقرب إلى الله بذبحه!

لذلك رأى محمد طوق أن «يسولف» معه .. لذلك هزّ رأسه قال السجين الداعشي:

- بس تعرف بقول لك شيء!

- قول!

- تعرف أن شغلكم واجد نحبه!! التفجيرات الي تصير من عملياتكم الي تتبنونها من عمل المقاومة كلش زينة .. تعرف لو احنه متمكنين في البحرين جان نضرب في الحكومة وفيكم!

كان هذا الداعشي يعني أنه يضرب «الشيعة»!!

شعر محمد طوق بالصدمة .. وحار ماذا يقول لهذا الذي يرى في قتل الشيعة جهاداً في سبيل الله!

أيقن محمد طوق أن هذا الداعشي لن يتردد في قتله ويتقرب إلى الله بسفك دمه!

قال السجين الداعشي له:

- نام!

كان محمد متمدداً في سريره .. التعب يثقل جفنيه والخوف يوقظ

كل خلية من خلاياه العصبية .. كان في حالة تحفز واستنفار .. ظل محمد يترصد كل حركة يصدرها الداعشي المتوحش!!

عدّل من رقاده ليكون في قباله!

كان الداعشي متمدداً فوق سريره وقد وضع يديه على رأسه وقد رفع قدمه ووضعها على الأخرى .. وراح يشدو بنشيد «داعش»:

- سدد رصاصك على الروافض والأعاجم! سدد رصاصك على الروافض والأعاجم!

كانت عينا محمد تغمضان بسبب التعب لكن ما أن تصدر أدنى حركة من السرير المقابل حتى يهب يقظاً متحفزاً!

وهكذا تمرّ الدقائق ثقيلة بطيئة إلى أن سكن «جوّ» الزنزانة وأيقن من نوم ذلك «الوحش البشري» .. هنالك أخلد محمد إلى نوم قلق .. ولكن متى .. قبل ثواني معددودة فقط من ارتفاع أذان الفجر!

حضر رجال الشرطة ونادى أحدهم على الداعشي:

- عبدالرحمن! عبدالرحمن!

- نعم

- ما تقومون تصلون؟!

نهض عبدالرحمن (بن ملجم) للصلاة..

ونهض محمد طوق أيضاً .. واتجه مع الداعشي إلى الباب وفتح الباب .. قال الشرطي لـ«محمد»:

- أنت وين بتروح؟!
- رايح اصلي!
- مو مشكلة بنطلعك تتمسح تتوضأ لكن الصنقل ممنوع نبطله .. تصلي بالصنقل..
- مو مشكلة أصلي بالصنقل

فرش عبدالرحمن (بن ملجم) سجادته .. وأخذ محمد طوق زاوية من المكان ووقف في زاوية على بعد مترين..

كان لصلاته طعم خاص .. استذكر المحن التي مرّ بها ائمة أهل البيت عليهم السلام .. محنة الإمام السجاد .. محنة الإمام موسى الكاظم .. ومحنة السيدة زينب الكبرى «جبل الصبر الشامخ»..

إنها صلاة المواساة!!

لم يكن يستطيع أداء تكبيرة الإحرام لأن «الصنقل» لا يسمح ليديه أن ترتفع إلى أذنيه! امتلأت عيناه بالدموع كسماء مثقلة بالمطر!!

كان السجين الداعشي يقرأ القرآن .. عندما فرغ محمد طوق من الصلاة واستغرق في الدعاء لله رب العالمين .. شعر بشيء غريب عندما احسّ بأن السجين الداعشي يلتفت إليه! تصوّر محمد طوق بأن الداعشي قد مرّ بآية جهاد ويريد أن يهاجم هذا الرافضي ويتقرب إلى الله بقتله! لكنه فوجئ به يقول له:

- تبغي تقرأ القرآن؟
- اي

ناوله المصحف:

- جوّد

فتح محمد المصحف وقرأ بضع آيات من القرآن الكريم وأعاد المصحف إليه:

- مشكور!

بعد حوالي نصف ساعة جاء أحد الشرطة إلى صاحبه في السجن وقال له:

- بتطلع رياضة؟!

- اي بطلع رياضة!

فتح له الباب وطلع إلى الساحة ليلعب .. اكتشف محمد طوق أن صاحبه في السجن ليس هو الداعشي الوحيد .. فهناك العديد من هؤلاء الدواعش!!

سمع أحدهم ينادي على الشرطي الذي امتثل على الفور .. قال له:

- ابغي جقارة!

- إن شاء الله دقايق وبجيب لك!

محمد طوق اشتهى التدخين! وقال في نفسه يبدو أن الأمر عادي جداً .. بعد دقائق عاد الشرطي نفسه فناداه محمد:

- لو سمحت!

وقف الشرطي متسائلاً فقال محمد:

- وين المسؤول؟
- شنو مسؤول؟
- ابغي مسؤول بحريني!
- اصبر!

غاب الشرطي دقائق ليعود ومعه شخص باكستاني مسؤول «الشفت» .. كان يتحدث العربية بصعوبة .. قال له:

- شنو يبي؟!!
- ابغي مسؤول بحريني!

رد الباكستاني:

- أنا مسؤول بحريني .. مافي .. أنا مسؤول!
- ابغي جقارة

فوجئ الباكستاني بهذا الطلب!!

- شنو تبغي نوع الجقارة؟!

راح يعدد له بعض الأنواع:

- تبغي مالبرو! ال ام! دنهل!

قال محمد ببراءة:

- مالبرو

قال الباكستاني:

- قرّب

اقترب محمد طوق من الباب؛ فمد الباكستاني يده وأمسك بـ«محمد» من فانيلته وجرّه إلى الباب بعنف ليرتطم بشدّة!

- هذه الجقارة كفاية؟! لو نطلعك ونعطيك جقارة؟!!

- هذي الجقارة بس ما ابغيها .. بس خلاص!

- كيّفت راسك تمام؟!

- بس تمام!

- روح اقعد!

الدواعش كانوا مدللين جداً في هذا المكان .. كل أوامرهم مجابة!! وكانت الأوامر مستمرة بين دقيقة وأخرى!

في كل ثلاث دقائق ينادي أحدهم على الشرطي السجائر أو الحمام أو الخروج إلى الساحة!

وفي عصر ذلك اليوم جاءوا إليه:

- وين محمد إبراهيم؟

- نعم

- يلا قوم نقل!

قال في نفسه مستبشراً: خلاص نقلوني!

اركبوه في سيارة دورية تابعة لـ«التحقيقات» ولاحظ قوات من

«المرتزقة» ترافقها! وسار «الموكب» متجهاً إلى مبنى «التحقيقات»!

استكمل محمد طوق إجراءات النقل إلى السجن وكانت سيارة مصفحة تنتظر في ساحة مبنى التحقيقات، وفي تصوره أنه سوف ينقل إلى سجن «الحوض الجاف» كما أخبره ضابط التحقيق!

غادر «الموكب» مبنى التحقيقات .. كان محمد طوق في السيارة المصفحة يرافقها عدد من سيارات الجيب المشحونة بقوات «مكافحة الشعب»!

لاحظ محمد طوق طول الطريق وأدرك على الفور أن «الموكب» يتجه إلى سجن «جو» العتيد!

غادر الموكب العاصمة «المنامة» واستوت سيارات الموكب فوق الطريق المؤدي إلى قرية «جو» الساحلية .. قطع «الموكب» مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً باتجاه الجنوب ليصل إلى «سجن جو المركزي» وقد عرف السجن باسم قرية جو الساحلية .. هذه القرية البعيدة نسبياً عن المناطق المأهولة بالسكان .. ما جعلها الخيار الأفضل لإنشاء السجن المركزي منذ عام 1979م هذا السجن يقتصر على السجناء الذكور الذين بلغوا الثمانية عشرة فما فوق وصدرت بحقهم أحكام بالسجن في قضايا سياسية أو جنائية من المواطنين والأجانب على حد سواء!

وكان السجن يكبر عبر مرور الزمن وتضاف إليه المباني باستمرار بدءً من مبنى رقم 1 وإلى مبنى رقم 10 وقد خصص كل مبنى لفئات معينة بحسب العمر أو بحسب نوع الأحكام الصادرة .. فهناك مبنى العزل الخاص بالمحكومين بالإعدام!

تصوّر محمد طوق أن رحلة المعاناة والمرارات توشك على النهاية وسيجد في سجن جو «ربعه» ورفاقه وأصدقاءه!

وضع محمد طوق قدميه داخل ساحة السجن..

لسجن جو المركزي إدارتان؛ الأولى تدعى «إدارة الاستلام» ومهمتها استلام المعتقلين وإنجاز الاجراءات الخاصّة باستلامهم ومن ثم نقلهم إلى الإدارة الثانية ومهمتها تحديد أماكن السجناء بحسب طبيعة الأحكام الصادرة بشأنهم أو بحسب الأعمار وتوزيعهم على «العنابر»..

كان محمد طوق وطوال الطريق إلى السجن يدعو الله سبحانه أن يضعوه مع «ربعه» وتمنى لقاء «صادق» و«جلال» .. وكان يتوقع أنهم سيضعونه في قسم الأحكام الثقيلة!

كان يتمنى أن يلتقي «صادق تقي» و«جلال الوزير» لأن محنة السجن سوف تتضاعف مرارتها إذا ما حكم عليه أن يمضي فترة السجن مع شباب لا ينسجم معهم!

السجن كان يضم خليطاً من البشر من كل الأجناس والمشارب والتوجهات الأخلاقية .. إن مرارة السجن سوف تتضاعف إذا ما قدر له أن يمضي فترة محكوميته مع أناس يتناقض معهم أخلاقياً وثقافياً .. وسوف يصبح السجن جحيماً لا يُطاق إذا سجن مع مجرمين وجناة..

ادخلوه إلى غرفة تحمل لافتة «إدارة الاستلام» .. رأى شخصين هنديين واقفين ينتظران إنجاز اجراءات الاستلام .. وعندما دخل أصبحوا ثلاثة مساجين:

- تعالوا اقعدوا هني!

بعد دقائق نادى أحدهم عليه:

- محمد! قوم!

ادخلوه إلى مكتب وسلموه لافتة مكتوب عليها القضايا التي حوكم بسببها .. لافتة محمد طوق كان مكتوب فيها:

- تجمهر وأعمال شغب وتفجير وقتل وتخريب الأماكن العامة

إضافة إلى محكوميته وكانت 45 سنة .. قال أحدهم وهو يسلمه اللافتة:

- جوّد اللافتة

أمسك محمد باللافتة ووقف أمام الكاميرا لتصويره:

- لف يمين!

استدار إلى اليمين

- لف يسار!

- تعال وقع على حكمك!

وقع محمد طوق على ورقة المحكومية وعلى أساس هذه الورقة وطبيعة الحكم يتم تصنيفه داخل أحد المباني..

اخرجوه من الغرفة ليجلس على أحد الكراسي وجاء دور الهنديين .. جلس محمد طوق في الممر المزوّد بباب .. وفي الأثناء فتح الباب ليدخل شرطي باكستاني يتطاير الشرر من عينيه .. وفي ضخامته كان

يشبه الدب الهندي!

تشاءم محمد طوق من رؤية طلعته التي لا تبشر بالخير أبداً!

عندما دخل نظر إلى محمد طوق نظرة حارقة! حتى أن محمد طوق احتمل أن يقوم بمضايقته وشتمه..

كان الشرطي الباكستاني يحمل الأفكري وقيد سلسلة، وصل إلى الهندي الأول .. افلت الأفكري على رجليه وهكذا فعل مع الثاني .. ثم وصل الدور إلى محمد فافلت على رجليه القيد ثم داس ببسطاله الثقيل على قدمي محمد وراح يهز رأسه الضخم متوعداً!

دخل الغرفة ليرى أين وصلت اجراءات الاستلام! عرف محمد طوق اسم الشرطي الباكستاني «محمد رضوان» ووظيفته تنحصر في تسليم الزي الموحد الخاص بالسجناء .. وهو عبارة عن قميص رصاصي وبنطلون .. هذه هي مهمة هذا الشرطي الدب! خرج من الغرفة وخاطب السجناء الثلاثة:

- قوموا خلصوا اجراءاتنا! قوموا ثلاثتكم!

نهض السجناء الثلاثة وتبعوه وهو يتجه نحو غرفة تبديل الملابس لارتداء الزي الموحد!

ما إن دخلوا الغرفة حتى أغلق الباب واستدار نحو محمد طوق ليوجه إليه صفعة جبارة! سقط محمد طوق أثرها أرضاً!

- قوم!

السجينان الهنديان كانا يرتجفان رعباً من هول الصفعة! كان يتوقعان

أن ينالا مثلها!

تحطم قلب محمد طوق وهو يسمع صراخ هذا الغريب .. كيف يبطش بابن البلد .. هذا الباكستاني المجنس يعامل الجناة معاملة طيبة! يعامل الهنود الوافدين هذه المعاملة ويعامله بهذه القسوة؟! جلس الدب الباكستاني على الكرسي وراح يعذب ابن البلد:

- اقعد! قوم! اقعد! اقوم!

عشر دقائق متواصل ومحمد طوق يواصل القيام والقعود إلى أن شعر بالإعياء..

أمره بارتداء ثياب السجن وقال له:

- هذي البداية!

وبعد أن ارتدى بدلة السجن:

- يلا مش!

قدماه لم تعد تساعدانه على الوقوف فضلاً عن المشي! سيارة الباص واقفة؛ وكان الدب الباكستاني هو السائق .. صعد السجناء الثلاثة واستقروا في سيارة الكوستر!

الشرطي الباكستاني يتصل بأحد زملائه:

- مال تفجير سترة جابوه!

ظهر شرطي يركض باتجاه السيارة .. عرف محمد طوق أنهم كانوا بانتظاره .. تحركت السيارة إلى الإدارة الثانية .. وهناك قام الشرطي

الباكستاني بإنجاز أوراق السجينين الهنديين لكي يتفرغا لـ«محمد طوق»!

اقتاد الشرطي الباكستاني محمد طوق إلى إحدى الغرف:

- دش!

أدرك على الفور أنها حفلة استقبال وأن هذه الذئاب المتوحشة كانت تترقب وصول «الفريسة»!

كان بعضهم جالسين على الكراسي وآخرون كانوا جالسين إلى المنضدة .. أربعة على الكراسي واثنان إلى الطاولة .. كانوا جميعاً من الغرباء المجنسين .. باكستانيون ويمنيون وسوريون!! ما إن وضع قدميه داخل الغرفة حتى تخطفته الذئاب!!

انقضوا عليه جميعاً .. الشرطي الباكستاني كان يلعب «كاراتيه» فاتخذ الأسير كيساً للتمرين!

تلقى عشرات القبضات المشدودة وانهالت عليه الهراوات .. كانوا يضربونه على وجهه ورأسه!

تمنى الموت .. صرخ من أعماق نفسه الجريحة: أين أنت أيها الموت الرحيم!! تمنى أن تطلع روحه!

وفي الأثناء دخل شخص سوري اسمه أحمد فريح .. سأل:

- منهو هذا؟!

- محمد مال سترة

صفق بيديه وخاطب محمد طوق:

- انتظرك من يوم حطوا الفيديو! قاعدين ننتظرك

كان يحمل في حزامه «حديدة» فتحها وراح يعذب بها الأسير المقهور .. صرخ أحمد فريح:

- أنا ما اضربك لأن أنت مفجر!! ما اضربك لأن أنت طالع ضد النظام! اضربك لسبب واحد مو أكثر! أنت شيعي!! أنت رافضي! ما يهمني فجرت ما فجرت .. اضربك على أن أنت شيعي!

كانوا ينهالون عليه جميعاً بالضرب .. كان محمد طوق في تلك اللحظات العصيبة يتمنى الموت .. يخاطب روحه أن تخرج أن تغادر جسده المحطم! أصبحت المنية المرّة أمنية حلوة!! وهذه ذروة ما يصل الإنسان المعذّب!

الذين كانوا يتفرجون كانوا يحثون الجلادين:

- أقوى! أقوى!

محمد طوق لا يستوعب كل هذا السقوط! كل هذا الانحطاط! كل هذه الوحشية! كيف يعقل أن ينحدر البشر إلى هذه الدرجة من الهمجية والوحشية! كيف؟!! أجل كيف!!

تحول محمد طوق إلى حطام ملوّن .. آثار زرقاء وبنفسجية وبقع سوداء وجراح دامية!

كان يتهاوى على الأرض فينهضونه للضرب وأخيراً قفز أحدهم ورفسه بكل ما أوتي من وحشية فارتطم رأس الضحية بالجدار القاسي وانشق الحاجب عن جرح فوار!!

وهنا صاح أحدهم:

- بس! بس لا أحد يضربه! خلوه خلوه!

غادر الشـرطي الباكسـتاني الدب وعاد وهو يحمل قدح الماء .. أصبح القميص بلون الدم .. راح يغسـل وجه الضحية ويمسـح الدماء بالمناديل الورقية!

وقال للضحية:

- جوّد الكلينكس! حطه على عيونك!

تصوروا أن العين قد «انبطت»! لهذا انسحب أحمد فريح السوري من المشهد مع أنه كان «وكيل القوة» في الإدارة..

أحضر الشرطي الباكستاني قميصاً آخر:

- قوم البسه

وأردف:

- لا تشيل ايدك عن عيونك .. الدم لا ينزل

اقتـاده إلـى الخـارج وأركبه الباص؛ وكان السـجينان الهنديان جالسـين فـي البـاص وقـد مضـى على جلوسـهما في الباص سـاعتين .. قـال محمد طوق في نفسه: الحمدلله

أخـذوه إلـى العيـادة؛ وخامـره شـعور غريـب بعـد أن رأى عـدداً مـن المعتقليـن .. عـرف بعضهـم لكـن الجميـع كانـوا مطرقين برؤوسـهم إلى الأرض ولا يجرؤ أحدهم على النظر إلى محمد طوق .. وكان واضحاً أنهم

قد شددوا عليهم في الكلام معه! وكان الدب الباكستاني واقفاً في مقابل محمد لمنعه من الحديث مع أي أحد! لم يتكف بهذا وإنما راح يشهر به ويخبر كل شرطي يمر من أمامه:

- تعرفون هذا منهو؟

- لا ما نعرفه!

- هذا مال سترة الي فجر تفجير سترة!!

فكانوا يحدون نظراتهم إليهم!

ادخله على الدكتور وتصور محمد أنه سيقوم تضميد جراحه لكن الدكتور لم يكترث لذلك وسأله:

- أنت مريض؟ فيك سكري؟ فيك شيء؟!

- لا

- فيك مرض مزمن؟

- لا

أعادوه إلى السيارة .. أراد أن يجلس على المقعد فمنعه الشرطي:

- لا! أنت ممنوع تقعد! أنت اوقف في نص الباص! ممنوع تجود الكراسي .. حتى لو بتطيح!

راح الشرطي الباكستاني يقود السيارة بطريقة تدفع محمد طوق إلى أن يمسك بالكرسي حتى لا يسقط فيقوم ذلك الوغد المجنس الحقير ويضرب ابن البلد الأصيل بقبضته على بطنه أو صدره!!

أخـذوه إلـى مبنـى الهنود .. في الطريق إلـى المبنى قال الوغد يحاول إهانته:

- تعرف النشيد الوطني؟
- لا مو حافظنه!

صرخ به:

- أنت تعرف النشـيد مال إيران! تعرف النشـيد مال العراق! بس ما تعرف النشيد الوطني مال البحرين! يا مجرم! يا خاين! يا إرهابي! أنا يقول وأنت ردد ورايي..

راح الوغد يقرأ النشيد الوثني واضطر محمد طوق إلى أن يردد كلمات النشيد!

قال:

- الحين دور التعييش!!
- ؟؟؟
- اسمع أنا بقول نار تقدح بالميدان! أنت تصارخ تقول: عاش عاش بو سلمان!

قـام الوغـد يزعق بهذه الكلمات السـخيفة .. بعدهـا انتقل إلى إهانة أكبر .. يؤيد منه أن يقبل بسطاله!

- طالع الجوتي! انزل حبّه!

هنا قرر محمد طوق الاستشهاد ثأراً لكرامته؛ كل آثار التعذيب الوحشي

سوف تـزول بمرورالزمـن أمـا آثار التعذيب النفسـي فسـوف تبقـى ترافق السجين والمعتقل مدى الحياة!

نظر محمد طوق بحدّة إليه وقال بغضب:

- ما انزل!

- شنو؟!

- ما انزل خلاص!

قالها واستعد للمعركة المصيرية .. مرحباً بالشهادة!

صرخ به:

- ما تنزل؟!

- ما انزل احب رجولك .. مستحيل!!

- بنرجعك

- الي بصير يصير! ما انزل احب رجولك!

أصبحـت السـيارة قريبة من مبنى «الأمـل» وهو المبنى رقم 1 .. فقال للسائق:

- ارجع! ارجع! روح كبينة التفتيش

تقع مقابل مبنى الأمل هذا..

قال محمد طوق في نفسه: خلاص خله الي بصير يصير!

ادخلـه إلـى الكبينـة .. كان فيها أربعة أشـخاص، كان محمد طوق في

غايـة الإجهـاد ويـكاد يهـوي علـى الأرض مـن شـدة الضعـف .. كان يجر قدميه جرّاً..

قال أحدهم وهو ينظر إلى حالته المأساوية:

- شنو فيه؟

- تعرفون منهو جايب ليكم؟

- منهو؟

- هذا الي فجر تفجير سترة!

نظر أحدهم وكان سوري الأصل إلى صاحبه مستفسراً:

- تفجير الي في سترة .. ويش الي ماتوا فيه؟

- باكستانية

التفت إلى الشرطي الباكستاني وقال:

- الي ماتوا باكستانية ما لينه علاقة به! شيله!

- لا ما بشيله! لازم اكسر راسه

قـال ذلـك وراح يضربه على رأسـه .. أوقفه إلـى الجدار وراح يوجه له ضربـات كاراتيـه يسـتهدف بهـا صدره وبطنـه وقدميه! وفـي كل مرّة كان يسقط على الأرض صريعاً فينهضه .. وكان الأربعة يتفرجون إلى أن نطق أحدهم:

- بس! شيله شيله! ودّه!

توقـف الضـرب بعد سـاعة كاملة .. كان التعب وحـده هو من يوقفه عن الاسـتمرار في الضرب والركل والرفس! هؤلاء ليسـوا سـوى مسـخ لهم شكل البشر وليسوا ببشر!

يصرخ:

- تنزل تحب رجولي!

- لا! ما بنزل! اقتلني ولا انزل

كيـف يطلـب هـذا الأحمق مـن ثائر أن يقبـل حذاء الغربـاء .. محمد طوق شاب باسل خرج ثائراً من أجل كرامة وطن مقهور .. خرج ثائراً من أجل كرامته..

أدرك الأحمق أن هذا الشـاب النحيل القوام ينطوي على جبل شـامخ! أنه على استعداد لمعانقة الموت في سبيل كرامته..

شعر الأحمق بالهزيمة لهذا صرخ بوجه الأسير الأبي:

- يلا مش الباص

غـادر محمـد طـوق الكبينة وهو يتماسـك بالجدار حتـى لا يهوي على الأرض صريعـاً .. انتهـى جـدار الكبينـة واضطر محمد طـوق أن يحبو على الأرض باتجاه الباص! ركب الباص حبواً .. أعادوه إلى المبنى وعندما وصل الباص قام السائق بإعلام الوكيل من خلال صوت «الهرن» .. خرج الوكيل وكان أردنياً مجنسـاً اسـمه حمزة، فتح الشرطي الباكستاني «الجامة» قال للوكيل:

- جايب سجين عندكم!

كان الوكيل قد تسلم رسالة حول الموضوع فقال:

- محمد إبراهيم؟

- اي

- خله ينزل

تصور أن يقوم السجين ويترجل كأي إنسان عادي؛ قال الشرطي لـ«محمد»:

- قوم انزل!

نزل محمد طوق وهو يحبو .. كان عبارة عن حطام بشري .. شعر الوكيل بالخوف من المسؤولية؛ فقد يموت هذا السجين .. أن حالته لا تبشر بخير! لذلك قال للسجين:

- وقف! وقف!

والتفت إلى الشرطي الباكستاني قائلاً:

- شنو جايب ليي أنت؟!

وخاطب السجين المقهور:

- أنا قالوا ليي بجيبون سجين! التقرير الي جاييينه سليم! ما بجيبون ليي واحد معذّب!

شعر محمد طوق بالألم يعتصر قلبه .. كيف يكون مصير ابن البلد بأيدي المجنسين الغرباء .. ليسوا غرباء فحسب بل طائفيون حاقدون تكفيريون!

تجمعت في عينيه دموع على البحرين!!

قال الوكيل الأردني:

- ما استلمه! اسوي عليك تقرير بأن أنت عذبته وجابوه الي جدي!

قال الشرطي الباكستاني للوكيل:

- أنت كلم الإدارة أنا مالي خص .. أنا بس أوصله!

تملص الباكستاني الحقير وأنكر أن يكون قد قام بتعذيب السجين المكبل بالأغلال .. قال للوكيل:

- أنا ما ليي خص! أنا بس انقله وأنت تتصرف ويه الإدارة!

رد الوكيل قائلاً:

- ما يدش المبنى!

ثم التفت إلى محمد طوق:

- اقعد عند الباب

جلس محمد طوق عند الباب خارج المبنى وغادر ليتصل .. بعد مدّة وصل باص ستة عشر راكباً .. قام الوكيل ومعه شرطي بمساعدة محمد طوق على ركوب الباص..

كانت الشمس قد جنحت للمغيب وقد بقي على «شفت» الوكيل الأردني ساعة واحدة فقط!

اتجه الباص إلى العيادة الطبية وهناك حضر الوكيل حمزة الأردني الذي خاطب محمد طوق:

- شمسوين فيك؟ منهو الي معذبنك!!

كان محمد طوق يشعر باليأس من هذا النظام الجائر وقد أدرك أنهم جميعاً يشتركون في جريمة قهر الشعب البحريني! كلهم متشابهون .. لذلك أنكر محمد طوق من أنه قد تعرض للتعذيب:

- أنا مريض

- شيل ايدك

رفع السجين يده وظهر الجرح ينزف دماً عبيطاً .. في العيادة وضعوا على حاجبه «لصقه»!!

عينه اليسرى منتفخة ومسدودة بسبب الانتفاخ! كل هذا وهو يقول أن المريض! لم يتعرض للتعذيب!

كل خلية في جسمه المحطم كانت تضج من الألم .. عاد الوكيل بعد أن تم تطهير الجروح بالكحول .. جاء يسأله مرّة أخرى:

- ها محمد! كيف المعاملة؟

- شلون يعني؟

- شلون المعاملة كويسة؟

- الحمدلله كويسة!!!

بعد استكمال العلاج قاموا بتقييده وأعادوه إلى الباص وذهبوا به إلى الإدارة لأن حمزة الأردني يرفض استلامه .. لا يريد تحمل مسؤولية ما يحدث لهذا السجين الذي تعرض للتعذيب الشديد..

أعادوه إلى نفس أولئك الذئاب الذين نهشوا لحمه وتخطفوا جسمه!

كيف يمكن أن يقدم إفادة ضدهم؟! هددوه إذا تكلم ضدهم .. قالوا له:

- لا تقول احنه ضاربينك! في الإفادة تقول إن أنت ضارب راسك في أي مكان .. في السرير .. في أي مكان بس مو احنه ضاربينك..

أحضروا الكاميرا .. الذئب الذي نهشه هو من أحضرها .. قال له بفظاظة:

- تكلم!

أراد محمد طوق إنهاء المهزلة فقال له بأنه هو من ضرب رأسه بالسرير:

- أنا في التوقيف ضربت رأسي في الحديد

سجل إفادته ووقع عليها .. أفاد محمد طوق بأنه هو من قام بتعذيب نفسه وهو من ضرب السرير برأسه وأنه لم يتعرض للتعذيب من أي أحد!!

تركوه في «الكونتر» لحين انتهاء «شفت» الوكيل حمزة الأردني وحضور الوكيل الثاني .. تركوه جالساً على الأرض في «كونتر» الشرطة وكانت أصوات الشباب تصل إلى أذنيه .. الشباب لم يدخلوا إلى زنازينهم بعد .. لذلك كان يسمع أصواتهم..

بعضهم كان قد سمع بقدوم محمد طوق لذلك يتذرعون بمختلف الذرائع للوصول إلى الكونتر وإلقاء نظرة للتأكد من وصول «محمد طوق»!

جاء أحدهم بحجة لقاء الوكيل! لكنه لم يوفق إلى رؤية محمد طوق لأنه كان متهالكاً إلى الأرض!

جاء آخر بحجة فتح «الستور»..

- نشيل مال النظافة!

وجاء ثالث ليسأل عن وجبة العشاء!

- متى يجيبون العشى؟

كانوا يختلقون مختلف الأعذار من أجل إلقاء نظرة على محمد طوق أو التأكد من مجيئة!

استطاع أحدهم واسمه «حسن معيوف» من دخول «الكونتر» .. رفع محمد طوق رأسه ونظر إليه لكنه شعر بالصدمة لأن «حسن معيوف» صديقه الحميم .. تظاهر بعدم الاكتراث وكأنه لا يعرف محمد طوق أبداً!! شعر بالألم!! في تلك اللحظات لم يكن يعرف أن حسن معيوف جاء ليتأكد من وصوله ولكن لو سلّم عليه فإن ذلك يكلفه غالياً!

قال في نفسه: شنو الموضوع؟ ليش غاور!!

تبادلا النظرات وغادر حسن «الكونتر» ليعود بعد ثواني فقط .. دخل «الكونتر» وكان حمزة الأردني جالساً .. نظر الشرطة إليه والوكيل أيضاً كان يحدق فيه .. اتجه نحو محمد طوق وجثا على ركبته وقبل صديقه «محمد طوق» من أعماق قلبه ثم نهض .. قال الوكيل له:

- تعرف شنو عقوبتها هاي؟ عقوبتها انفرادي! بس ما ابغي اسوي ليك مشكلة .. يلا روح!

هنالك أدرك محمد طوق لماذا «غاور» حسـن معيوف وتظاهر بأنه لا يعرفه من قريب ولا من بعيد!

شـعر «محمـد طـوق» بنبع من السـعادة يتدفـق في أعماقه .. نسـي تعبه .. نسي جراحه..

وصـل الوكيـل الجديد الذي يحل محل حمزة الأردني؛ كان أيضاً أردنيا مجنساً صغير السن .. مغرور جداً ينظر باستعلاء .. قال حمزة له:

- هذا جديد عشان تستلمه وتدخله داخل!

نظـر الأردنـي الصغيـر إلـى محمـد طـوق نظرات حـادة قاسـية .. قال للسجين بعد استلامه «الشفت»:

- ليش قاعد؟

- ما اقدر اوقف!

أمره أن يتساند إلى الجدار:

- قوم اوقف تستند على الطوف وتوقف!

تماسك بالجدار ونهض .. قال الأردني:

- أنت مال قضية سترة!

- اي!

حـاول أن يحقـق معـه فـي هـذه القضيـة وأدرك محمـد طـوق أنه لا يعـرف أي شـيء عن قضية سـترة؛ ومـن المؤكد أنه لم يشـاهد ما عرضته قناة البحرين حول محمد طوق وقضية التفجير في سترة!

سأله عن دوره في التفجير فقال:

- كنت اراقب

- تراقب شنو؟

- اراقب مدخل المنطقة نفسها لين في أجياب يدشون أو يطلعون!

- الحين تبغي تدش داخل ترتاح

- اي

قال أحد الشرطة:

- سيدي طلبتك!

- قول!

- ابغيه يسهر ويايي الليلة! ابغي هذا يسهر وياي!

شعر محمد بالصدمة .. التفت إليه وراح يحدق في هذا الشرطي .. تصور محمد أنه يريد إيذاءه نفسياً لهذا شعر بالإحباط عندما قال الأردني الصغير:

- ما طلبت شيء! الليلة عندك .. سهرتك وياه!

والتفت إلى السجين المقهور:

- شو اكلت؟ فلقة؟

- اي!

- ما اشوف! مو مبين عندي

- طالع عيوني

- هم ما اشوف

نزل رقبته ليريه الورم .. قال الأردني الصغير:

- هم ما اشوف

استدار محمد ورفع قميصه .. هنالك قال الأردني:

- ها! هيك تمام هيك .. زين

التفت إلى الشرطة:

- دخلوه المبنى!

شعر محمد طوق بالارتياح .. بعد دقائق سيلتقي الشباب .. سيلتقي أخوانه .. ربما لا يعرفهم شخصياً لكنهم شباب المقاومة وهو يشعر بالانتماء الروحي لهؤلاء الشباب البواسل..

إنه يشعر بالأمان بين ظهرانيهم فهم ناسه وأهله ووطنه وهويته وانتماؤه الثقافي والاجتماعي!

تساند إلى الجدار وهو يدخل المبنى وشعر كأنه يعود إلى بيته وديرته!

هكذا كانت مشاعره وهو يقفو أثر الشرطي متسانداً إلى الجدار!

وصل غرفة رقم واحد .. كانت الأبواب مقفلة والمعتقلون كلهم داخل الزنازين .. توقف الشرطي ونادى:

- قوموا استقبلوا الضيف الجديد!

كان الشباب على علم باحتمال وصول محمد طوق، لذلك كانوا كلهم واقفين يترقبون ولذا عندما فتح الباب ووقعت أعينهم على مشهد محمد طوق وهو يسير بهذه الطريقة شعروا بصدمة..

دخل محمد طوق وكان يتفادى أن «يحتضنه أحد من شدّة آلامه»!

استقبله الشباب يقبلونه ويقولون:

- الحمدلله على السلامة

- الله يسلمك

أدرك الجميع من صوته الواهن مدى شعوره بالإجهاد والإرهاق، عرف محمد طوق بعض الشباب كانوا من سترة:

- الحمدلله على السلامة أبو جاسم!

- الله يسلمك

هفا قلبه إلى أحدهم واحتضنه وشعر بأنهما روح واحدة، قال الشاب الذي احتضنه:

- اكو مبرز ليك ثياب .. فيك شدّة تدش الحمام تتسبح؟!

بالرغم من التعب الشديد قال محمد:

- اي ابغي ادش اسبح

دخل الحمام وكان الشاب الشهم قد أحضر له ثياباً نظيفة وصابون .. بعد الحمام كان الشاب ينتظر عند الباب:

- خلصت؟

- اي خصلت!

خرج من الحمام وجلس وقد بدّل ملابسه .. قال يبشرّه:

- صادق تقي موجود ويانه

- زين!

- انت الحين تعبان .. تعشى!

كان قد جهز له عشاءه..

- ما ابغي اتعشى ما ليي نفس

أصرّ عليه أن يتعشى:

- لو تأكل لقمتين!

تناول محمد طوق عشاءه فقال له:

- قوم ارتاح نام!

قال ذلك وراح يساعده ليسترخي على السرير الموجود في الزاوية..

جلس محمد طوق على السرير .. كانت الساعة تشير إلى الثامنة! قال أحد الشباب يعرفه على الشباب في الغرفة:

- اسمي «س.ش»

وراح يشير إلى الشباب:

- أبو نبأ! إبراهيم شديد! أحمد العرب! أبو محمد!

وهنا اكتشـف أن الشـخص الذي هفا قلبه إليه واحتضنه وشـعر نحوه

بشوق جارف وحب شديد اسمه «أحمد العرب»!!

وفي الأثناء سأله أبو محمود على حين غرّة!

- شنهو الي جابك هني؟! ليش أنت مكانك الحين السجن؟!

نظر إليه محمد طوق وقال:

- «علي» جابني! لأجل عيون علي جيت هني!

لم يكن أبو محمد يعرف ماذايقصد محمد طوق!! كان يقصد الشهيد «علي فيصل»..

«لأجل الشهيد علي فيصل جيت هني!!» قال ذلك في نفسه..

تساءل أبو محمود:

- وين علي؟

- مو موجود راح!

- راح وخلاك

- راح وخلاني

حتى هذه اللحظة لم يردك أبو محمود ماذا كان يقصد محمد طوق .. كان أبو محمود يتكلم في وادٍ ومحمد طوق يتكلم في وادٍ آخر!! قال له:

- اي خلاني في السجن وراح!

- محظوظ!!

- اي هو المحظوظ واحنه الي ما صار لينه نصيب في روحنه!

كان أبو محمود يظن أن علي ذهب إلى إيران ونجا بروحه من ويلات ما يجري في البحرين..

وهنا أراد «س.ش» تلطيف الأجواء بعدما لاحظ الإرهاق بادياً على ملامح محمد طوق لذا قال:

- محمد! تعبان أنت؟

- اي!

- ترى ما خلصوا وياك .. تفكر خلاص دخلوك الزنزانة إن ما يجونك!!

- شلون يعني؟!

- أنت الحين بيخلونك نص ساعة .. ساعة ويجون ليك! يجون يطلعونك ويودونك في كوستر مال «شغب» عند العيادة!! الحين قاعدين في الكوستر ومبند ومن غير اي سي ومعرقين تعابة ومتضايقين فبطلعونك إليهم بعد شوي هدية يسهرون وياك الليلة!!

شعر محمد طوق بالصدمة!! هل هذا معقول:

- من صدق قاعد تتكلم؟!

قال أبو محمود ممعناً في لعبته:

- اسأل الشباب!

وأشار إلى «أ.ب» مستشهداً إياه:

- مو بجون عقب شوي؟

قال «أ.ب» مؤيداً:

- اي تفكر خلصت؟! بعد ساعة يمكن يجون ليك ويطلعونك ويودونك لدلاك «الشغب» يطلعون عن قولته التعب والحر والضيقة الي هم فيها كلها فيك!!

أصابه دوار مما يسمع من هذا الكلام!! هل سيعيدون مسلسل تعذيبه وضربه؟! بقي ساهماً يفكر بينما كان الشباب منشغلين يتجاذبون أطراف الحديث و«السوالف»!

وفي الأثناء جاء الشرطي وقال:

- فين الجديد؟!

وهنا شعر محمد طوق بصعقة كمن لدغته الأفعى!!

لذلك لم يرد على سؤال الشرطي وقد تسارعت دقات قلبه الفارغ!

أدرك «س.ش» أن اللعبة «تمشي» على ما يرام لذا أشار إلى محمد طوق بيده قائلاً:

- هذا الجديد

كان «س.ش» يبتسم؛ فيما رفع محمد طوق رأسه لينكر أنه الجديد!!

قال الشرطي:

- أنت الجديد؟!

اضطر محمد طوق للقول:

- اي

- البس الدريس وقوم!

أيقن محمد طوق بصدق ما قاله «س.ش»!!

ارتدى محمد طوق «الدريس» مستسلماً لقدره!

وقد اجتاحه شعور بالإحباط .. فيما كان «س.ش» يواصل ابتسامته استنكر محمد طوق في داخله هذا الموقف!!

خرج محمد طوق يجرجر نفسه بعناء .. لا يستطيع المشي وقد تساند إلى الجدار..

أمسك به الشرطي وقاده إلى خارج المبنى .. كان يريد أخذه إلى العيادة .. وكان محمد طوق مطرقاً برأسه مستغرقاً في هواجسه كيف له أن يتحمل الضرب والتعذيب؟!

عندما رفع رأسه شاهد «الكوستر»!! فأيقن بوقوع المصائب والعذاب؛ وفي هذه اللحظات قال الشرطي:

- لف مني على اليمين!

وظهر له باب العيادة!!

خامره شعور بالارتياح!! بالرغم من الجو الحار فقد كان يتصبب عرقاً .. راح يجفف عرقه وهو يدخل العيادة! هنالك أدرك محمد طوق أن كل ما دار من كلام كان مجرد استقبال من الشباب للوافد الجديد!!

كانت مجرد مزحة من «س.ش»!

بعد إجراء فحوصات حول الضربة في عينه اليسرى .. فيما إذا كانت

تحتاج إلى علاج أم لا .. أُعيد محمد طوق إلى زنزانته مع الشباب..

ما إن وقعت عيناه على «س.ش» حتى ابتسم فيما انفجر «س.ش» ضاحكاً مع «أ.ب»:

- ها! خفت

حاول محمد طوق إنكار كل ما «صاده» من مشاعر الخوف والقلق:

- لا ما خفت

- احنه نشوف ألوانك تغيّرت .. نشوفك معرّق واحنه قاعدين في الايسي!! وأنت معرّق!

وراح «س.ش» يبرر مزحته المخيفة!!

- كنا نمزح وياك وأنت أخونا

هنالك ابتسم محمد طوق وهو يقعد على السرير وبعد حوالي عشر دقائق اطفأت الأنوار في جميع الزنزانات، كان ذلك في الساعة التاسعة والنصف تماماً!

محمد طوق ما يزال جالساً على السرير وهو ما يزال يشعر بالإجهاد والإرهاق والتعب!

تمدد الجميع كل في سريره ما خلا محمد طوق الذي بقي جالساً .. كان سرير «أحمد العرب» فوق سرير محمد طوق، فأطل عليه برأسه وقال:

- انبطح ريّح!

يبدو أن أحمد العرب كان يراقبه في كل حين؛ تمدد محمد طوق في سريره .. لكن آلام ظهره منعته .. نام على يمينه فمنعه الألم .. نام على يساره .. لم يستطع .. وبقي يتقلب فوق سريره كالملدوغ! اضطر إلى أن يجلس .. لا يستطيع أن يتمدد في فراشه!

انتبه أحمد العرب إلى حالته .. اطلّ عليه من فوق:

- شفيك؟ تتألم؟!

- اي مو قادر انام!

- قوم!

نزل من فوق سريره واستخرج «كريم» من سريره وقال لصاحبه:

- انبطح!

تمدد محمد فوق سريره وراح يدهن ظهره بالكريم و«يهمزه»!

شعر محمد طوق بالارتياح:

- قوم ارتاح الحين!

تمدد محمد في سريره يتقلب يميناً ويساراً .. كل خلية من خلايا جسمه كانت متيقظة .. لم تغمض عيناه .. وكان منتبهاً تماماً!

استيقظ أحدهم ونزل من فوق سريره العلوي وذهب إلى الحمام؛ وبعدما عاد فرش سجادته وراح يصلي؛ تصوّر محمد طوق أنه وقت صلاة الصبح .. جلس فوق سريره وسأل:

- اذّن؟

- لا لا! ما اذّن .. ريّح لين اذّن بقعدك..

كان قـد نهـض لصـلاة الليـل .. وبعد أن فـرغ من الصلاة اسـتغرق في قراءة القرآن الكريم ثم راح يوقظ بعض الشباب:

- «س.ش»! يلا قوموا صلاة الليل!

تولّد لدى محمد طوق انطباع أن شباب هذه الزنزانة من رهبان الليل!

قبل صلاة الفجر أيقظه أحمد العرب:

- قوم تمسح .. الحين بيأذن!

الصلاة داخل الزنزانة .. والأبواب لا تفتح إلّا في الساعة السابعة:

- السـاعة 7 بيطلعونـه .. ببطلـون البيبان علينـه بيطلعونه «الفنس» حـق نتمشـى .. الحيـن أنـت بتطلـع الشـباب بشـوفونك بجـون يسلمون عليه وأنت بتشوف الي تعرفهم هني..

فـي رأس السـاعة 7 فتحـوا الأبـواب .. غادر محمد طـوق الزنزانة إلى الممـر .. فـي نهايـة الممر الغرفة رقم 6 .. في هذه الغرفة «صادق تقي» .. الشـباب يغـادرون إلـى «الفنس» أمـا محمد طوق فقـد كان يتطلع إلى الغرفة 6 .. راح يتمشى نحوها وكانت خطواته واهنة .. ابتسم له صادق تقي الذي استقبله بابتسامة عريضة وقال متمازحاً:

- ويش سوو فيك .. كسروك! رضّوك! كسروا رأسك!

- لا! ما يقدرون .. إن هذلين يكسرون رأسي

- تعال خلنه نروح نقعد في «الفنس» مو نتمشى!

- مش

كان الشباب وهم يخرجون إلى الفنس يلقون التحية على محمد طوق:

- الحمدلله على السلامة! الحمدلله على السلامة!

عرف بعضهم ولم يعرف البعض الآخر!

كان الشباب يتمشون .. كل اثنين أو كل ثلاثة مع بعض وكان بعضهم يمارس رياضة الجري .. سأل محمد صاحبه في السجن:

- أنت شنو تسوي؟

- نلعب رياضة! احنه الصبح .. بداية الأيام كان في برنامج .. أنا ساعة الصبح من 7 إلى 8 اطلع فنس والعصر من 3 إلى 4 نطالع التلفزيون .. بس هذا الوقت وهم يفتحون التلفزيون فأنت تكون مخيّر! تروح الفنس أو تروح التلفزيون!

كان محمد يشعر بأن صادق تقي من أقرب الأصدقاء إلى قلبه لذلك قال له:

- عجل أنا نفسك .. الصبح بروح وياك نلعب رياضة عقب ما أصير زين .. العصر بنروح نطالع التلفزيون!

صادف وصول محمد طوق إلى سجن «جو» بعد مرور ستة أشهر على انتفاضة سجن جو؛ وما تزال تداعياتها مستمرة تلاحق السجناء من خلال استمرار «الضربة الأمنية» .. التضييق على السجناء ما يزال مستمراً .. السجناء تتعرضون للضرب لمجرد كلمة .. أحياناً يقتادون بعضهم

لـ«وجبة تعذيب»!

حملات التفتيش مستمرة ليس للبحث وإنما لاستفزاز السجناء وبعثرة أغراضهم والعبث بها!!

بعد الانتفاضة تمت مصادرة أشياء كثيرة وفي طليعتها «النقال»..

وعادة ما تتم حملات التفتيش في الساعة الثانية بعد منتصف الليل! طبعاً هم يحققون هدفاً آخر هو الإزعاج والإيذاء!

وحملات التفتيش هذه ينفذها سوريون مجنسون معروفون بحقدهم على الشيعة!

وعلى مدى نصف ساعة تقريباً يبعثرون أغراض النزلاء ويغادرون الزنازين انقاضاً مبعثرة يستغرق الشباب ساعات طويلة لإعادة كل شيء إلى سابق عهده!!

يبعثرون الكتب بما في ذلك كتاب الله العزيز! وفي كل مرّة عندما تكون هناك حملة تفتيش يطلبون من السجناء مغادرة الزنزانات ثم يبدؤون عملهم في «عفس» الأغراض وبعثرة الكتب .. بما في ذلك المصحف الشريف!

استمرت الأوضاع المتشنجة طويلاً .. وخلالها كانت الأبواب تُغلق على مدى 22 ساعة ولا تفتح إلّا مرتين، ساعة في الصباح وساعة في وقت العصر!

وهناك وقت للاتصال ضمن جدول يضعه المرتزقة .. لكل شخص يومان في الأسبوع .. حددوا لـ«محمد طوق» يومي الاثنين والخميس

للاتصال .. وقد استمرت هذه الأوضاع لعدة شهور .. كانت حملات التفتيش خلالها مستمرة..

وكانت الضغوط التي تمارسها إدارة السجن لها حدود وقد وعى محمد طوق خلال فترة السجن معادلة حساسة تنظم الحياة في السجن؛ ثمة خيط بين السجناء والإدارة .. يعني طرف في أيدي السجناء والطرف الآخر في قبضة إدارة السجن .. وعندما تمارس الإدارة الضغوط على السجناء وتقوم بالتصعيد في ممارساتها .. كان السجناء يرخّون الخيط قليلاً لأنهم إذا شدّوا الخيط قد يحصل انفجار قد تكون تداعياته ليست في صالح السجناء .. لذلك فإنهم يرخون الخيط قليلاً ويتحملون الضغوط بصبر كبير!

لكنهم لا يفلتون الخيط أبداً لأنهم إذا فعلوا ذلك فإن إدارة السجن سوف تتمادى في ممارساتها العدائية وتدوس على رؤوس السجناء!

لهذا فقد كان السجناء يتعاملون بأسلوب دبلوماسي بحيث لا يحصل تصادم مع الإدارة!

وقد ساءت الأوضاع كثيراً في المبنى الذي يوجد فيه محمد طوق بسبب تصرفات عناصر الشرطة الطائشة .. وكانوا في أعمار صغيرة .. أصغر بكثير من أعمار السجناء .. كانوا في عمر العشرين والحادية والعشرين!! .. وكانوا يتصرفون برعونة ولا يترددون في توجيه الإهانات للمعتقلين وبعضهم بعمر آبائهم .. وبلغت الاستفزازات ذروتها في أيام الزيارة لأن السجين يتعرض للتفتيش أربع مرّات..

الأولى لدى مغادرته المبنى .. والثانية قبل لقاء ذويه .. والثالثة لدى

توديع أسرته .. والرابعة لدى دخوله المبنى!!

وطريقة التفتيش تتم على نحو استفزازي إذا يطلب من السجين أن يخلع ثيابه تماماً ثم يلف بدنه بإزار خفيف شفاف ويقوم الشرطي بتفتيش السجين ويتلمس بعض الأجزاء الحساسة، ولذا فإن طريقة التفتيش كانت تتم بطريقة استفزازية!!

ظهر السجين طالب علي على مسرح الحوادث؛ كان ذك مشهداً مثيراً لـ«محمد طوق»!!

«طالب علي» رجل محترم وسجين ثائر كان يكتم ثورة شعب بين طوايا نفسه الكبيرة!

رجل قادم من جزيرة سترة .. من قرية مهزّة .. كانت كلمته لها صدى! دعا إلى اجتماع لنخبة من شباب السجن .. ففي السجن محكومون سياسيون وجنائيون وفيهم مخبرون عملاء! وذوو نفوس ضعيفة فاقتصر اجتماعه على نخبة من الشباب المقاوم .. قال «طالب علي»:

- الوضع لم يعد يتحمل أكثر من هذا!!

كانت لديه ورقة تتضمن الممارسات الظالمة «للسجّانين»..

- إغلاق الغرف لمدة 22 ساعة!
- الاستفزازت التي يقوم بها المرتزقة في حملات التفتيش التي تتم في الثانية بعد منتصف الليل وإجبار المعتقلين على الوقوف أثناء التفتيش وإحصاء السجناء!
- سوء المعاملة فلا يوجد أدنى احترام لحقوق السجناء وحقوق

الإنسان ولا توجد أدنى أخلاق في المعاملة!

- التفتيشـات أثناء الزيارة وإجبار السجناء على خلع جميع ملابسهم والاكتفاء بـ«الإزار» للتفتيش أربع مرّات!

دعا طالب علي إلى إضراب عن الطعام مفتوح:

- بنفتح إضراب مفتوح والين جو لينا بنعطيهم هذه الرسـالة وبنقول هذي مطالبنا!

كان هـذا أول إضـراب لـ«محمـد طوق» داخل السـجن .. وكانت هذه التجربة الأولى في المقاومة السلبية!

وفي الوم الثاني اتفق المضربون عن الطعام:

- إن وجبة الريوق تترجّع إليهم!

وكانـت مسـؤولية النخبـة الذين حضـروا الاجتماع .. القيـام ببذر هذه «الفكرة» في الزنازين .. ظهر معارضون لـ«فكرة» الإضراب عن الطعام .. كانـوا يخشـون أن تكـون لها تداعيات خطيرة على الأوضاع السـيئة لتزداد سوءاً أكثر!!

المعارضون كانوا أقلية قياساً بالمتحمسين للإضراب!

كان محمد طوق يراقب الحوادث عن كثب وكان يتطّلع لمعرفة ردود فعل إدارة السجن!

أشـرقت الشـمس صباح اليوم التالي .. اسـتلم مسـؤول المبنى «وجبة الريوق» وادخلها إلى المبنى .. فوجئ بالمعتقلين يقولون:

- رجّع الريوق! احنا مضربين!

عاد مسؤول المبنى وذهب إلى «الكونتر» أخبر الشرطة:

- الشباب مضربين وما يبون الريوق!

كان «سجن جو» قد خرج من أزمة الانتفاضة وكان المسؤولون يتصوّرون أنهم قد حققوا نصراً ساحقاً وقد تمت السيطرة على الأوضاع في السجن، وإن السجناء لن يستطيعوا بعد الآن حتى من «التنفس» .. تساءل الضابط المسؤول:

- كلهم مسوين إضراب؟!

- العدد الأكبر مسوي إضراب!!

- يعني شنو!!

- ما عدا الأجانب الي في المبنى!!

كان محمد طوق قد لاحظ أن سوء المعاملة مع جميع السجناء .. سواء كانوا سياسيين أم جنائيين! وكان التمييز يجري وفق دوافع طائفية فقط .. المعاملة السيئة والإهانات والمضايقات كانت من نصيب الشيعة فقط!

جاء الشرطي إلى «مبنى الأمل»:

- اكتبوا أسامي المضربين في ورقة!

مرّوا بالغرفة رقم 2 حيث يوجد محمد طوق:

- شباب! الي مسوي إضراب يكتب اسمه!

كان الجميع في هذه الغرفة مضربين!!

استمر الإضراب عن الطعام يومين! وفي الثالث ظهرت بوادر ردود الفعل .. جاء أحد الشرطة وأعلن:

- اكو ضباط بجونكم!

جاء ثلاثة ضباط وكانوا بحرينيين! وجلسوا في «اللنقر» حيث يجتمع الشباب لمشاهدة التلفزيون .. نادوا على الشباب للتجمع في هذا المكان!

حضر الشباب في «اللنقر» .. قال أحد الضباط:

- شباب! خلو واحد منكم يتكلّم ويقدّم المطالب الي عندكم .. وليش انتون مضربين؟!

نهض طالب علي وقدّم إليهم الورقة التي تتضمن أسباب الإضراب والمطالب:

- هذي مطالبنا وما نفك الإضراب إلى أن نحقق هذي المطالب!

قال كبيرهم وقد استحسن هذه المطالب:

- بنعمل عليها

وقال الآخران:

- في بعض هذي المطالب ما نقدر نحققها!

تعلّم «محمد طوق» من تجربة الإضراب إن على السجناء أن يكونوا «مرنين» في التعامل وألا يتزمّتوا في مواقفهم بحيث يصرّون على تنفيذ جميع مطالبهم! يجب أن يتركوا مساحة لـ«هيبة الإدارة» بحيث تشعر

بأنها لم تستسلم!! ولم تنكسر «انكساراً كليّاً»!!

حقق الإضراب نتائج جيّدة وتحققت مطالب مهمة للمضربين؛ فقد تم فتح أبواب الزنازين 24 ساعة لأن عدد المعتقلين في تزايد مستمر! كما تحسّنت المعاملة إلى حدٍّ ما .. فإحصاء السجناء لا يستلزم وقوفهم! توقفت الإهانات .. كل ذلك تحقق بعد أن استشعرت إدارة السجن خطر وقوع تمرّد واسع!

لهذا بادرت إدارة السجن إلى امتصاص الاحتقان الذي قد يؤدي إلى الانفجار وبذلك نزعت فتيل التمرّد المحتمل أن يقع في المستقبل القريب!!

اكتشف «محمد طوق» خلال هذه التجربة روح التحدي التي ينطوي عليها عشرات الشباب في «سجن جو» الذي يحمل لافتة مضلّلة تماماً: «مركز الإصلاح والتأهيل»!!

هذا العنوان الذي يوحي إلى وجود ناس خارجين من الجو الاجتماعي العام وأن هذا المركز يعمل على إعادة تأهيلهم من أجل عودتهم إلى المجتمع!!

ولهذا أدرك محمد طوق اسئلة طبيب العيادة:

- تتعاطى مخدرات؟!
- لا!
- ما تتعاطى ممنوعات؟ أي شيء؟ مسكّرات!
- لا!!

وقد صدمه الطبيب يومها بقوله:

- تبي نمشي ليك حبوب؟!

لم يدرك ما يرمي إليه الطبيب لهذا قال له:

- ؟؟؟!!!

بعدها أدرك محمد طوق ما كان يهدف إليه طبيب العيادة .. كان ذلك الطبيب يحاول تغييب السجناء السياسيين عن الوعي!! كان يريد جرّهم إلى الإدمان!!

يبدأ السجين بأقراص مهدئة يتعاطاها يومياً .. وهذه هي بداية الإدمان .. يبدأ بقرص واحد ثم يصبح اثنين وبعدها ثلاثة .. ثم يتم تغيير الأقراص إلى أنواع أكثر تأثيرا .. ثم تبدأ مرحلة الإدمان وغياب الوعي!!

وبعدها يتم «تأهيل» السجين السياسي إلى مرحلة تعاطي «المخدرات»!

كان النظام بشكل عام ومن خلال سياسات وبرامج إدارة السجن يحاول تحطيم روح المقاومة في نفوس الشباب في «اللنقر» .. حيث يجتمع الشباب لمشاهدة التلفزيون .. كان بعض الشباب يعترضون على ما يُعرض من أفلام أجنبية تخدش الحياء وتتنافى مع الذوق الأخلاقي!!

عمدت إدارة السجن إلى إضافة قنوات أجنبية إلى التلفزيون .. قنوات هندية .. تبث الرقص الهندي وفتيات شبه عاريات .. والإنسان دم ولحم وغرائز ورغبات جنسية!!

الكارثة الكبرى كانت في سجن الصغار .. كانت إدارة السجن تتفنن في تدمير هؤلاء الأبرياء .. بحجة التفتيش كانت الأقراص تأخذ طريقها إلى الضحايا .. المخدرات من حشيش وأقراص .. يريدون تدمير هذا الجيل الثائر..

في سجن الصغار كل غرفة فيها تلفزيون!! مفتوح 24 ساعة .. يبث البرامج وينفث السموم .. عشر قنوات تقوم بنفث سمومها .. قنوات هندية وأجنبية تعمل على تهييج الغرائز الجنسية!!

أصبح الحصول على المخدرات داخل السجن أسهل بكثير من الحصول عليها خارج السجن!!

رجال الشرطة هم من يقومون بتوفيرها لتكون في متناول اليد من دون صعوبات!!

اكتشف محمد طوق في عالم «جو» «حقائق» ما كان له أن يعرفها خارج «جو» حتى لو طاف العالم كلّه!!

السجن عالم خاص! ظلام دامس في جوار «نور» مشرق .. عربدة الغرائز الحيوانية ونبض الحب الحقيقي؛ استغراق في سراب الأوهام والأباطيل وإشراقة الوعي الإنساني .. عواء الذئاب والضباع ونباح الكلاب المسعورة؛ وصهيل ذي الجناح تتردد اصداؤه في ضمير الأحرار!

اكتشف «محمد طوق» في «جو» الحب الحقيقي!!

في هذا العالم الذي يضجّ بعربدة الغرائز الحيوانية .. ويعج! بالأباطيل؛ يتجلّى «الله» الخالق البارئ المصوّر له الأسماء الحسنى..

خـارج الـ«جـو» هنـاك العديد من مشـاغل الحياة الدنيـا .. لكن داخل الـ«جـو» هناك شـيء واحد فقـط .. «الله» المحبوب الحقيقي! أجل «الله» وحده ولا شيء سواه!

«الله» يكـون أقرب إلى الإنسـان! كان محمد طـوق خارج «جو» وكان معه الكثيرون وحوله الكثيرون .. وعندما دخل «جو» لم يجد أحد سوى «الله» .. كان وحيداً وسرعان ما وجد رفيقه في محنته!

فـي «التحقيقـات» كان معـه وفـي كل خطوة داخـل «التحقيق» وفي «التعذيـب» .. فـي «الانفـرادي» .. في «الزنزانة المظلمـة» .. زاد تعلقه الروحـي بالله سـبحانه وتعالـى .. تتبخر كل الآمال الكاذبـة ويبقى الأمل بالله وحده شمساً تمدّ الإنسان السجين بالدفء والنور والأمل!

تتقطـع كل صـلات الإنسـان وعلاقاته بالنـاس .. بالأسـباب .. وتبقى صلتـه بـالله .. فـي عالـم «جـو» الموحش الله وحـده من يؤنس السـجين المقهور..

كان «محمـد طـوق» ينمـو روحياً في كل يوم .. يقـرأ القرآن الكريم .. ربما كانت البداية في صفحتين فقط .. تتضاعف أشواقه للتلاوة فإذا هي تنسـاب على لسـانه وفـي أعماقه كنبع صـاف عذب .. يشـعر بالطمأنينة مثل ساقية في وادٍ ظليل مفعم بالسلام!

رأى «محمد طوق» شـوق بعض الشـباب إلى حلول الليل حيث تورق السكينة!

رآهم كيف ينتظرون حلول منتصف الليل وقد تكاثفت الظلمات!

رأى أشواقهم .. وقد استغرق غيرهم في نوم عميق..

كانوا ينسلون من فراشهم .. من أسرّتهم ينهضون يتوضؤون .. تتجه أبدانهم وقلوبهم إلى الكعبة العظمى!! فتترقرق صلاة الليل..

القلوب المؤمنة بالله .. القلوب الطاهرة هي وحدها من تعي حقائق الصلاة .. صلاة الليل!

في ليالي الشتاء الطويلة؛ حين يصبح الماء ثلجاً ينهض العاشق فيتوضأ بماء الزمهرير .. يغادر فراشه الدافئ وينفض عن عينيه حلاوة النوم .. يقف في رحاب المعشوق فتنساب الكلمات .. تتألق في النفوس .. شموس .. شموس شخوص بشرية بلغت الذرى في مدارج الحب الإلهي .. لتصبح طريقاً لهداية البشر في دروب الحياة!

وفي يوم عاشوراء .. أطول يوم في التاريخ تجلت ملحمة الحب الإلهي الخالد عندما تمزّق جسد الإمام الحسين إرباً إرباً من أجل المحبوب..

- ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟
- تركت الخلق طراً في هواكا .. وأيتمت العيال لكي أراكا .. فلو قطعتني بالحب إرباً .. لما مال الفؤاد إلى سواكا..

يسطع اسم الحسين في وجدان هؤلاء الشباب .. لأن نهضته ثورة من أجل الكرامة الإنسانية .. لأنه لا معنى للحياة من دون حرية ومن دون كرامة!

- هيهات منّا الذلة!

- لا أرى الموت إلا سعادة! والحياة مع الظالمين إلا برما!!

من أجل هذا أصبحت «صلاة الليل» في رؤية محمد طوق صلاة واجبة تماماً كالفرائض اليومية! أصبحت الصلاة السادسة!

الإمام الحسين هو من كشف للأجيال مجد الصلاة!!

نهض الإمام الحسين للصلاة في ظهيرة عاشوراء وكانت السهام تتساقط كالمطر!

ثلاثون ألف ذئب بشري يتربصون لينقضوا عليه ويمزقونه إرباً إرباً!!

الإمام الحسين يؤدي الصلاة وسط غابة من الرماح والسيوف وآلاف الذئاب! وكانت السهام تتساقط كالمطر!

«علّمنا الحسين حب الصلاة» هكذا كان يردد محمد طوق ورفاقه من شباب المقاومة!

لم تحل قضبان «جو» الصدئة من انطلاق أرواحهم في عالم رحب مفعم بنور السماوات والأرض!

في كل يوم يتوجهون بقلوبهم إلى زيارة الائمة الأطهار من آل الرسول ﷺ!

أكثر ما يؤلم السجناء صوم شهر رمضان الكريم خلف القضبان .. «أجواء» رمضان في «جو» تختلف تماماً عن أجواء الليالي المباركة بين ظهراني الأهل وفي ظلال البيوت وفي قلوب الأمهات .. كل سجين في شهر رمضان قلبه يعتصره الألم .. مثلما يعتصر قلوب الأمهات!

خاصّة السجناء الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة من العمر

إلى الحادية والعشرين .. هذه الفئات العمرية هي الأكثر تعلقاً بالأسرة والعائلة .. الأكثر إحساساً بدفء الأمومة وحنان العائلة! وفي المقابل فإنّ أم السجين تمرّ بنفس المعاناة والآلام يمتزج فطورها بدموعها!

قلوب السجناء في ليالي رمضان تستحيل إلى طيور مهاجرة ترفرف بأجنحة الأماني .. تهفو نحو مهاد الذكريات .. ذكريات الطفولة والصبا وظلال الآباء وأحضان الأمهات!

كل هذه المعاناة وكل هذا الحرمان في عين الله وفي سبيل الله .. فصبر جميل..

«محمد طوق» الابن البكر في الأسرة .. كان يتمنى أن يكون مع أسرته ليخدم أبويه وكان الألم يعتصر قلبه من أجل والديه وسرعان ما يحمد الله سبحانه عندما تتداعى ذكرى الشهيد علي فيصل .. ترى كيف حال أبويه؟! الله وحده العالم في قلوب عباده! الله وحده الذي يلهم قلوب الأمهات الثكالى الصبر ويشدّ على قلوب الآباء!

وفي كل الأحوال تبقى لشهر رمضان لياليه الحالمة المفعمة بالصفاء حيث السماوات المرصعة بملايين ملايين النجوم وحيث تحلّق الأرواح إلى عوالم مليئة بأجنحة الملائكة مثنى وثلاث ورباع!

كانت تجربة رمضان في السجن بالنسبة لمحمد طوق من أثرى التجارب الروحية في حياته!!

حتى الإفطار بالرغم من بساطته إلا أن الشباب كانوا يصنعون من التمر أنواعاً من الحلوى اللذيذة، وقد سادت روح المحبة والأخوة بين الجميع وقد انهارت الجدران الصخرية بين الزنازين لتلتحم القلوب في

بودقة الإيمان .. وكان محمد طوق يقوم بزيارات دورية للشباب في الغرف الأخرى حيث تعقد مجالس القرآن الكريم..

وهكذا عاش محمد طوق أجواء في سجن «جو» في قلب الجحيم صنع الشباب أجواءً من الجنان الوارفة الظلال!

كانت برامج رمضان حافلة بكل ما يسمو بالروح إلى عالم مفعم بالحق والخير والجمال!

فهناك دعاء الافتتاح بما يرسمه من المشاهد المؤثرة ودعاء أبي حمزة الثمالي .. واحتفالية بمناسبة ميلاد الإمام الحسن عليه السلام إلى جانب المسابقات الثقافية والمحاضرات؛ وكانت الجوائز في غاية الروعة حيث يمنح الفائز في المسابقات جائزة ترسل إلى أهله إذ يتصل الفائز بوالدته يبشرها بالجائزة وهي عبارة عن زيارة مرقد الإمام الحسين في كربلاء المقدسة أو زيارة الإمام الرضا عليه السلام في مدينة مشهد المقدسة:

- يمه! جبت ليش هدية! زيارة الإمام الحسين عليه السلام

ثم تطلّ ليلة المأساة وهي ذكرى تعرّض الإمام أمير المؤمنين للاغتيال على يد عبدالرحمن بن ملجم في ليلة 19 رمضان المبارك .. ثم استشهاده في ليلة الحادية والعشرين!

والحقيقة أن هذه الاحتفالات تشكّل تحدّياً كبيراً للنظام الطائفي الذي يحارب هذه الشعائر بكل ما أوتي من قوّة!

الشباب المقاوم يسهم في إعداد الحليب الساخن والشاي بالرغم من قلة الإمكانات لاضفاء أجواء تكسر قسوة «جو» وأغلاله وقيوده وتحطم

قضبانه الصدئة!

كان «محمد طوق» ينصهر في بودقة ليالي القدر ويعي أن إحياء هذه الليالي تسهم في بناء شخصية الإنسان الشيعي .. وقد اعتاد على إحياء هذه الليالي المباركة خارج السجن .. فكانت تقتصر على ثلاث ليالي فقط! أما هنا في «جو» فإن إحياء هذه الليالي يمتد من العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك! بدءً من ليلة العشرين وإلى آخر ليلة من الشهر الفضيل! بل وإلى ليلة العيد .. عيد الفطر السعيد!

كان الشباب يداومون خلالها على قراءة دعاء الجوشن إلى جانب دعاء أبي حمزة الثمالي وزيارة الإمام الحسين عليه السلام .. وتبلغ سعادة الشباب ذروتها في ليلة العيد..

النظام الخليفي الجائر بكل قسوته لم يكن يستطيع أن يسلب شباب المقاومة فرحة العيد حيث يحرص الجميع على ارتداء الثياب الأنيقة والاستعاضة بـ«الدوشك» بدل المكواة في طوي الثياب!

ليلة العيد كانت ليلة حالمة يسهر فيها الشباب إلى وقت متأخر ثم تُقام الصلاة جماعة في «اللنقر» الذي يبلغ فيه الازدحام ذروته!

من المؤكد أن هذه الاحتفالات المنظمة التي تسهم في إقامتها ثقافة الشعب البحريني العريق هي من وراء صمود هذا الشعب واحتفاظه بأصالته وهويته التي تقاوم سياسة تجنيس «الغرباء» ومحاولة سلخ البحرين عن هويته وأصالته!

وكان أول «ريوق» بعد رحلة الصوم تناوله محمد طوق مع الشباب الذين ما انفكوا يتبادلون التهاني والتبريكات احتفالاً بالعيد السعيد..

«محمد طوق» حلّاق ماهر .. في ليلة العيد أمضى ساعات الليلة في حلاقة الشباب الذين طلبوا منه أن يحلق لهم رؤوسهم ولحاهم .. بقي حتى الساعة الثالثة والنصف وإلى ما قبل صلاة الفجر!

في سجن «جو» حدث الالتحام التاريخي بين شباب المقاومة والقيم التي استشهد من أجلها وفي سبيلها الإمام الحسين .. تحطمت القرون الطويلة! انهارت وذابت ليحصل الالتحام بذكريات ملحمة عاشوراء فوق صعيد كربلاء .. كل هذا يحصل في شهر محرم الحرام!

«اللنقر» الذي يستخدم لمشاهدة التلفزيون وإلقاء المحاضرات يتحول في ليلة وضحاها وقبل أن يهل الهلال الحزين إلى مأتم للعزاء الحسيني من خلال اللافتات السود ومن خلال الرسوم ومن خلال الشعارات:

- لبيك يا حسين!
- هيهات منّا الذلة!

وحقاً ما قيل «الحاجة أم الاختراع»!

الجميع يعمل بروح الفريق الواحد الذي يسهم في إنجاح المهام!

ابتكر الشباب طريقة الخط على الأكياس البلاستيكية السوداء حيث تخط الشعارات ومن ثم تقص الخطوط وتلصق فوق جدران «اللنقر» البيضاء .. وحينئذ يكون بروزها واضحاً وقوياً!

هنا يكمن سرّ مقاومة هذا الشعب! مذهب أهل البيت عليهم السلام .. نسخة الإسلام المحمدي الأصيل والتفسير الأرقى للكمال الإنساني والذروة في ما يمكن للإنسان أن يرتقي في سلّم الكمال والجمال!

كان «أحمد العرب» صديق محمد طوق الحميم الذي اكتشفه لحظة دخوله السجن .. «أحمد العرب» كان المسؤول عن إعداد الرواديد وانتخابهم لإلقاء القصائد الحسينية!

وعندما يكلّف أحدهم ليكون الرادود فإنه يعمد إلى الاتصال بأسرته في اليوم المحدد له ويطلب منهم إحضار القصيدة الفلانية وفي فرصة الاتصال الثانية يقوم بكتابتها على الورق من خلال الاتصال الهاتفي مع أسرته .. وبدل أن يستغرق السجين الوقت المخصص للاتصال «15 دقيقة» في السؤال عن الأحوال فإنه ينجز كتابة ما يقرأه أبوه أو أخوه من أبيات القصيدة المطلوبة!

هذا الشعب لن يُهزم في معركته ومواجهته ضد نظام آل خليفة .. لأنه يقاتل من أجل قضية عادلة ولأنه يستمد ثورته وإصراره وإباءه من ملحمة عاشوراء .. وسيشهد هذا الجيل أو الجيل الذي يليه يوم الانتصار!

روى أحد المعتقلين أن «الأمير» الفلاني من آل خليفة أطلّ على الشهيد عبدالكريم فخراوي في زنزانته الانفرادية وذلك بعد انتهاء إحدى حفلات التعذيب الوحشي! كان الشهيد غارقاً في الدماء .. نظرات الأمير الشامته ومظاهر الغرور السلطوي والشعور بالقوة كانت واضحة!

غير أن الشهيد قال له متحدياً:

- سينتصر الدم على السيف!

أجل .. شهر محرم الحرام هو موسم الحزن الشيعي العميق وهو فصل الانتصار .. انتصار الدم على السيف!

هنا تكمن أسرار المقاومة واستمرار الثورة .. ثورة الشعب البحريني المقهور!

في هذا الشهر تتغير الكثير من الممارسات فعادة ما كان الشباب يتناولون طعام الغداء كل في زنزانته لكن في شهر محرم الجميع يجلسون على مائدة واحدة حيث يجتمع الكل في داخل «اللنقر»..

وبعد زيارة عاشوراء يبدأ المجلس الحسيني الذي هو عبارة عن محاضرة حول النهضة الخالدة للإمام الحسين عليه السلام وبعدها يأتي «النعي» والبكاء على شهداء الطف .. ثم يتناول الجميع طعام الغداء..

وفي كل مرّة ينبري «رادود» لقراءة القصائد الحزينة من قبيل: «محمد ثامر» و«جعفر ثامر» وكذلك الشاب الباسل وأسطورة المقاومة «رضا الغسرة» .. وهكذا تسير الأمور إلى أن تطل الليلة المأساوية! الليلة الصعبة .. ليلة عاشوراء!!

في هذه الليلة تنقلب الأوضاع وتحل ذكرى المأساة المروّعة بكل زخمها التاريخي العميق..

في هذه الليلة يحتفي الجميع ويغرق الجميع في فصول المأساة الدامية..

قبل ليلتين وتحديداً في ليلة الثامن من المحرم قرر الشباب أن يكون لـ«رضا الغسرة» حضوراً في المأتم الحسيني .. لكن رضا كان في مبنى العزل حيث يوضع المحكومون بالإعدام في ذلك المبنى..

خففت إدارة السجن من إجراءاتها الأمنية وسمحوا لشباب العزل

الخروج مع سائر السجناء!

جاء رضا الغسرة إلى الزنزانة رقم 6 ليتداول مع الشباب في هذه الغرفة ليقول لهم:

- شباب نبغي نعمل .. نسوي الليلة زفاف القاسم؟!

أثار اقتراحه الجاد تساؤلات كثيرة!

- شلون نسوي زفاف القاسم .. ويش الإمكانية
- انزين زفاف القاسم يحتاج إلى شموع زفاف؟!
- حلاوة موجودة! لكن صحون مو موجودة!
- الخلاقين الأخضر!

وأمام إصرار رضا الغسرة قال:

- كل شيء إذا قلنه بنسويه! بيستوي! لا تقولون مو موجود! فكروا شلون نسوي شموع! فكروا شلون نسوي صحون؟!

لا أحد يعرف لماذا كل هذا الإصرار على إحياء رمزية «زفاف القاسم» .. الشاب اليافع نجل الإمام الحسن .. قيل أن عمه الإمام الحسين عقد قرانه على ابنته السيدة سكينة .. وفي يوم عاشوراء ظهر اسم القاسم على مسرح الحوادث الدامية .. عندما تقدّم يقاتل ثلاثين ألف ذئب بشري وانقطع شسع نعله فانحنى ليصلحه وكأنه يقول إن نظام الطاغية يزيد لا يساوي شسع هذا النعل!! أو أن الدنيا في ظل نظام الطاغية لا تساوي عندي شسع نعل!

ولهذا أصرّ رضا الغسرة على إحياء رمزية الشاب الشهيد!

رسـالة إلى كل شـباب البحرين من أجل الاستمرار في طريق المقاومة حتى النفس الأخير!

الفصل العاشر: رضا الغسرة

كان محمـد طـوق يعـرف «رضـا الغسـرة» .. يعـرف هذا الاسـم الذي يتألق في قلب كل بحريني مقاوم .. في قلب كل بحريني يساند المقاومة وكانت أخباره وبطولاته قد تحولت إلى حكايات وقصص أخذت طريقها إلى قلوب الشباب..

وعندمـا قـدّر لـ«محمد طوق» أن يدخل سـجن «جـو» .. هفا قلبه إلى أحد الشباب الذين استقبلوه بقلوبهم قبل أحضانهم .. إنه «أحمد العرب» الذي أصبح الصديق المقرّب جداً لـ«محمد طوق»..

محمـد طـوق كان عندمـا يجلس إلى أحمد العرب يشـعر بالارتياح .. كان يلتقيـه كلمـا سـنحت الفرصـة ولكـن بعد الإضـراب وانفتـاح الأبواب أصبحا لا يفترقان..

أحمد شاب يبدو على ملامحه الذكاء .. مثقف كان في زنزانة رقم 1 .. كثير المطالعة .. يستغرق في القراءة إلى حد الذهول..

أحياناً يكتب .. سأله محمد طوق ذات مرّة:

- شنو تكتب؟

- اكتب أشعار

كان أحمد العرب يمتلك موهبة الشعر .. فكان ينظم الأشعار في المناسبات .. مناسبات أهل البيت عليهم السلام .. وأيضاً كان يكتب للمحاضرات .. يكتب عن حياة الائمة الأطهار عليهم السلام .. وقد تأثّر محمد طوق به كثيراً وحبب إليه المطالعة وقراءة الكتب .. كان يقتني الكتب وينتقيها أحياناً يأتي بنفسه إلى محمد طوق ويقول له بعد أن يسلمه كتاباً ما:

- أنا حبيت هذا الكتاب .. وأنا حاب أنك تقراه!

كان يردد هذه الجملة في ليالي الجمعة:

- «المحروم من حرم نفسه زيارة الحسين في ليلة الجمعة»

هذه العبارة أخذها أحمد العرب من «رضا الغسرة» .. فكان أحمد العرب يأتي زنزانة رقم 6 يفتح الباب وينادي محمد طوق بـ«الشقيق» أي الأخ الشقيق:

- شقيق!

وكان محمد طوق يجيب على الفور:

- حبيبي آمر!

فيقول أحمد:

- المحروم من حرم نفسه زيارة الحسين في ليلة الجمعة!

كان محمد طوق يعرف على الفور عندما يفتح عليه الباب في ليالي

الجمعات وينابيه:

- شقيق!

أحمد العرب على الرغم من صغر سنّة إلّا أنه كان كبيراً في عيون الآخرين .. وكان هناك من يكبره في السن إلا أن الذين يكبرونه في السن كانوا ينقادون له..

أصبح أحمد العرب هو من يدير البرامج الثقافية في إحياء مناسبات أهل البيت عليهم السلام..

زيارة عاشوراء .. دعاء كميل .. زيارة وارث .. دعاء التوسل في أيام الثلاثاء ودعاء الندبة في صباح يوم الجمعة وهو من أشاع إحياء المناسبات الدينية على نحو جماعي!

كان محمد كثيراً ما يستشيره عندما يحيّره موضوع ما، وكان أحمد العرب كثيراً ما يبثه همومه .. عندما عرف علاقة محمد طوق بالشهيد علي فيصل .. بدأ يعد العدّة لبرنامج احتفالي بمناسبة ذكرى الشهيد ونظم قصيدة في رثاء الشهيد ألقاها بنفسه في احتفالية الشهيد علي فيصل .. وهذه أول مرّة يفعل ذلك!

يُقال أن «القلب يعرف طريقه تماماً كالنهر»!

عندما دخل محمد طوق السجن كان يتفادى احتضان ومعانقة مستقبليه من الشباب الذين كانوا يترقبون وصوله .. عرف بعضهم ولم يعرف أكثرهم .. لكن عندما وقعت عيناه لأول مرّة على أحمد العرب هفا قلبه إليه مع أنه لم يكن يعرفه! حتى أنه احتضنه وعانقه بحرارة

وكأنه صديق العمر .. أو صديق الطفولة!!

أحمـد العـرب أخبر «محمد طوق» بوجود «صادق تقي» في السـجن ورتّـب لـه اللقـاء .. كما أخبره أيضـاً بأن «رضا الغسـرة» موجود في نفس «العنبر»..

في اليوم التالي من وصول محمد طوق إلى سـجن «جو» قال لمحمد طوق:

- رضا يبغي يتكلم وياك!

كان ذلـك عندمـا حـان الوقـت للخـروج إلـى «الفنس» .. جـاءه أحمد العرب:

- محمد! تعال! ابغيك!
- قول!
- رضا الغسرة يسلّم عليك
- الله يسلمه!

شعر محمد طوق بالسعادة؛ فهذا شرف عظيم:

- رضا موجود هني؟!
- اي! رضا يبغى يتكلم وياك

شعر بالحماس:

- شلون؟ وين؟ متى؟!!

- ما تقدر تروح تكلمه مباشرة!

كانـت الأوضـاع فـي الأيام الأولـى على وصول محمد طـوق في غاية الصعوبة وكانت الاجراءات الأمنية مشددة جداً؛ وكان تركيز إدارة السجن على «رضا الغسرة» استثنائياً؛ كانوا يحسبون له ألف حساب وحساب!

قال أحمد:

- اسـمع! بكره العصر لين خرجوا شـباب العزل .. في فتحة في باب «الفنـس» مـال الغرفـة .. عبارة عن فنس فوق .. ما في سـقف .. فـي حدايـد ملحوميـن لحـام فـي فتحة فيهـا بيب .. هـذي يطلع الماي لين تغسل الفنس إلى الفنس الخارجي الي تكون فيه رياضة .. أنت طالع هذا البيب .. بكرة من تسمع أن طلعوا العزل

- شلون اعرف؟!

- بتعرف .. من تسـمع صوت الباب بتشـوفهم .. تقدر تشـوفهم إن هم طايفين .. فاصرخ ناد باسم «سعيد»!

- سعيد!!

- اي سعيد لا تنادي باسم رضا!!

بقي محمد طوق يترقب! كان متشوقاً إلى لقاء بطل المقاومة!

فـي اليـوم التالـي وبعـد تناول طعـام الغـداء تناهى إلى سـمع محمد طوق صوت انفتاح الباب؛ قال «س.ح»:

- شـباب العـزل بيطلعون .. الشـباب محكومين بالإعـدام .. وياهم رضا الغسرة!

اتجه محمد طوق نحو الباب ووقف! كان هذا العمل جزءً من الممنوعات .. لم يكن مسموحاً للسجناء أن يقفوا في الباب لمشاهدة المحكومين بالإعدام كما لا يسمح لهم أيضاً النظر إلى الزنازين..

اختار محمد الوقوف قرب الباب بحيث يتسنى له رؤية الشباب وهم يمرّون الواحد بعد الآخر.. في البداية خرج الأجانب الهنود ثم أعقبهم شباب المقاومة .. لاح الشهيد عباس السميع ثم الشهيد سامي مشميع والشهيد علي السنكيس الذي رفع رأسه وراح ينظر إلى محمد طوق قال وهو يمرّ:

- سنين ما شفنه بعض! وتلاقينه في السجن!

قال ذلك وهو يبتسم بمحبّة وود!

وأخيراً لاح رضا الغسرة في آخر الطابور! ظهر رمز المقاومة!

راح محمد طوق يتطلع إليه! كان الشرطي ملازماً يمشي وراءه لذلك تعذّر وقوفه .. رفع رأسه وابتسم لـ«محمد طوق» وغمز بعينه! واتسعت ابتسامته .. وحياه محمد طوق بابتسامة .. وقد تعطلت لغة الكلام!! شعر محمد طوق بفيض من الطاقة الإيجابية يسري في كيانه! رمز المقاومة بدمه ولحمه! يمر من أمامه .. تعلل محمد طوق وبقي دقائق ليتأكد من خروج الشرطة ومغادرتهم «الفنس»؛ بعدها اتجه إلى الفنس الخاص بزنزانته ونادى:

- سعيد! سعيد! سعيد!

ثم نزل إلى الأسفل ووضع أذنه أمام فتحة البيب وجاء صوت رضا:

- محمد؟!

- موجود!

وجرى الحديث بينهما .. كان محمد يضع فمه في فتحة البيب ويتحدث ثم يضع أذنه ليسمع كلام رضا وهكذا جرى الحوار بين السجينين!

خرج محمد ليقابل أحمد العرب الذي سأله:

- تكلمت ويه سعيد؟!

- اي!

- تمام .. لين في شيء يبغي من عندك .. أنا بجي اتكلم وياك

ترك رضا الغسرة بصمة كبيرة في السجن .. امتاز رضا الغسرة بإرادته القوية وإصراره وبفكره الثاقب وذكائه الحاد وإلى جانب ذلك كان في أعماقه نبع من الحنان يتدفق وعاطفة جيّاشة ومشاعر حب إنسانية!

ما يدعو إلى التأمل أن رضا الغسرة كان يترقب ظهور الإمام المنقذ! في أي لحظة لذلك كان كل ما يفعله وما يخطط له وحتى ما يمارسه من رياضة ولياقة بدنية هو من أجل إمام العصر!

ومن المؤكد لمن يدرس حياته وشخصيته لا بد وأن يدرك أنه يستمد إرادته القوية وإصراره وكبرياءه من يوم عاشوراء بكل زخمه التاريخي وعنفوانه وإلى جانب هذا النبع ثمة أمل كبير بيوم آخر هو يوم الظهور .. ظهور الإمام الثاني عشر التاسع من ذرية الإمام الحسين!

من المؤكد أن رضا الغسرة كان يستمد قوّته من التاريخ والمستقبل

وهذا سرّ تحوله إلى أسطورة ورمز للمقاومة!

محمد طوق اكتشف رضا الغسرة الرياضي منذ الأيام الأولى .. فقد كان رضا الغسرة يهتم بالرياضة على نحو كبير .. كان ينمي قدراته البدنية باستمرار ويركز على التمارين الرياضية التي تقوي الأعصاب .. وفي ممارسته الرياضة كان البعد الروحي والبدني ينصهران ويندمجان في كيانه المتوحد!

محمد طوق لم يكن يعرف أن هاجس رضا الغسرة هو الحرّية .. كان يخطط للهروب نحو الحرّية!

لهذا كان يجري ويمارس ألعاب القوى! وكل ما يمكّنه من تحقيق غايته!

وفي يوم فوجئ محمد طوق بـ«رضا الغسرة» يشارك في مباراة كرة القدم بين فريق «شباب العزل» وفريق «عنبر الشمال» وبعد استحصال موافقة «الشفت المسؤول» لخروج شباب العزل؛ ظهر رضا الغسرة يدخل الملعب وهو يحتذي «الجوتي»!!

ناداه محمد طوق:

- ويش فيك؟! وين رايح؟!

- اليوم تعال شوفني شلون اهدّف .. اليوم أنا بلعب وياهم كورة!!

انقسم الشباب إلى قسمين .. قسم يشجّع فريق العزل وقسم يشجّع فريق العنبر!

وسرعان ما ظهر أن رضا الغسرة لا يعرف كرة القدم أبداً .. فكان

يستلم الكرة فـ«يشوتها» ولا يدري إلى أين .. لا يهمه أن تذهب الكرة يميناً أو شمالاً! وكانت نتيجة المباراة لصالح فريق العنبر! قال محمد طوق له:

- انصحك نصيحة!
- قول
- مرّة ثانية انسَ تلعب كورة .. بعد هذا مو ملعب!!
- اي .. أنا اقول بعد ما بلعب مرّة ثانية!

كانت المباراة عبارة عن مسرحية كوميدية ضحك فيها الشباب من الفريقين وأشاعت في نفوسهم البهجة بسبب طريقة «التشويت» المتخبطة!!

«محمد طوق» يعتبر تعرفه على رضا الغسرة من أكبر نعم الله عليه!

هل رأيت سجيناً مكبّلاً بالسلاسل يتحدى جلاديه وهو في قبضتهم .. كان وحيداً وكان قوياً بقلبه المؤمن الشجاع .. جاء أحد جلاديه وكان برتبة ضابط .. جاء يزبد ويرعد ويتوعد:

- أنا براويك! أنت الي تخالف القوانين؟! أنت الي تتمرد على القوانين؟!

أجاب السجين بإباء وبسالة:

- أنا ما اعترف بنظامكم! ولو كنت مو متمرد على نظام آل خليفة وعليكم .. ما شفتني هني!

- والنقطة الثانية .. مو أنت الي تهددني! وأنت تعرفني! أنا الي براويك! مو أنت!

- أنا الي براويك .. مو أنت الي بتراويني!!!

وما حصل أن ذلك الجلاد .. والضابط هُزم في عقر قلعته بعد نصف ساعة من هذه المنازلة .. جاء لينادي على رضا:

- رضاوي! لو سمحت أبغيك!

- احنا عيال بلدة وحدة! وما يصير بينّا مشاكل!!

شعاره في مسيرته وكفاحه المرير أنه إذا وجدت الإرادة وجدت الوسيلة؛ لهذا عندما قرر إحياء رمزية زفاف القاسم في ليلة الثامن! وثارت التساؤلات حول الصحون والصواني والشموع! تم ابتكار الصحون وتصنيعها من ورق «الكارتون» أما الشموع:

- ولكن الشمع شلون تسويهم؟!

قال بعد تفكير:

- جيبوا ليي فازلين! جيبوا ليي خيط!

أحضر أحد الشباب «الفازلين» و«الخيط» .. ضرب الخيط فازلين وأشعل الخيط! توهج الخيط ولم يحترق بسرعة .. توهج مثل خيط الشمعة .. نجحت الفكرة!

قال رضا:

- الي عنده غرشة عطر مخلصة يجيبها!

جمع الشباب قوارير عطر فارغة؛ كان رضا يأخذ الخيط ويرسله داخل «الغرشة» ويضع على الفوهة قليلاً من التمر؛ وهكذا تم تصنيع عدداً من الشموع بقيت تتوهج في الليل حيث بدأت مراسم الزفاف الرمزي بدءً من الزنزانة رقم 6 وانتهاءً بـ«اللنقر»..

وكان الرادود في تلك الليلة رضا الغسرة .. وكان قد تقلّد سيفاً من ورق «الكارتون» وقد اعتمّ بعمامة ونثرت الحلوى على المعتقلين!

كان زفافاً عاشورائياً منقوعاً بأحزان المأساة التي تلهب وجدان المجتمع البحريني!

وبلغت المحنة ذروتها الكبرى في الظهيرة العظمى من يوم العاشر من المحرم حيث قرئ المقتل الحسيني والقصة الكاملة لمقتل الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره!

حتى «ركضة طويريج» بكل زخمها التاريخي ورمزيتها تم اجراؤها!

في كل عام ومنذ عشرات السنين تنطلق الحشود من قرية «طويريج» في ضواحي كربلاء ركضاً نحو مرقد الإمام الحسين في ظهيرة يوم العاشر من محرم الحرام!

هذه المراسم تذكر الوجدان الشيعي بـ«ركضة» بني أسد لنصرة الإمام الحسين في معركته الخالدة ضد الطغاة ألّا إنهم وصلوا متأخرين وقد «وقعت الواقعة»..

في كل عام تجري مراسم «ركضة طويريج» وفي كل مرةّ كانوا يصلون متأخرين وهم يهتفون:

- حسين! حسين! حسين!

أجـرى المعتلقـون «مراسـم ركضـة طويريـج» مـن «داخل اللنقـر» إلى «الفنـس» .. ركـض المعتقلون حفاة لعظم المصيبة ومواسـاة لأحزان أهل البيت عليهم السلام!

من المؤكد أن رضا الغسـرة قد ذاب تماماً في ملحمة عاشـوراء .. أننا نتحدث عن معتقل مكبل بالسلاسـل .. في قبضة الطغاة لكنه يتحداهم ببسالة..

في مطلع عام 2013م تناهى إليه أن بعض المرتزقة اعتدوا على امرأة .. جاء أحد الشباب وسأله:

- كيف نتعامل مع الموضوع؟

وتقـرر القيـام بعمليـة انتقاميـة؛ كانـت الظـروف غايـة في الحساسـية وكانـت قـوات درع الجزيـرة السـعودية تتدفق إلـى هذا البلـد المقهور .. اتجـه التفكيـر لمهاجمـة الجيش على الشـارع الكبير الفاصل بيـن البحرين والمنطقة الشرقية .. ثم انتخبت نقطة أخرى على جسر «كوبري» القديم واسـتهدفت دوريـة للجيش وجرت اشـتباكات مع المرتزقة اسـتخدم فيها الثوار الرشاشات!

جاء أحد العسكريين إلى رضا الغسرة في السجن وقال له:

- أنا احترمك كثيراً!

- أنت لا تعرفني! ولا علاقة لي بك!

قال العسكري:

- عرفنا أنه يوم التحرش بالمرأة؛ إنكم خرجتم تواجهون! فأنا احترمكم! وأنا احيي فيك الغيرة! لدينا مصاب بسببكم هو الآن في «الإنعاش»!

في انتفاضة 15 آذار في سجن جو تعرض للضرب على يد ضباط أردنيين مرتزقة وكانت الدماء تسيل على وجهه ومع ذلك خاطب رضا أحدهم:

- لا تحسبني لوحدي! أنا عندي مجموعة! أنا في وسط الزنزانة استطيع أن اقتلك وأنت في الخارج!

تعرض للاعتقال والسجن وتجاوزت الأحكام الصادرة بشأنه المئة عام .. عاش حرّاً بالرغم من كل القيود وتمكن من الهرب أكثر من مرّة..

اعتقل عام 2012م وزج في سجن «الحوض الجاف» إلا أنه تمكن من الهرب متنكراً أثناء زيارة عائلية!

وبعد ستة أشهر حاولت قوات أمنية ترتدي الزي المدني اغتياله بعد أن تعرضت السيارة التي كان يستقلها مع صديقه ورفيق دربه عقيل محسن لوابل من الرصاص من مسافة قريبة وأصيب برصاصة في كتفه إلا أنه تمكن من الإفلات حيث استخرج الرصاصة بنفسه أما عقيل محسن فقد تمزقت بشرته أثر إصابته بالرصاص الانشطاري!

بقي مطارداً تلاحقه الاستخبارات إلى أن وقع في كمين بتاريخ 24 أيار 2013م؛ وقد انتشر حينها تسجيل يتعرض فيه رضا الغسرة للتعذيب أثناء اعتقاله..

تم نقل رضا الغسرة إلى سجن جو المركزي خوفاً من تكرار عملية

الهروب؛ فسجن جو معروف باجراءاته الأمنية المشددة التي تجعل من هروب رضا الغسرة أمراً مستحيلاً..

«رضا الغسرة» يمضي محكوميته في مبنى العزل وما يزال في عنفوانه يمارس رياضة الجري وألعاب القوى ويدخل في نقاش وجدل مع جلاديه دفاعاً عن معتقداته ومبادئه .. ولا أحد يعرف بماذا يفكر رضا الغسرة!

هل كان يخطط لعملية هروب ثالثة .. حتى محمد طوق لم يخطر في باله أن رضا الغسرة يخطط لعملية هروب كبرى!

ربما خطر في بال محمد أن رضا قد يحاول الهروب لوحده لأنه يعشق الحرّية .. لأنه أقسم ألّا يحيا إلا حرّاً ولا يُقتل إلا حرّاً!

«رضا الغسرة» يؤمن بقوة أنه لا يجوز للإنسان المؤمن أن يتنازل عن كرامته .. لأن الكرامة الإنسانية هبة الله للإنسان .. كما هي الحياة!

وإذا كان الانتحار عملاً محرماً لأن قتل النفس حرام ولأن الحياة هبة الله للإنسان .. كذلك الكرامة .. لا يحق للإنسان أن يتنازل عن كرامته!

في وجدانه تتردد كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

- الموت في حياتكم مقهورين .. والحياة في موتكم قاهرين!

وصرخة الإمام الحسين عليه السلام:

- هيهات منّا الذلة!

- إني لا أرى الموت إلا السعادة والحياة مع الظالمين إلا برما!

وكلمات نجل الحسين وحفيد علي:

- لا يحق للمؤمن أن يكون ذليلاً!

الفصل الحادي عشر: سيوف الثأر

عندما يذكر اسم «رضا الغسرة» تتداعى في الذهن قصة الهروب نحو الحرية!

«محمد طوق» بعد لقائه بـ«رضا» راوده إحساس غامض لا يعرف له تفسيراً واضحاً! إحساس بالحب والحماس وعمق القيم..

«رضا الغسرة» شخصية عميقة الغور وأهم ما يميزها هو عمق الإيمان بعالم ما وراء الطبيعة! نظراته تخترق الجدران القاسية والأسلاك الشائكة!

منذ الأيام الأولى بل منذ الساعة الأولى التي التقى فيها محمد طوق بـ«رضا» شعر بأنه يلتحم معه وينصهر في بودقة إيمانه الراسخ العميق..

كان محمد طوق يترقب اللحظة التي يفاتحه فيها «رضا» حول عملية هروب ما!!

كان رضا الغسرة مدرسة يتعلم فيها الثوار والأحرار دروس التضحية والكفاح من أجل الكرامة والحريّة..

حطم رضا الغسرة مقولة «اليد الواحدة لا تصفق» والزهرة الواحدة لا تصنع الربيع! رضا الغسرة أثبت أن الإرادة إذا وجدت .. وجدت الوسيلة..

بدأ حياته بسيطاً .. يقود الشاحنات إلى أن اكتشف الطريق .. الطريق إلى الحريّة .. إلى الحقيقة .. وسرعان ما أصبح قدوة ورمزاً..

وذات ليلة جاء رضا إلى محمد، قاله له:

- ابيك في موضوع!

يجلسان معاً وجهاً لوجه يتحدثان لكن رضا كان يغيّر أصل الموضوع .. خطرت في بال محمد فكرة الهروب وكان يترقب أن يفاتحه رضا الغسرة بـ«الموضوع» ولكن!!

خطرت في باله أن يهرب لوحده أن يفكر بالهروب لوحده!!

ربما رضا لم يعد يفكر بالهروب!

وتمضي الأيام مرّة أخرى .. جاءه رضا وقال:

- محمد! ابغيك في موضوع..

انفردا للحديث بعيداً عن الشباب .. قال له وهو يحاوره:

- أنا بقول ليك عنوان .. ولكن ما بعطيك التفاصيل!

هنالك شعر محمد طوق بالارتياح! أدرك من طريقة كلامه أن الموضوع هي عملية هروب جديدة يخططها رضا الغسرة بصمت..

عملية هروب ليست عادية .. عملية سيشارك فيها العديدون وقد آن لـ«رضا» أن يشرك محمد طوق فيها؛ لذا جاء لمفاتحته!

قال رضا بعد لحظات صمت:

- تفكر تهرب من السجن؟!

أجاب محمد طوق على الفور:

- اكيد! اكيد! افكر اهرب!

- لا تستعجل! فكر إلى بكرة .. ورد عليي

قال ذلك ونهض ليغادر المكان! قال محمد طوق متلهفاً:

- وين تروح؟!! تعال!! فكرت وقررت!!

كان محمد طوق يعي جيداً أنه إذا منح المرء نفسه فرصة للتفكير في هكذا قضايا .. فهذا يعني التردد وربما التراجع فيما بعد! لذلك فقد قرر على الفور!

- ما يحتاج افكر!! أنا مفكر ومقرر .. خلاص! قررت أنا بهرب وياك رضا!

- مافي مشكلة! أنت الحين عطيتنه موافقة .. والأيام الجاية بتبيّن إن شاء الله!!

قال ذلك وغادر ومضى!

حلّ المساء ونشر الليل ستائره ليحيط الأشياء بالغموض والأسرار!

وعندما تمدد في فراشه لم تغمض عيناه!

كانت تلك الليلة طويلة وأصبح ذهنه مسرحاً للأفكار والهواجس .. تأخذه الأفكار يميناً وشمالاً جيئة وذهاباً؛ ترى كيف يهرب؟ من المؤكد

أن رضا قد صمم عملية الهروب وقد استكمل التخطيط لها وبقيت مرحلة التنفيذ!!

وهل بمقدور السجين أن يتمكن من الهرب من هذا السجن الرهيب!! كما أن «رضا الغسرة» لم يكن سجيناً عادياً منذ نجاحه في الهروب من سجن «الحوض الجاف» ثم هروبه المثير من سجن جو! لا شك إن إدارة السجن قد اتبعت تدابير أمنية مشدّدة للحؤول دون هروب معتقل مثل رضا!!

تأخّر محمد طوق .. طار النوم من عينيه وكان يترقب طلوع الشمس..

وأخيراً حطّ طائر الكرى ليغمض محمد طوق عينيه ويستغرق في النوم .. ولعله بسبب استغراقه في التفكير في عملية الهروب قد رأى في عالم المنام «حلماً» في هروبه من السجن وتحرره وانطلاقه في عالم الحرية!!

وربما رأى شرطة النظام تطلق عليه الرصاص وترديه قتيلاً ربما!!

كان محمد طوق متلهفاً للقاء رضا .. في عينيه سؤال وسؤال وسؤال! قال رضا:

- محمد! خطة العملية للحين ما بعطيك أي تفاصيل عنها .. لكن العملية فيها أنا وأنت .. ويانا أشخاص بعدين تتعرف عليهم!

سكت لحظات ليقول مستطرداً:

- أنا مقسم العملية ومخطط ليها وعندي رسم للعملية .. الحين عليك مهمة تقوم بها!

- شنو؟!

- بحكم علاقتك بسيد مرتضى .. بجيب ليك التلفون .. كلم سيد مرتضى بأن يدعمنا بسلاح!

استغرب محمد طوق وتساءل عن الحاجة إلى السلاح!!

- ليش السلاح؟!

- دعم لينا من الخارج! من خارج السجن!!

كان رضا قد خطط لعملية الهروب وحدد الأشخاص الذين سيشاركون ووزّع الأدوار .. كان يخطط للعملية من الداخل ومن الخارج أيضاً .. كان محمد طوق يتوق لمعرفة تفاصيل أكثر حول ضرورة أن يكون لديهم سلاح!

قال رضا:

- لو خرجنا يكون عندنا سلاح للحماية الشخصية!

قال محمد حول مفاتحته السيد مرتضى السندي:

- مافي مشكلة!

- تمام .. أنا بشوف الوقت المناسب .. اطلع ليك الجهاز وأنت تكلم السيد مرتضى!

وهكذا تمرّ الأيام وكانت الأوضاع صعبة لا تسمح بإدخال التلفون بسبب حملات التفتيش وتعذّر على رضا إخراج التلفون وكان محمد يترقب .. مرّت أربعة أيام وفي اليوم الخامس قال محمد لرضا مستفسراً:

- ويش صار؟! ما اشوف جبت التلفون حق اكلم السيد؟!

قال رضا:

- الوضع ما كان تمام وأنا كلمت السيد

أردف رضا قائلاً:

- انا حصلت سلاح في السعودية .. واشتريت السلاح!
- عندك أحد يدخله البحرين؟
- اي هذا الموضوع كله أنا مرتبنّه .. وأنا بدخله!

تكثفت اللقاءات بينهما والحديث الأساسي كان حول عملية الهروب؛ كان رضا أيضاً يلتقي ببقية المشاركين .. كان يلتقي بـ«صادق تقي» و«عيسى موسى» و«أحمد العرب»؛ بدأ رضا الحديث مع محمد طوق في «التفاصيل» .. قال له ذات مرّة:

- أنا راح اخبرك شلون راح تكون العملية ومنهو راح يكون ويانه! والأشخاص الي حددناهم! العملية راح تكون هجوم مسلح من شباب بجون خارج السجن!
- توجد «براحة» خارج السجن والشرطة مال السجن عادة إذا يجون يبركنون سياراتهم في دي «البراحة» .. ولين الشباب يجون يوقفون على كيلومتر واحد ويتسللون في داخل البراحة ويوصلون إلى «البكرات» يكون الفارق بين السيارات وبوابة السجن مسافة لا تزيد عن ستة أمتار! فمجرد احنا نوصل للباب .. الشباب في الخارج يقومون بعملهم!!

- شلون؟!!!
- ويانا أشخاص وهم صادق تقي وعيسى موسى وأحمد العرب وعمار السواد وأنت!! وكل شخص منهم عنده مهمة يقوم بها!
- انزين شلون احنا نوصل للبوابة؟!!
- أنا عطيت عيسى موسى وصادق تقي بأنهم يقطعون «البيب» الموجود في غرفتكم غرفة 6! احنا نطلع من غرفتكم من البيب الي بيقطعونه وبنصير فوق مبنى رقم 1 .. وبنزحف إلى زاوية مطلّة على مبنى 4 .. وبنسوي حبال نربطها فوق في المبنى حيث يكون في نهاية المبنى نفس الشواهد .. فنربطها وننزل بالحبال إلى الأرض وبعدها في زاوية مبنى 4 .. وهو يكون الفاصل بين جدارين الي بننزل منه .. الي هو الجدار الرفيع والجدار الثاني الي عليه الأسلاك الشائكة!!
- وفي زاوية مبنى 4 يوضع «سكيب الخمام» وراح اختار اثنين منكم يكونون الأسرع والأخف وزناً في «الركيض» بحيث يوصلون للزاوية ويقلبون «السكيب» .. واحد منهم يشقح على السكيب وينط الطوف!

تساءل محمد طوق:

- رضا الطوف فيه أسلاك شائكة!! شلون بنشقحه!
- هذي بعد أمور ضبطناها .. بيكون ويانا «برانص» بنحملهم ويانا بحيث الي بروح يشقح على «السكيب» بيفرش البرانص على

الأسلاك الشائكة!! بكل هدوء! بحيث ما ينسمع لينه صوت .. ومحد يشوفنا!

سكت لحظات ليقول وهو ينظر في عيني محمد:

- هدفي أن نوصل إلى البوابة وهم ما يدرون عن أي تحرك .. أو عن أي هروب صاير! وبمجرد أن نوصل للبوابة بكون في خيارين .. إذا كانت عندنا فرصة نطلع من البوابة ركيض من غير أي رمي رصاص .. بنطلع .. ولكن إذا اضطرينا أن الهجوم يتنفذ من برّه فبنفذ الهجوم .. طبعاً إذا العملية مشت مثل ما مخطط ليها وما انصدنا من البداية!!

- انزين وإذا صار خطأ؟!

- أي شخص بفكر أن يتراجع عن العملية يتراجع .. واحنا على الأرض .. واحنا داخل السجن يعني في النقطة «ألف»! وبمجرد أن نوصل للنقطة «ب» وهي بمجرد أن نمسك الحديد حق بنطلع .. ولو انرصد منه أول شخص واحنا للحين كنا داخل السحن .. ما بنتراجع وبنفذ العملية .. وراح يكون هجوم مسلح!!!

واستطرد في الحديث قائلاً:

- عندي فكرة! إن أنا آخذ طائرة مسيّرة!

وراح يشرح لهذا الموضوع:

- الطائرة هذي تكون دقيقة وتنزل في نفس الإحداثية الي بيعطونها!

- انزين ويش فكرتك؟!

- الطائـرة الـي بناخذها تتحمل أن تحمل 2 من سـلاح «فرد» .. راح تنـزّل السـلاح علـى سـطح غرفة 6!! وبمجـرد خروجنا نكـون احنا مسـلحين مـن الداخل .. ومـن الخارج بعد مسـلحين!! من نكون احنا من الداخل مسـلحين وعندنا بالخارج دعم لوجسـتي مسـلح .. فبكـون مسـتحيل أحـد يقدر يصطـد إلينا وبكون نجـاح العملية مئة بالمئة..

كان محمد يواصل إثارة الاسئلة والبحث عن ثغرات في العملية:

- رضا! هذي أولاً إن السجن محاط بالأبراج بشكل كامل وكاميرات المراقبة! شـلون بتجيب طائرة وبتنزلها على السـجن؟! على طول راح تنكشف!

- أنـا نزلـت عنـدي برنامـج متابعـة الأرصـاد الجوية واعـرف الوقت المناسـب لهـذا الأمـر وهـو فـي الضبـاب .. رؤيـة العيـن والكاميرا في الضباب دارسـينها .. ومسـافة الغرفة إلى البرج هل يمكن من خلالهـا الرؤيـة أو لا؟ كل هـذي الأمـور دارسـينها .. العملية بتكون في يوم فيه ضباب بحيث تتعذر الرؤية..

قال محمد طوق .. يُشكل مرة أخرى:

- رضا! في إشكال في الضباب نفسه .. بعيداً عن الطائرة .. الطائرة فيهـا ليتـات وهي باللـون البرتقالـي! واللون البرتقالـي في الضباب يعطـي رؤيـة للظل! حتى لو ما شـفنا .. بشـوف الظـل وبيعرف أن في أشخاص يتمشون..

هزّ رضا رأسه مؤيداً:

- صح كلامك؛ ولذلك حدّدت لون البدلة الي راح نلبسها .. أنت تدري أن لون الطوف يميل إلى الرصاصي .. لا بد ان احنا نشتري بدلات بكون لونها رصاصي فبكون لونه موحّد ويه لون الطوف! بحيث إن ظلنا كلنا يضرب مع الطوف وخلاص ما يبيّن أي ظل لأي أحد منا!!

وبدا واضحاً جداً أن «رضا الغسرة» كان قد خطط لكل التفاصيل في عملية الهروب المثيرة .. التي ستبقي في جميع الأحوال مغامرة خطيرة!

قبل أن يفترقا قال رضا:

- راح اخبرك بالتطورات وإن شاء الله كل شيء أخبرك عنه تنفذه؟

أجاب محمد بلهجة الجندي الذي يثق بقائده:

- انا تحت ايدك من هذي لهذي وروحي اسلمها بايدك!

- مافي مشكلة! راح أخبرك بالتفاصيل وأي شيء حق تنفذه!

كلّف رضا كلاًّ من صادق تقي وعيسى موسى بمهمة قطع «البيب» .. كان قطره في حدود 3 سم والمشكلة هي أن المنشار الذي بحوزتهما طوله 4 سم فقط!

وكان عليهم العمل في كل ليلة خمسة دقائق فقط وقد اختارا وقتاً مناسباً لهذا العمل الحساس والدقيق!

كانا ينتظران نوم الشباب في المبنى وقد اختارا وقتاً بين الساعة الحادية والثانية والنصف بعد منتصف الليل! حيث يكون الوضع مثالياً

من الناحية الأمنية..

فـي بعـض الليالـي كانـا يوقفـان العمـل لأن الشـفت المسـؤول يقوم بأعمال الدورية في كل نصف ساعة! فوق المبنى!

كان العمل مضنياً وعلى مدى ثلاثة أشـهر.. أي تسـعين ليلة لم يشـعر بهما أحد من الشباب في المبنى .. حتى محمد طوق لم يكن يدري متى يبدآن عملهما الليلي!!

كانا يسبقان الجميع في التمدد على السرير ويتظاهران بالنوم ويوهمان مـن معهمـا أنهمـا نائمان! وعندما يحين الوقت ينسـلان من الفراش بكل هدوء ويذهبان للعمل!

في «الفنس» توجد «شمسـية» على الجدار مغطاة بـ«قفص حديدي» .. فـكان أحدهمـا ينبطح ويقوم بنشـر البيب بمنشـاره ويضـع الآخر أذنيه علـى البـاب يرهف السـمع فيما إذا نهض أحد الشـباب! كانا يتناوبان هذا العمل الشاق بهذا المنشار القصير جداً الذي يصعب الإمساك به وتحريكه لمسافة سنتيمتر واحد أو أقل!!

ومـع تقدم العمل برزت مشـكلة وهي أن البيـب ظهر فيه أثر القطع!! وطرحت المشكلة على رضا الغسرة وكعادته استغرق في تفكير عميق!

وسرعان ما وجد هذا الذهن المتوقد ذكاءً حلاً للمشكلة!

- عرفت الحل! خلنا نسوي تجربة

طلـب رمـاد السـجائر ومعجـون الأسـنان وقـام بمزج الخليـط فأصبح عجيناً رمادي اللون! أي بنفس لون «البيب»!

تـم إنتـاج «المعجون» الجديد بحيث يقوم صـادق وبعد الانتهاء من العمل بالمسح على البيب وملء الشق فيبدو البيب سليماً!!

كان رضـا الغسـرة يقـود العمليـة ويخطـط لهـا ويقـوم بحسـاب الاحتمـالات! كان يعطـي التفاصيـل لكل شـخص على قـدر حاجته؛ لذلك كان محمد طوق لا يعرف كل شـيء عن أبعاد وتفاصيل العملية .. لديه بعض المهام والواجبات المحددة التي يقوم أو سيقوم بها!

كان رضـا يتابـع مع الجميع ويوصل آخر التطورات في العمل لـ«محمد طوق» .. ولم تكن اللقاءات مع رضا تجري بسهولة .. كان رضا حذراً جداً وفي الأيام الأخيرة كان رضا يجتمع مع محمد طوق وصادق تقي وأحمد العـرب وعيسـى موسـى؛ للتداول فـي عملية الهـروب وكان الشـرط أن لا يراهم أحد من الشباب! كان يقول لهم:

- لازم نختار الوقت المناسب وما يكون أحد يشوفنا واحنه قاعدين على جنب نتكلم!

سأله محمد طوق:

- ليش يعني إلى هذه الدرجة!! وبهذي الدقة لازم نحاسب؟!! خلنا مثلاً إذا الشباب في الغرفة .. نطلع نتكلم في «الفنس»!
- لا! محمـد! يعنـي بالعقـل أنـت بـس .. خذهـا بالعقـل .. هـل «التحقيقـات» أو «أمـن الدولـة» يجمعونـا كامل ويـه بعض واحنا الي ما نعرف بعض .. لا أنت تعرفني قبل ولا أحمد العرب .. ولا أنـا اعـرف صادق أو عيسـى!! وهم الي يعتبرونـا أكبر إرهابيين في البحريـن! هـل مـن العقل يجيبونـه ويجمعونه ويـه بعض ونكوّن

علاقات ويه بعض من غير محد موجود من مخبرين يوصّل تقارير إليهم؟!

- اكيد أن هي موجود أصلاً .. أن فلان يقعد ويه فلان!!! مو بالعقل يجيبونه وناخذ كيفنا ونتعرف على بعض أصلاً! وهم يعتقدون ان احنا أكبر إرهابيين! هذا الشيء لازم تحطه في بالك! ولازم ناخذ حذرنا! من كل واحد! حتى لو كنا نعتبره ثقة!

- !!!!؟؟؟

- هذا سر! والسر على قدر الحاجة لا على قدر الثقة!

كان محمد طوق يصغي إلى قائده كما يصغي التلميذ إلى أستاذه:

- هذه قاعدة .. أنا امشي عليها! وأنت مش عليها!

لهذا كانت الاجتماعات تُعقد بينهم عندما ينشغل الشباب لمشاهدة مباراة .. كل الشباب يغادرون إلى النلقر لمشاهدة التلفزيون..

كان بعض الشباب يدخل عليهم الغرفة .. فما كانت تساورهم مخاوف منهم لأنهم يثقون بهم..

أحياناً يتبادلون الأحاديث أثناء ممارسة الرياضة .. كانوا يتمشون أو يقومون بالجري!!

أحياناً يحضر ورقة يسلمها لـ«محمد وصادق وأحمد» .. ويقول لهم تناقشوا في هذه الورقة! أحياناً تتضمن أمور سجّلها أو مخطط أو رسوم:

- خلوها وياكم تناقشوا لباجر وعدلوا عليها .. وجيبوها ليي!

وربما قال له محمد طوق:

- احنا ما نشوف فيها أي شيء!

- لا! اخذوها! عدلوا عليها! شوفوا وين الثغرات ورجعوها ليي!

ظل رضا يتابع التخطيط للعملية في داخل السجن وفي خارج السجن؛ فهناك تفاصيل كثيرة ومثيرة حول موضوع الطائرة المسيّرة وشراء السلاح ونقله إلى البحرين و...

يوم نجح في إدخال السلاح والطائرة المسيّرة جاء يبشّر الشباب وينقل لهم الخبر السار وقد ضاعفت البشرى حماسهم وأشرقت في نفوسهم شمس الأمل بالخلاص من الأسر!

قرر رضا أن يصنع نسخة من المفتاح الخاص بباب مبنى العزل:

- أنا بسوي مفتاح إلى باب العزل .. بحيث يوم تنفيذ العملية تجون تفتحون الباب واطلع!

لأن كسر القفل يصدر صوتاً قد يؤدي إلى انكشاف العملية وذهاب كل هذه الجهود سدىً!

وهنا جاء دور عمار السواد وكان أحد الأشخاص المكلفين بتنظيف المبنى، قال له رضا:

- سو إليك أي صرفة .. بحيث تاخذ المفتاح مال المخزن! أنت عليك تاخذ المفتاح وتجيبه لي حق ارسمه .. احتاج بس رسمة المفتاح

هناك مفتاح واحد لدى شرطي الشفت .. يفتح كل الأقفال في جميع أبواب السجن!!

اختار عمار «الشفت» المناسب فهناك من الشرطة كلما ذهبت إليه وطلب منه فتح الباب فإنه يأتي بنفسه لفتح الباب وإقفاله .. اختار عمار «شفت» الشرطي المناسب وذهب إليه:

- امبي مفتاح مال المخزن عشان اطلع السيمان مال النظافة وانظف!

سلّم الشرطي المفتاح؛ اسرع عمار إلى باب العزل و«ضرب الباب» وسلّم المفتاح لـ«رضا» .. بادر رضا فرسم شكل المفتاح على ورقة و«أفلتَ» المفتاح من تحت الباب لـ«عمار» الذي ذهب إلى المخزن لاداء مهمته في النظافة!!

أخذ رضا «كليب» من الذي يضعونه فوق «البيبات» فوق الجدار .. بعد أيام اكتشف «أحمد العرب» أن لدى الأشخاص في المبنى «مبرد» صغير بطول 6 سم فأخبر رضا بذلك .. قال رضا مستبشراً:

- هذا يسهل علينا العمل واجد! حق انحت المفتاح واسوي الكسرات فيه..

وطلب من أحمد أن يأخذ المبرد من دون أن يخبره:

- اخذه منه! بس لا يعرف ليش!

أحمد فاتح الشخص حول المبرد بحجة أنه يريد صناعة ملقط! وهكذا حصل رضا على المبرد الذي سهل عليه صناعة المفتاح كثيراً .. وعندما أصبح المفتاح جاهزاً واجهت رضا مشكلة أخرى!

المفتاح يدخل في القفل لكنه لا يدور؛ كما أن الضغط عليه سوف

يؤدي إلى انكسار المفتاح داخل القفل وإذا انكسر المفتاح سوف يكشف الشرطة محاولة الهروب وسوف تتجه أصابع الاتهام كلها إلى «رضا الغسرة»! وحسين البناء!

عندما يلتقي محمد طوق رضا يسأله عن قضية المفتاح:

- ويش صار وياك؟ فتح لو للحين؟!

وكان الجواب في كل مرّة:

- للحين! للحين!

وصلت ذكرى ميلاد الرسول الأعظم ﷺ وكالمعتاد يسمحون لسجناء مبنى العزل بإحياء المناسبة مع سجناء العنبر وفي الطريق إلى «اللنقر» سأل محمد طوق رضا:

- رضا! ما بطّل المفتاح؟! للحين المشكلة؟!

- اي للحين المشكلة!

- انزين شنو الحل؟

قال واثقاً:

- اليوم! اليوم يكون الحل!

- شلون؟!

- الحل عند الإمام الباقر عليه السلام!! المفتاح في جيبي! وأنا مسلم الأمر إلى الإمام الباقر عليه السلام

كان رضا يتحدث بكل ثقة .. لذلك اكتفى محمد طوق بأن هزّ رأسه

قائلاً:

- إن شاء الله! إن شاء الله خير

وفي أعماقه أمل ضئيل في انفتاح الباب؛ في حين كانت لهجة رضا تعكس إيماناً عميقاً بحصول المعجزة عندما يتوسل بأهل البيت فهم الوسيلة إلى الله سبحانه..

انتهت مراسم العزاء بهذه المناسبة ومن المؤكد أن رضا كان قد توجّه من كل قلبه ومن كل إيمانه العميق وتوسل إلى الله بالإمام الباقر أن يحل هذه المشكلة وينفتح الباب!!

في طريق العودة كل إلى زنزانته اقترب رضا من محمد طوق وقال له:

- بروح ابطّل الباب وبجي!

لم يقل رضا أنه سيذهب ليجرّب فتح الباب! بل قال اذهب لافتح الباب!!!

لقد كان على يقين أن الباب سيُفتح هذه المرّة!!

قال محمد طوق:

- إن شاء الله .. نتمنى!

دخل محمد طوق الزنزانة في حين مضى رضا في طريقه وانتظر انصراف الجميع وعندها ادخل المفتاح..

عاد رضا وارتسمت في وجهه ابتسامة اضاءت عينيه بألق البشرى!

أدرك محمد طوق أن المعجزة قد حصلت:

- شنو صار؟!

- تسألني شنو صار؟! قايل ليك أن الحل عند الإمام!

وتجلّى لـ«محمد طوق» مجد أهل البيت وكرامتهم كما تجلّى له إخلاص «رضا الغسرة» وعميق إيمانه بالله ﷻ وبأهل البيت الذين هم الوسيلة إليه وغفلة الكثير عن قوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]

ولقد أفلح «رضا الغسرة»..

قال محمد طوق بارتياح بالغ:

- الحمدلله هذا الموضوع انحل!!

كانت الأمور تسير على ما يرام وفق ما خطط له رضا .. وظهرت مشكلة أخرى! ولعلّها الأخيرة!!

كان رضا يتابع رصده إلى خارطة السجن على GPS وكان المسار واضحاً تماماً باستثناء زاوية واحدة توصل إلى الباب الرئيسية .. كانت الزاوية تبدو مغلقة .. قال رضا لـ«محمد طوق»:

- عندك مهمتين! الحين جه دورك!

- شنو المهمتين؟!

---

1. المائدة: 35

كان رضا يوكل إنجاز المهام حسب طاقة الأشخاص وقابلياتهم! وقد رأى أن يكلف محمد طوق بهاتين المهمتين!

لهذا قال رضا:

- محمد! أنت واجد يطلعونك محاكم .. في كل أسبوع مرتين أو ثلاث تطلع للمحكمة .. فعليك أن تشوف هذي الزاوية مفتوحة أو مغلقة! والمهمة الثانية تشوف الواقفين على الباب الرئيسي تحصي عددهم وسلاحهم ونوعية السلاح الي عندهم .. ولين تقدر تعرف من أي جنسية هم بعد!

- إن شاء الله!

إذن جاء دور محمد طوق لتنفيذ هذه المهام .. لكن عندما كانوا يخرجون محمد فإنهم يركبونه «الباص» وهو مغلق من الداخل ولا يمكن رؤية الخارج لوجود قطع «منشيت المنيوم» لذلك عليه أن يجد حلاً لهذه المشكلة!

تمكن محمد من احصاء عدد رجال الشرطة الموجودين فقط وأسلحتهم وحتى نوعية السلاح .. لكن الزاوية ظلت مجهولة لأنه لا يتمكن من رؤيتها..

اكتمل صعود المعتقلين لنقلهم إلى المحكمة واستقروا داخل الباص وكان عليها أن ننتظر مدّة عشر دقائق خارج السجن لوصول «الدعم» وهو عبارة عن سيارات نوع جيب تحمل قوات من المرتزقة تابعة لـ«التحركات»..

ما إن غادرت سيارة الباص إلى الخارج حتى انقلبت صحة «محمد طوق» فجأة! محمد أصيب بحالة شديدة من الدوار!

رفع يده ليقول للشرطي «صلاح»:

- أنا مريض تعبان مو قادر! ودوني العيادة امبه ارجع!!

فوجئ الشرطي:

- شفيك؟! من شوي ما فيك شيء!

تظاهر محمد طوق بالغثيان! وانهار على أرضية الباص! هرع الشرطي لمساعدته:

- شفيك؟! شفيك؟!

فقال محمد بوهن:

- مو قادر!! راسي يدور! احس روحي برجّع .. تعبان!!

ترجل الشرطي وأسرع إلى مسؤول التحركات وكان اسمه «سائر» يمني الجنسية!!

جاء المسؤول:

- شفيك؟!

تظاهر محمد طوق أنه لا يستطيع الكلام ثم قال بضعف شديد:

- احس جسمي بردان

التفت «سائر» إلى الشرطي صلاح:

- نزلوه ودوه العيادة!

قال محمد طوق في نفسه: الحمدلله! نجحت الخطة!

انزلوه وراح محمد يتمشى على مهل وكان يحصي عدد الشرطة الموجودين عند البوابة! ونوعية السلاح الذي يحملونه! وعدد سيارات الجيب!

كان العدد ستة رجال من الشرطة ثلاثة يحملون سلاح فرد وثلاثة يحملون سلاح «شوزن» أما عدد سيارات الجيب فكانت ثلاثة .. عندما دخل البوابة كان همّه اكتشاف الزاوية هل هي مفتوحة أم مغلقة .. الزاوية المقصودة كانت على جهة اليمين للداخل .. كانت مفتوحة .. قال في نفسه: الحمدلله رب العالمين!

استدار الشرطي صلاح إلى محمد طوق وقال وهو يبتسم:

- ويش هالمرض الي نزل عليك مرّة وحدة؟!

- هي من الله جدي!

قال:

- انزين! اسألك تبي تروح العيادة! لو المبنى؟

- بروح المبنى برتاح وببدل .. بعدين بروح العيادة!

قال الشرطي صلاح متخابثاً:

- أنت عيار! ما تبي تروح المحكمة وسويت هالمسرحية كلها!!

- أنا مريض! مافي مسرحية ولا شيء!

قابل محمد طوق رضا وأخبره بأن تلك الزاوية مفتوحة!

قال رضا متفائلاً:

- الحين عمليتنا وخطتنا كلها سليمة!

كان رضا يستخير الله في كل خطوة يخطوها! عندما فكّر في عملية للهروب من السجن .. فتح المصحف فظهرت آية تبشره بالموفقية والنجاح! وإلى جانب ذلك كان يتصل بأحد أصدقائه في مدينة قم ليستخير له عند السيد الأصفهاني وله شهرة واسعة في ذلك!

بقي تحديد ساعة الصفر وهذا الموضوع مرتبط بالحالة الجوية .. كان رضا قد قرر أن يكون يوم الهروب ووقت الهروب في وقت يتكاثف فيه الضباب .. لذلك كان رضا يتابع الأرصاد الجوية باهتمام .. كما كان يتابع تقدم العمل في قطع «البيب»!

قال رضا بعد أن أخبره محمد طوق بعدد رجال الشرطة ونوع السلاح:

- يجب أن يكون عددنا عشرة! لأن عددهم ستة وإذا كان عددهم عشرة لازم يكون عددنا 15!

- ليش؟!

- احتمال أن يصير اشتباك بالأيدي! ولين عددهم أكبر في احتمال أن هم يتغلبون علينه وعلى هالاحتمال لازم يكون عددنا أكثر وأقوى!

اجتمع الشباب في أول فرصة لوضع اللمسات الأخيرة .. خاصّة في انتخاب أشخاص آخرين ليكتمل العدد ويصبح «عصبة»!!

قال رضا:

- شباب! هني في قاعدة في هالعمل وفي كل عمل نقوم به وهي أنه لا يوجد تفكير بالقلب ولا بالعاطفة .. في العمليات يوجد عقل .. أنتون عندكم حرية في اختيار الأشخاص!

تداول الشباب مسألة اختيار أشخاص آخرين يشاركون في العملية في ضوء معايير مهنية بحتة!

اختار أحمد العرب حسين عطية «أبو حيدر» لأنه يستطيع أن يصنّع داخل السجن أسلحة باردة للدفاع عن النفس وكذلك يستطيع أن يصنع الحبال لاستخدامها في النزول من المبنى! إضافة إلى شجاعته وبسالته!

واختار محمد طوق جعفر عبدالحسين بسبب لياقته البدنية العالية وسرعته في الجري .. وعندما فاتحه بقضية الهروب كان يكثر من الاسئلة إلّا أن محمد طوق حسم المسألة تماماً لدى إخباره بأن قائد العملية هو رضا الغسرة!

واختار رضا «حسن السواد»..

وهكذا أصبح العدد «عصبة» كاملة؛ وبقي اختيار وتحديد «ساعة الصفر»! وهذه ترتبط بالأجواء حيث تم التوافق على تكاثف الضباب على نحو يحجب الرؤية!

طلب رضا من الجميع مراجعة مخطط العملية والبحث عن ثغرات فيها!

وهنا اقترح جعفر عبدالحسين أن تكون ساعة الصفر في الساعة

الثانيـة والنصـف بعد منتصف الليل! بدل وقت الفجر بعد ارتفاع الأذان! قال جعفر:

- بعد صلاة الفجر يكون وقت تبديل الشفت! فيكون وقت الهروب بتواجـد شـفت كامـل .. فيكـون عددهـم أكبـر! فليش ما تسـوونه الساعة 2 ونص بكون شفت واحد والوضع آمن وهادئ

نقل محمد طوق الاقتراح إلى رضا الذي قال على الفور:

- أنا اشوف بعد صلاة الفجر يكون أنسب وقت لأن بعد صلاة الفجر يكون في تسـيّب من الشـرطة الموجودين .. حط احتمال ان الي فـي البرج ينزل عشـان يتوضـأ للصلاة! والي علـى الكاميرات نفس الشـيء يقوم يصلي! فهذي فرصتنا أن نعبر في وقت هم يكونون مشغولين فيه!

ومع ذلك قال رضا:

- بعد بنسوي خيرة على الوقت الي اقترحه جعفر!

تواصـل رضـا مـع أحـد اصدقائه فـي مدينة قم للاسـتخارة علـى الذي اقترحه جعفر!

وجاء الجواب:

- كلش مو زينة .. ما بتسيطرون! وجهودكم كلها بتروح هباءً منثوراً..

وهكذا اتفق الجميع على الوقت السابق وهو بعد صلاة الفجر مباشرة!

بقي تحديد تاريخ العملية وهو مرتبط بتكاثف الضباب!!

كان رضا الغسرة يتمنى أن يكون تاريخ العملية في ذكرى مقتل الشهيد النمر على أيدي طغاة آل سعود المجرمين!

قال رضا:

- هذي العملية راح تكون ثأر لشيخ الشهداء الشهيد النمر!

وتحقق ما كان يتطلع إليه رضا الغسرة! سيكون التنفيذ في 1 كانون الثاني .. في أول يوم من العام الميلادي الجديد!

قبل تنفيذ العملية بثلاثة أيام وفي يوم الخميس فوجئ محمد طوق بالشرطة يدخلون المبنى ومعهم عاملون من شركة لنصب الكاميرات .. اتجهوا مباشرة إلى الزنزانة رقم 6 ودخلوا الفنس حيث قاموا بنصب كاميرا بيضاوية تدور في 360 درجة .. نصبوا الكاميرا وفي زاوية الزنزانة الأولى نصبوا كاميرا ثانية! وراحوا يختبرون عمل الكاميرا!!

شعر الشباب بحالة من الإحباط .. وكان العمل على قطع البيب يوشك على النهاية إلا أنه ما يزال غير مقطوع!

وفقاً للمخطط يكون خروج الشباب من الغرفة أو الزنزانة رقم 6 وهي زنزانة محمد طوق!

عندما رأى محمد طوق العاملين الهنود يقومون بنصب الكاميرات أسرع إلى مبنى العزل ليخبر رضا بما يجري!

- رضا! رضا!

جاء رضا:

- هلا!

- في مشكلة!!

- ويش صاير؟!

- ركبوا كاميرا على غرفتنا!!

استاء رضا من هذا الخبر المقلق!

- روح شوف بعد وين يركبون!

عاد محمد طوق وكان يتصرف بطريقة عادية .. اتجه إلى العاملين الهنود وسأل أحدهم:

- وين بعد تركبون كاميرا؟

- بنركب هني وبعد داخل المبنى في الممر وفي مبنى العزل!!

انهارت جميع الآمال! وذهبت كل الجهود أدراج الرياح!! وابتسم الحظ وأشرقت شمس الأمل لتضيء المشهد الحالك الظلام .. فاليوم كان يوم الخميس ويوم الجمعة عطلة!!

قال العامل الهندي إنّه لم يبق وقت لنصب بقية الكاميرات وسيعودون فيما بعد!

قال رضا:

- الله يفتح على عباده أبواب الرحمة من حيث لا يحتسبون!

إذن لم يبق من الوقت سوى ثلاثة أيام .. بدءً من يوم الجمعة والسبت عطلة رسمية .. يوم الأحد سيصادف رأس السنة الجديدة وهو يوم عطلة رسمية أيضاً .. هذه آخر فرصة لتنفيذ عملية الهروب!

قال رضا:

- الليلة بنسوي خيرة إن عمليتنا تكون بتاريخ واحد واحد رأس السنة!

قال محمد طوق:

- شلون؟! والجو؟!

- لا! الليلة بسوي خيرة على تاريخ واحد واحد ونمشي على الخطة من غير الجو!

كانـت أمنيـة رضـا أن يكون هـذا التاريخ لأنه يصادف ذكرى استشـهاد الشيخ النمر!

ومن المؤكد أن رضا كان يدعو أن تكون العملية في هذا اليوم!

وافتـرق الشـباب .. عـاد محمد طـوق إلى زنزانته .. بعـد صلاة الفجر تمدد محمد في فراشـه وكان يدعو الله أن تكون الخيرة «زينة» .. سـاوره القلـق لأن رضـا لم يرسـل إليه أحد يخبره حول نتيجة الاسـتخارة! ربما لا يريد أن يصدم الشباب!

وفي الأثناء انفتح باب الغرفة وسمع صوت أحمد العرب يوقظه:

- أبو طوق!

قفز من سريره فقال أحمد:

- ويش فيك؟!!

قال محمد مرتبكاً:

- اطلع! اطلع!

وخارج الغرفة قال محمد:

- طمني! ويش صار؟!

- الخيرة ممتازة!! الخيرة زينة .. بتسيطرون وبكون ليكم توفيق من الله

شعر محمد طوق بارتياح بالغ .. كان قد بقي ليلتان على موعد تنفيذ العملية!

قال أحمد العرب أن رضا يقول: خبرو الشباب الي صوبكم بموعد العملية .. حق يجهزون روحهم!

كانت الكاميرات تنقل الصور إلى غرفة المراقبة ومن المفترض وجود عسكري أو اثنين وربما ثلاثة يراقبون ويتابعون أي تحرك غريب!

قام عيسى موسى وصادق تقي برش بطانية بالماء وقاما بتعليقها في البيبات الموجودة فوق في الفنس لملاحظة ردود الفعل من غرفة المراقبة!

بقي ينتظران لمدة عشر دقائق فاكتشفا وجود حالة تسيّب في المراقبة! فباشرا بعمل القطع وعندما فرغا من العمل ملئ الشق بالمعجون ليبدو البيب عادياً! ورفعا البطانية (البرنص)..

وهكذا فعلا في الليلة التالية وقبل موعد العملية بليلة واحدة فقط تم العمل في قطع البيب!

أحيط جميع الشباب بموعد العملية واستعد الجميع وقد بلغ التوتر أقصاه في أعماق محمد طوق .. حتى بات واضحاً على تصرفه .. كان

متوتراً مشـغول البال؛ حاول أن يجمع شـتات نفسـه لكنه أخفق .. سـأله أحدهم:

- فيك شيء؟!

سرح به الفكر إلى تنفيذ العملية وراح يتصور عملية الهروب والاشتباك مع رجال الشرطة ومرتزقة النظام وأزيز الرصاص وقد يُصاب ويُعتقل!!

وإذا ما أصيب أحد رفاقه كيف يمكن اخلاؤه ونقله وإنقاذه؟! جسده فقط كان داخل الزنزانة أما عقلة وخياله وفكره فقد كان في مكان آخر..

يتظاهـر بأنـه موجـود ويبتسـم للشـباب فـي الزنزانة .. يحـاول تبديد هواجسهم:

- لا! لا! مافي شيء!

لم يتحمل الضغط النفسـي في أعماقه .. وقرر أن يلتقي رضا .. ففي داخله سؤال كبير!

قال له:

- بسألك سؤال!

- شنو! اسأل!

- مـن البدايـة .. أنـت يـوم قلـت لـي بتهرب؟ قلـت ليـك إن روحي اسلمها بين ايديك ورقبتي تحت أمرك! لكن بسألك سؤال محيرني! ما اقدر اصبر عليه!!

- اسأل! قول!

- أنت قلت بصير هجوم مسلح وبكون شباب موجودين بره! فاسمح لي على السؤال! هل الشباب بجون؟!!

- شلون يعني؟

- ما اتوقع أن أحد بهذي الجرأة بجي لباب السجن وبسلاح!!!

- لا فـي .. الشـباب الـي بتشـوفهم بره هذليـن بهالجرأة الـي تتكلم عنها وبهذي البطولة والثقة .. والأمانة لي يمسكوها بأدونها

قال محمد متسائلاً:

- متأكد بجون؟

- متأكـد بجـون .. ومثـل مـا أنـا اشـوفك الحين اشـوفهم عنـد بوابة السجن وهم قابضين على الزناد!!

طلب محمد منه بعض التفاصيل عنهم ولكن رضا رفض بشدة:

- هـذي مهمتـي .. أنـا ما اسـمح لأي أحد يسـألني عن الـي بره وكم شخص وشلون و...

- ليش؟!

- لو لا سمح الله انكشفنا واحنا داخل! ما دام الكل يعرفهم بتجيبون أساميهم .. يمكن واحد منكم ما يقدر يتحمل التعذيب

هزّ محمد طوق رأسه مؤيداً واستطرد رضا يقول:

- محمد! احنا عندنا سلاح! ولكن نحتاج إلى سلاح زيادة حق يكون دعم لينا!

- شنو الحل؟
- بكلم السيد مرتضى وما اعتقد أن السيد يردنا
- اي ما اعتقد أن السيد يردنا .. كلمه!

تواصل رضا مع السيد في نفس اليوم:

- سيد أنا محتاج إلى سلاح ورصاص

وجاء الجواب على الفور ومن دون أية اسئلة واستيضاحات!

- متى؟
- اليوم المغرب
- تمام! الليلة تستلمهم من منطقة «س»
- بعد احتاج شغلة ثانية!
- تفضل؟
- احتاج سكن لليلة وحدة! في منطقة قريبة من دوار «ألبا»
- تمام

تـم الحصـول علـى المـكان المطلـوب وقـد أيقـن السـيد مرتضـى بأن الشباب عازمين على تنفيذ العملية في الساعات القليلة القادمة!

بدأ العد العكسـي على بدء عملية «سـيوف الثأر» .. وبدت السـاعات لدى محمد طوق تمرّ ببطء قاتل!!

كان يتصفـح وجـوه الشـباب .. يحـاول أن يمـلأ ناظريه بهـذه الوجوه

الطيبة .. ربما سيراها للمرّة الأخيرة!

تساءل في داخله .. ترى من الذي سيستشهد أولاً؟

تحوّلت بوابة السجن في خيالاته إلى بوابة للموت .. من يعبرها يعني أنه انتصر على الموت!

ترى من سيفوز بالشهادة أولاً؟

تصوّر نفسه شهيداً وراودته أفكار شتى..

من الذي سيخلي جثمانه؟! وأين سيدفن!

قبل أن تغيب الشمس فكر محمد طوق في أن يحلق ذقنه وإصلاح لحيته وفيما مشغول بالحلاقة جاءه أحمد العرب:

- محمد!
- نعم!
- احلقني!
- ليش؟
- أريد أن أقابل الله بوجه حسن!

هنا أدرك أن هواجسه قد سرت إلى الجميع! جميع الشباب كانوا يفكرون بنفس الطريقة!!

كانت النسبة في خروجهم سالمين تتضاءل باستمرار!

وكان محمد يقول في نفسه: إن هذه العملية هي عملية استشهادية..

لأن المعركة سوف تجري بين طرفين غير متكافئين .. شباب عزّل معتقلون وراء القضبان والأسلاك الشائكة وليس لديهم سلاح سوى الإيمان والإرادة في مواجهة نظام مدجج بالسلاح والإمكانات!!

كان محمد طوق وأحمد العرب يبددان هواجسهما بالمزاح، قال أحمد:

- ليش حلقت روحك اليوم؟

- صراحة أنا بعد نفس فكرتك .. حاط في بالي أن أحسّن نفسي للشهادة .. أن أقابل الله بوجه حسن!

أما موقف رضا فكان مختلفاً تماماً .. كان قد أعدّ نفسه للشهادة مئة بالمئة وكان جاداً في هذا الموضوع..

قبيل غروب الشمس .. خرج رضا وكانت البسمة تشرق على محياه .. لم تكن مشاعر القلق تبدو على وجهه .. جاء إلى محمد وقال له:

- محمد! احلقني

وقام محمد بواجبه إزاء من يعتبره القائد والقدوة والبطل والرمز وحتى الأمل!

بعد ذلك ارتفع أذان المغرب فذهب الشباب للصلاة .. بعدها قال رضا:

- أنا بدش الحين العزل!

كان قبلها قد وزع على الشباب المهام؛ قال لصادق تقي وعمار السواد:

- بمجرد أن يرتفع أذان الفجر قائلاً: الله أكبر والشباب يدشون اللنقر للصلاةانتون تجون وتفتحون باب العزل حق اطلع واجي الغرفة!

كانت ملابس الجميع موحدة .. فقد اشتروا بدلات رصاصية من «الكانتين» من أجل عدم ترك أية ظلال ولأن الجدران كانت بلون رصاصي وهناك فائدة أخرى .. أن الشباب عندما يخرجون من البوابة يكون زيّهم مختلفاً تماماً عن زي الشرطة إذا ما وقعت اشتباكات أو تقرر الهجوم من الخارج!

عمد رضا وقبل أن يغادر إلى مبنى العزل إلى الجلوس مع محمد على سريره في الغرفة 6:

- تعال اقعد صوبي!

وهذه أول مرّة يفعل ذلك طيلة وجود محمد طوق في السجن .. أي سنة وأربعة أشهر..

جلس إلى جانب رضا والتقطا صورة؛ ثم دخل «اليوتيوب» وقال:

- تعال طالع!

فأراه فيديوات حول الشهداء .. شهداء المقاومة في البحرين وشهداء المحنة في القطيف وشهداء الحشد الشعبي في ملحمة الدفاع المقدس ضد الدواعش الوهابيين!

التفت محمد طوق إلى رضا وسأل:

- ليش تراويني جدي؟!

- أريد أحرك دمك واخليك مشتاق إلى الشهادة والين قابلناهم وجه

بوجه .. ما يرف القلب ليهم ولا يهتز!

وقبل أن يغادر رضا الغرفة قال محمد:

- اوصني!
- أوصيك بوصيتين!
- شنو؟
- إذا نمت وقعدت اغتسل غسل الشهادة! واقرأ زيارة عاشوراء!

وعندما أوى محمد طوق ليلتها إلى النوم؛ لم يستطع .. تمدد على السرير وحاول أن يغمض عينيه للنوم .. قلبه يخفق وتسارع نبضه ودماؤه تغلي وقد ارتفعت حرارة جسمه .. كان ما يزال مستغرقاً في تفكيره بالشهادة والشهداء .. بعد ساعات معدودة قد يلتقي بصديق العمر وحبيبه علي فيصل رفيق الدرب!

من المحتمل أن الشهيد هو الآن بانتظار هذا اللقاء مستبشراً بقدومه..

ظل يتقلب في فراشه إلى أن حانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل!

نهض من فراشه ودخل الحمام ونفذ وصية القائد الأولى .. فاغتسل غسل الشهادة؛ بعدها أخذ المصحف وكتاب «مفاتيح الجنان» وخرج..

وهنا نهض صادق تقي ودخل الحمام وبعده عيسى موسى وبعده حسن السواد .. واكتشف محمد طوق أن الشباب كلهم نهضوا لغسل الشهادة..

خرج الشباب إلى «الفنس» وجلس كل منهم في زاوية من المكان

وكانوا يترلون القرآن ترتيلاً..

قبل أن يبدأ محمد طوق بقراءة زيارة عاشوراء .. فكر أن يذهب إلى جعفر ليرى ما إذا كان قد استيقظ أم ما يزال نائماً؟! غادر ليقابل أحمد العرب عند الباب في غرفة رقم 1 .. كان أحمد يصلي صلاة الليل .. كان يصلي خارج الغرفة لأنه لا يوجد مكان فيها للصلاة!

تقدم باتجاه الغرفة 3 .. نظر في داخلها ولم ير «أبو حيدر» في سريره .. اتجه إلى الغرفة 8 .. فتح الباب وكان جعفر قد غطّى وجهه باللحاف .. انتبه لفتح الباب ورفع اللحاف .. سأله محمد:

- واعي؟!
- ما نمت أصلاً
- يلا جهز روحك!
- إن شاء الله

عاد محمد أدراجه إلى «الفنس» وقرأ زيارة عاشوراء وأدى صلاة الليل .. بعدها جلس قليلاً وراح يدور على الشباب وكانوا جالسين بالقرب من بعضهم البعض فسألهم:

- ويش الوضع؟ ويش الأجواء؟
- إن شاء الله خير

كان محمد يحمل بيده المصحف فتوجه إلى الله بالدعاء أن يظهر له في آياته ما يدخل الطمأنينة في القلوب الحائرة! قال بخشوع:

- بسم الله الرحمن الرحيم .. اللهم صل على محمد وآل محمد

وفتح المصحف فظهرت له سورة الأنفال .. سورة الحرب والقتال والمواجهة والجهاد والثبات .. وراح يقرأ السورة بخشوع وحماس وأمل:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[1]

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾[2]

﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾[3]

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[4]

تدفق في قلبه نبع من الطمأنينة والشعور بالسلام .. قبّل المصحف ووضعه باحترام جانباً والتفت إلى الشباب يبشرهم:

- النصر حليفنا!

ابتسموا وقالوا:

- إن شاء الله

راحوا ينظرون إليه متسائلين! فقال لهم:

---

1. الأنفال: 12
2. الأنفال: 17
3. الأنفال: 9
4. الأنفال: 30

- لا تسألوني شلون! ولكن النصر حليفنا!

واصل الشباب تعبدهم في تلك الليلة وقد غمر الظلام جميع الأشياء وأحاطها بالأسرار .. هذا الظلام الحالك سينقشع مع فجر الحرية..

كان الشباب يترقبون ارتفاع الأذان وانطلاق «الله أكبر» في الفضاء .. وحينها تكون قد بدأت ساعة الصفر!

ما إن انطلق نداء التوحيد: الله أكبر! حتى وقف الشباب جميعاً يكبرون تكبيرة الجهاد والشهادة..

ربما ستكون هذه الصلاة الأخيرة .. وبعد الفراغ من الصلاة خرج صادق وكان بصحبته عيسى مسرعين إلى مبنى العزل!

فوجئا بوجود شخصين كانا في الحقيقة قد اعتادا على انتظار «أبو حيدر» وكان أبو حيدر ينظر إليهما لكنه كان يريد التوجه إلى الغرفة رقم 6!!

سألهما صادق:

- تحارسون ويش؟

- نحارس أبو حيدر

وعلى الفور قال صادق وكأنما الهم إلهاماً!

- أبو حيدر دخل الحمام بيسبح! بيتأخر! ادخلوا انتون لا تفوتكم صلاة الجماعة!

دخل الشخصان ونجحت فكرة صادق في إنقاذ الموقف..

أدخل عيسى موسى المفتاح في باب العزل قائلاً:

- بسم الله الرحمن الرحيم

وأدار المفتاح وانفتح الباب! وخرج رضا وحسين البناء .. كان شباب العزل قد شاهدوا رضا وحسين قد أديا صلاة الفجر ولبسا «جواتيهم» وتجهزوا ووقفوا عند الباب .. فكانوا مستغربين جداً!!

استدار إليهم رضا وقال:

- شباب! لحد يستغرب! تحملوا بروحكم جميعاً! وهذا وداع بيني وبينكم

وراح يصافحهم وعانق صديقه الحميم «علي السنكيس» وقال له:

- تحمل بروحك واجد

وهكذا غادروا مبنى العزل وأغلقوا الباب وتوجهوا إلى الغرفة أو الزنزانة رقم 6..

دخل رضا الغرفة قائداً لأخطر عملية هروب من سجن «جو» الرهيب!

ومع دخول رضا دخلت الفرحة في نفوس الشباب المنتظرين ودخل معها الأمل؛ رضا هو العقل المفكر والمدبّر للعملية الخطيرة .. قال لهم:

- تمام كلكم؟!

- تمام!

وهنا ركب المايك في جهاز التلفون ووضع المايك على إذنه واتصل .. كانت الأبصار تتجه إليه وكان الشباب في حالة استعداد وتأهب:

- سلام وين وصلتون؟

- ....

- وصلتون عند البوابة؟

- ....

- وين أنتون؟ خلف السيارات بالضبط؟ كم عدد الشرطة؟ والطائرة المسيّرة وين؟ فوق السجن! خلها تكشف «براحة» السجن! الوضع آمن؟

التفت رضا إلى لشباب:

- العملية تبتدي .. يا فاطمة الزهراء!

وهكذا بدأت عملية الهروب إلى الحرية!

- يلا شقحوا!

كان أول من «شقح» أحمد العرب وتلاه أبو حيدر ثم محمد طوق وبعده صادق واستقروا جميعاً فوق المبنى..

كان رضا يقود العملية:

- كل واحد من يركب ينبطح فوق المبنى

وكان رضا في ختام الجميع وصل إلى السطح وانبطح وراح يزحف وهو يلتفت يميناً ويساراً!

الجميع ينتظر الأوامر من القائد الباسل الذي تقدم وأصبح أمامهم وأعطى الإشارة بيده أن يتقدموا!

وبدؤوا بالزحف وراءه إلى أن وصلوا زاوية المبنى .. قال رضا:

- الحبال! الحبال!

تقدم أبو حيدر لأنه كان المسؤول عن هذا الموضوع!

قام بربط الحبال مع المبنى ونزل وبدؤوا بالنزول الواحد تلو الآخر وكان رضا آخر من نزل .. قال لهم قبل الشروع بالنزول:

- من تنزلون تسندون ويه الطوف

وهذا ما فعله الجميع .. نزلوا والتصقوا بالجدار..

عندما تأكد رضا من أن الوضع آمن أصدر أمره إلى أحمد العرب وعمار السواد:

- روحوا سريع إلى السكيب مال الخمام

كانت المهمة الموكلة لهما هي قلب حاوية النفايات لتكون منصة لعبور الأسلاك الشائكة لذلك طلب من صادق تقي وكان يحمل البطانيات:

- اطلع وراهم

ركض صادق وصعد على الحاوية ونشر البطانيات فوق الأسلاك الشائكة..

خاطب رضا محمد:

- اطلع محمد إلى السكيب ومن توصل اقعد!

وأوصى بقية الشباب أيضاً بذلك!

ونهـض الشـباب واحـداً بعد الآخـر لتنفيذ أمـر القائد الشـجاع .. كانوا يجلسون عند «السكيب» .. وصل رضا وقال:

- الحيـن لحد يشـقح على السـياج ويوقـف! انسـدحوا وزحفوا لأنه إذا وقفنا بصير الوزن مال الجسـم كله في محل واحد وبنطيح في الأسـلاك الشـائكة .. افلتـوا جسـمكم كامل على الأسـلاك وعقب اقلبوا روحكم

وهنا تقدم رضا ليريهم كيفية عبور الأسلاك!

نهـض الشـباب الواحـد بعـد الآخـر .. كانـوا يفلتـون أجسـامهم فـوق الأسلاك ويقلبون أنفسهم للسقوط بين الجدارين!

وكان الشرطي في برج المراقبة لا يستطيع رؤيتهم لأنهم ما إن انزلقوا إلى الأسفل حتى التصقوا بالجدار وحينئذ تتعذر رؤيتهم؛ عندما صعد أحد الأخوة ارتكب خطأً في طريقة «الشـقح» على السـياج! وأصبح وزنه على قدميه وتعلقت رجلاه في السياج .. حاول رفعهما فاخفق .. القى وزنه في مكان آخر ليرفع رجليه .. وهنا ارتفع جسـمه فانتبه الشـرطي في برج المراقبة .. فصرخ الشرطي:

- اوقف! اوقف!

وكان حسـين البناء ما يزال لم يعبر السـياج؛ أفلت نفسـه الأخ .. كان محمد خلف رضا مباشرة .. وعندما صرخ الشرطي اطلق رضا نداءه:

- يا فاطمة الزهراء!

وهنا تناهى صوت إطلاق الرصاص نحو السجن .. قال رضا آمراً:

- يلا! اركضوا!

انزلق حسين البناء وراح الجميع يركض إلى أن وصلوا المنعطف الثاني الذي يؤدي إلى باب السجن .. كان رضا يتقدم الجميع وعندما انعطفوا باتجاه البوابة ظهر شرطي أردني على مسافة مترين ونصف .. وقد شهر سلاحه بوجه رضا! ولم يكن رضا يحمل سلاحاً .. صرخ الشرطي:

- اوقف! لا اطخك!

وقف رضا ولعله رأى أبواب الجنة قد فُتحت .. لذلك صرخ بصوت عال جداً .. صرخ من أعماقه التي تضطرم بالغضب المقدس:

- يا فاطمة الزهراء!!

لقد تجلت الشجاعة في هذا القائد الشاب كأعظم ما تكون! كانت صرخته ومن ثم هجومه على الشرطي قد حسمت الموقف!

لو أن رضا قد تراجع خطوة واحدة لانتهت العملية بالفشل!

وحصلت المفاجأة أن الشرطي المسلح يرفع سلاحه إلى الأعلى فاعتنقه رضا وألقاه صريعاً على الأرض!

بادر محمد فضرب الشرطي بالبيب على رأسه لكي يفلت السلاح .. قاوم الشرطي الأردني! عيسى موسى ضرب الشرطي بالبيب فوقعت ضربته على ظهر محمد طوق الذي لم يشعر بالألم بسبب التوتر الشديد..

تقدم الشباب وبقي محمد وأحمد ورضا وأبو حيدر مع الشرطي .. وتمكن أبو حيدر من الإمساك بيد الشرطي وانتزاع السلاح .. وهنا خرج عدد من الشباب من البوابة .. رأى علي العرب وهو أحد المهاجمين أن

الخارجين أقل من العشرة .. تقدم علي العرب إلى داخل السجن ونادى على الباقين:

- يلا! يلا! طلعوا! طلعوا!

رضا أفلت الشرطي واتجه إلى الباب .. وقف علي العرب كالأسد وأشار إلى محمد طوق ورفاقه بالخروج فوراً .. وكان يتراجع وسلاحه باتجاه السجن لحماية الهاربين .. ركض الشباب نحو السيارة ليستقروا في داخلها..

وأخيراً ركب «علي العرب» الذي قام بتأمين الحماية لرضا ورفاقه!

أمر رضا سائق السيارة بالانطلاق بأقصى سرعة باتجاه «دوار ألبا» .. وزع رضا السلاح على الجميع وقد تمركزوا عند النوافذ تحسباً لأي اشتباك قد يحدث!

اعترضت طريقهم «دورية أمنية» .. قاد السائق السيارة ليصدم الدورية في إحدى الزوايا وكانت سرعته قصوى ووصلت السيارة منطقة «سند» .. والشارع فيه كثير من المطبات .. صاح صادق وكان في المؤخرة:

- شباب! على سعة! على سعة!

التفت إليه رضا:

- ليش شصاير؟

- أبو حيدر مصاب

- وين إصابته؟

- في رجوله!

الحمدلله إن إصابته ليست خطيرة، لذلك قال رضا:

- مو مشكلة!

وصلت السيارة إلى النقطة المحددة في مخطط رضا .. واقتربت من البيت الموعود، فتحت «الطبيلة» من بعيد بالريموت ودخلت السيارة واغلقت..

ترجل الشباب يهنئ بعضهم بعضاً .. بادر محمد طوق إلى رضا وعانقه مهنئاً:

- الحمدلله على السلامة

بعدها دخل الشباب! لقد نجحت عملية الهروب..

انتهى الفصل الأول .. ولكن بدأت فصول أخرى! ما يزال الخطر قائماً!

- هذا لا يعني أننا وصلنا إلى بر الأمان!

- لقد نجحنا في اقتحام بوابة الموت .. لكن الموت ما يزال يطاردنا!

- ماذا عن الكاميرات في الشوارع .. ربما صوّرت السيارة وعرفت وجهتها!

لذلك كانوا في الداخل وما يزال التوتر يسود الأجواء حتى أن محمد طوق كان يجلس لحظات ثم ينهض ليلقي نظرة من خلال النافذة!

ما تزال الأيدي على الزناد تحسباً لعملية اقتحام تقوم بها الشرطة والقوات الأمنية!

كان محمد طوق قد نذر أن يؤدي ركعتين ويهدي ثوابها إلى المعصومين الأربعة عشر وإلى أبي الفضل العباس والسيدة زينب الكبرى! إذا ا وفقهم الله في عملية الهروب..

لكن محمد طوق لا يستطيع الآن أداء النذر بسبب توتره الشديد وعصف الهواجس!

وهنا ظهر رضا وسط التوتر ووجود مصاب لا يعرف أحد كيف يعالجه!

ظهر رضا وهو يتوضأ ثم يفرش سجادته ويقف لأداء الصلاة .. إنها صلاة الشكر لله رب العالمين..

الجميع كان ينظر إلى رضا وينتظر التعليمات .. فهو قائد العملية وهو الذي يتواصل مع الآخرين في ترتيب أماكن آمنة..

لذلك كانت عيون الجميع شاخصة نحوه .. رضا يضع سلاحه فوق السجادة ويؤدي الصلاة بكل طمأنينة وسكينة وسلام!

كان الجميع باستثناء القائد في حالة توتر وترقب لردود فعل النظام! ترى ماذا جرى ويجري الآن في سجن جو؟! وماذا سيحصل و....

رضا جالس فوق سجادته وكان كتلة من الهدوء والسكينة! أي قلب شجاع ينطوي عليه صدر هذا الشاب؟!!

مرّت ستون دقيقة وما تزال الأجواء متوترة إلى أن يتم الحصول على بيت آخر وكان أهل الدار لا يعرفون شيئاً عن هذه العملية!!

إلى ما قبيل ارتفاع أذان الظهر كان الشباب ينتظرون رد فعل النظام .. وهنا صدر بيان لوزارة الداخلية الذي أشار إلى هروب عشرة من أخطر

الإرهابيين في البحرين .. وتضمن البيان تهديداً ووعيداً لكل من يقوم بإيوائهم!!

وشعر أهل الدار بالخوف والذعر لذلك قالوا للشباب بكل احترام وأدب:

- اننا ما نقدر نخليكم عندنا! فشوفوا ليكم مكان غير!

وراح رضا يتواصل مع بعضهم لتأمين ملاذ آمن للشباب..

كان رضا عندما يتواصل مع شخص يقوم بتحطيم الجهاز ورميه بعيداً ويستخدم جهازاً آخر.. وقد استخدم رضا في هذا اليوم الحافل بالحوادث المثيرة تسعة أجهزة وهو ما يزال يبحث إلى ما بعد الظهر! قال رضا:

- محمد! احنا عددنا كبير فإذا حصلنا مكان ثاني بننقسم .. بنصير قسمين .. فأنتون وخسمة اطلعوا الحين! بتجي سيارة وبتشيلكم بتنقلكم إلى مكان آخر..

- وأنتون؟!

- إذا ما حصلنا مكان بنجي ليكم

بعد دقائق وصلت سيارة وانتقل صادق ومحمد وعيسى وعمار وحسن السواد..

وصلت السيارة إلى المكان البديل .. ودخل محمد دورة المياه وعندما خرج سمع صوت رضا، قال محمد:

- ما حصلتون مكان؟!

- حصلنا مكان .. لكن أنا غيّرت فكرتي .. إذا افترقنا سنكون في عدد أقل .. فكرت أن خلال اليومين أو ثلاثة أيام القادمة .. أن نكون مع بعض .. عشان نكون عدد أكبر وقوة أكبر في حالة حدث هجوم..

أصبح العدد الكلي أربعة عشر بعد إضافة قوة الهجوم المكونة من أربعة من الشباب المقاوم!

أحضروا ملابس واستحم الجميع وارتدوا ثيابهم الجديدة بعد أن تخلوا عن ملابس العملية الرصاصية اللون!

وهكذا تقرر البقاء في هذاالمنزل جميعاً مدّة مؤقتة أياماً معدودة..

طلب رضا اجتماع الجميع لأنه يود الحديث معهم، قال رضا بلهجة جادة:

- هذه الجهود الي سويناها وبذلناها كامل ما نبغي تروح هباءً منثوراً .. احنا طلعنا من السجن وعندنا خيارين! ما عندنا خيار ثالث! أما الحرية أو الشهادة! رجعة للسجن ما بنرجع!

سأله محمد:

- ويش تقصد أبو حسن؟!

- احنا إن شاء الله بنكون في مأمن من الله .. ولكن أي هجوم علينا أو اي تحديد لموقعنا وبعدها بيهجمون .. ما بننتظرهم يدشون علينا! بل احنا بنطلع ليهم! يعني بمجرد أن يحاصرون المنطقة الي احنا فيها ويحاصرون البيت .. ما بننتظرهم يدشون داخل علينا!

بـل احنا بنطلع ليهم وبنقاومهم مقاومة الأبطال وما يشـيلونه من الأرض إلا شهداء .. وإذا بيعتقلونه يعتقلون أجسادنا مو أرواحنا!

شطب رضا تماماً على خيار الاستسلام مهما كان الثمن .. لم يبق أمام هؤلاء الفتية الذين آمنوا سـوى الحريّة أو الاستشـهاد .. وضع رضا برنامج الشباب حتى في وقت النوم! قال:

- حتـى فـي وقت النوم مـا يصير ننام كامل! ننـام بالمناوبة .. دفعة تنـام ودفعـة يكونون قاعدين يراقبـون ويتابعون أي تحرك غريب في الخارج!

مكـث الشـباب في هـذا البيت ثلاثة أيـام! بينما الأوضـاع في الخارج تموج بالحوادث!

دخلـت الأجهـزة الأمنية حالة الطوارئ وبدأت حملات التفتيش! وفي كل ثلاثين دقيقة كان الشـباب يسـمعون صوت الطائرة .. وكان الشـباب يتابعـون الأخبـار علـى التلفزيـون وكانـت القنوات قد نشـرت خبر هروب الإرهابيين وقد رفعت الحكومة حالة الاستعداد وحالة التأهب إلى أعلى مسـتوى؛ وبذلـت كل جهودهـا مـن أجـل الكشـف عـن مخبـأ الإرهابيين العشرة!!

كانـت الأوضـاع فـي غاية الخطـورة .. ويصبح الخطـأ الأول في هكذا ظروف الخطأ الأخير!

كان رضا جالسـاً في الصالة مسـتغرقاً بتنظيف سـلاحه وحوله الشباب وإذا بـ«راعـي الشـقة» يفتـح البـاب لتقع عيناه على مشـهد رضا وهو يقوم بتنظيف سلاحه!

واتجهت العيون إلى صاحب الشقة! وهو أيضا تسمر في مكانه تحت وقع المفاجأة!

راح الرجل يتصفح وجوه الشباب الواحد بعد الآخر وما إن استقرت عيناه على رضا أشار إليه قائلاً:

- أنت رضا الغسرة؟!!
- اي أنا رضا
- قوم اوقف!

نهض رضا واقفاً! وهنا اتجه إليه الرجل واحتضنه بقوة وحب شديد وراح يقبله بعدها، قال:

- من بداية انطلاق الثورة إلى هذي اللحظة كنت أقول عن كل عمل مقاوم في البحرين هو عمل استخباراتي أو مسرحية! لكن الآن في هذه اللحظة تأكدت وتيقنت أن كل عمل مقاوم في البحرين هو مقاومة من رجالات المقاومة!

ثم خاطب رضا الغسرة:

- عندما رأيتك الآن واقفاً أمامي عرفت أنه في البحرين توجد مقاومة حقيقية!

كان رضا يمتلك كل قدرات وقابليات القيادة! في داخل السجن كان يخفي نفسه كقائد .. لا أحد يعرف ماذا كان يفعل وكيف يخطط ويقود العمل خارج السجن وهو وراء الأسلاك الشائكة والجدران القاسية!

أما الآن فقد تجلّت شخصيته القيادية على نحو ينتزع الإعجاب ..

لقد أثبت أنه يستحق أن نقول عنه «القائد»..

بقي رضا الغسرة وهو مبتسم الوجه متواضعاً مهذباً عطوفاً لم يترك صلاة الليل ليلة واحدة .. مداوماً على قراءة زيارة عاشوراء في كل يوم، قال للشباب:

- إن كل عمل نقوم به داخل السجن لا يتغير الآن ونحن خارج السجن!

ولهذا استمر الشباب في قراءة زيارة عاشوراء يومياً بعد صلاة الظهرين!

بعد ثلاثة أيام قال رضا:

- وصلنا إلى مرحلة استقرينا وخطتنا الأمنية مشت بسلام .. وما في أي خيط عند الأجهزة الأمنية .. فجلوسنا مع بعض ما ينفعنا ولا يوصلنا إلى الهدف .. لازم ننقسم إلى مجموعات!

كان العدد ثلاثة عشر بعد أن غادر حسين البناء منذ اليوم الأول وفضّل أن يكون بمفرده!

قال رضا:

- محمد وصادق تقي وعيسى موسى في مجموعة! وعمار السواد وحسن السواد وحسين عطية وجعفر عبدالحسين في المجموعة الثانية..

أما المجموعة الثالثة فقد كانت تضم رضا وباقي الشباب والتفت إلى محمد قائلاً:

- محمد! أنت مار ببعض التجارب في المطلوبية وكيف أن النظام

يسـعى للقبض عليك وكيف يصل إلى الخيوط .. لهذا على عاتقك تكون هذه الأمور .. حاول أن تقطع كل خيط للنظام يوصله إليكم

ثم سأله:

- تواصل مع من؟

- تواصل مع السيد مرتضى

اتصـل رضـا بالسـيد مرتضى وأخبره بـأن محمد ورفاقـه يحتاجون إلى مكان آمن وهذا ما تحقق لهم بسرعة..

حصلـت مجموعـة رضـا ومجموعة عمار كلاًّ على مـكان وملاذ آمن .. وبقي الشباب بانتظار السيارات التي تقلهم إلى أمكنتهم الجديدة!

كان محمد يطيل النظر إلى قائد العملية وكأنه أُلهم بأن هذه النظرات ستكون الأخيرة!

قال رضا:

- سنلتقي إن شاء الله وسنجتمع من جديد!

وصلـت السـيارة التـي تقـل مجموعـة عمار السـواد ورفاقـه .. فنهضوا للوداع على أمل اللقاء قريباً!

وبعـد حوالي نصف سـاعة وصلت السـيارة التي تقـل مجموعة محمد طوق؛ وفي نفس الوقت وصلت السيارة الثالثة لنقل مجموعة رضا الغسرة .. ولم تكن أيّاً من هذه المجموعات الثلاث تعلم بالمكان الذي سـتأوي إليه!

وحانت لحظات الوداع حيث ودع محمد طوق كلاً من رضا وأحمد العرب بحرارة وحب وشوق!

- تحمل في روحك أحمد!

- تحمل بروحك .. لا تنسانا من دعائك

كان رضا آخر من ودعه محمد طوق؛ امتلأت عيناه بالدموع وفضّل الوداع بصمت لأنه إذا تكلّم فسوف يجهش بالبكاء وهو لا يريد أن يبكي في هذه اللحظات..

أوصاه رضا مرّة أخرى:

- محمد! تحمل بالشباب وتحمل بروحك .. ولا يصير أي غلط .. ما نبه نخسركم .. وإن شاء الله قريب نلتقي

وهكذا انتهى مشهد الوداع وافترق الأصدقاء ورفاق الدرب..

وصل محمد طوق ورفاقه في مجموعته إلى منطقة «س» وكان استقبال أهل الدار حاراً حتى أنهم وجدوا الغذاء جاهزاً فأدوا الصلاة وقرأوا زيارة عاشوراء وتناولوا غداءهم..

بعد الغداء مباشرة تناهى لهم صوت طائرة هلوكبتر تحلق قريباً جداً .. كان الصوت يهزّ الدار لشدة انخفاضها!

طلب محمد من «يونس» الذي نقل المجموعة إلى هذا المكان:

- شنو الموضوع؟ شوف إلينا الموضوع!

كان لدى يونس جهاز .. فدخل إلى «قروب المراقبة» في المنطقة

وكانت الأخبار تدل على أن الشرطة يبحثون عن الهاربين!

قال يونس:

- سكروا مداخل المنطقة كلها! وقوات الكوماندوز نازلين وفرق مداهمات كثيرة في المنطقة! وقد نصبوا نقاط تفتيش في شوارع وطرق القرية الداخلية!

قال محمد متسائلاً:

- من قبل هذا اليوم صار جدي؟ أو أول مرّة؟!

بدا الارتباك على وجهه:

- أول مرّة يصير جدي في المنطقة!!

خطر في ذهنه أن قوات النظام تمكنت من تحديد موقعهم وقد جاؤوا لمداهمة المكان!

استعد محمد طوق للشهادة وترددت في وجدانه كلمات رضا:

- يعتقلون أجسادنا مو أرواحنا

أمسك بسلاحه وضمه إلى صدره بقوة .. واستعد للمواجهة حتى النفس الأخير؛ التفت إلى رفاقه:

- مقاومة؟

- حتى الشهادة!

مرّت ساعة تقريباً وهم على أهبة الاستعداد لأي عملية اقتحام؛ تراجع صوت الطائرة وتضاءل تدريجياً إلى أن انقطع تماماً .. سأل محمد

طوق «يونس»:

- ويش صار؟ شوف ويش صار؟!

راح يونس يتابع التطورات على مواقع التواصل للقرية وقال لـ«محمد»:

- انسحبوا! الوضع آمن

اتضح فيها بعد أنهم كانوا قادمين للقبض على أحد المطاردين من رجال المقاومة! وكان بيته قريباً من البيت الذي لجأ إليه محمد طوق ورفاقه! لذلك قال محمد لـ«يونس»:

- لازم نبدل المكان! ما يصير نبقى في هذا المكان! من المحتمل أن الرجل المطارد قد أفلت وهم سيداهمون البيوت القريبة من بيته!

سعى يونس في البحث عن مكان آخر وتمكن من الحصول على بيت آمن .. فانتقلت المجموعة إليه!

كانت المنطقة تنعم بالأمن وكان أهل البيت في غاية الطيبة والكرم والمحبة .. ولم يترددوا لحظة في دعم شباب المقاومة .. كان همهم حماسية شباب المقاومة ولذا احتضنوهم ولم يهابوا التهديد والوعيد!

مكثوا أسبوعاً وخلال هذه المدة كان محمد ورفاقه ينفذون وصايا القائد .. يتناوبون في النوم وكانوا دائماً على حذر واستعداد للمواجهة .. كانوا يتناوبون الحراسة..

واستمر برنامجهم الروحي كما هو عليه في السجن من صلاة الليل وزيارة عاشوراء .. بعد مضي أسبوع كامل فاتح محمد طوق يونس .. قال له:

- لازم نغيّر المكان وننتقل إلى مكان آخر!

طلب منه أن يتواصل مع الأشخاص الذين يتواصل معهم لاستلامهم ونقلهم إلى مكان آخر!

تواصل يونس مع شخص معتمد من قبل السيد مرتضى السندي .. وتم الحصول على مكان آمن حيث مكثوا فيه لمدة أسبوعين..

كان محمد طوق دائم التفكير في أسرته .. في أبويه .. في أخواته وأخيه .. كلمات رضا ما تزال تدوي في وجدانه .. كان رضا قد قال للشباب قبل تنفيذ العملية:

- شباب الي يريد ينسحب من الآن ينسحب .. تعرفون عواقب هذه الأمور! وحطّوا اسوأ الاحتمالات الي بتصير عقب الهربة! يعتقلون بيتكم! يعتقلون أمك أو أختك أو أحد من عائلتك! لازم كل واحد منكم يحط اسوأ الاحتمالات .. لأن عقب ما نمسك البيب مال الهربة مافي تراجع عقبها!

كان محمد طوق يعي جيداً أن للحرية ثمن وأن الحرية لا تأتي إلا بالتضحيات!

لقد وضع في حساباته أن النظام سيعتقل عائلته وأصدقاءه وأحبته ولكنه لن يستسلم أبداً .. فهذا هو طريق الحرية والكرامة!

بدأت أجهزة النظام بالتشويش على العملية وحاولت توحي بأنها مفتعلة .. فقد تضمن البيان الأمني إشارة إلى احتمال وجود بعض الشرطة المتعاونين مع «الإرهابيين»..

شباب المقاومة ينفذون عملية بطولية ولكن ثمة من يُشكك فيها!

الشباب لا يستطيعون الاتصال بعوائلهم خوفاً من عواقب هذا الاتصال وهناك من يشكك فيهم!!

محمد طوق يمر بأزمة نفسية فقلبه وعواطفه تشدّه للاتصال بأسرته وعقله يحذره من العواقب!

محمد ورفاقه يتلهفون من أجل الاتصال بأسرهم وأحبتهم وهناك من يشكك في مصداقيتهم!

وإنها من مفارقات المحنة أن يختار الشباب المقاوم العيش في غرفة ضيقة من أجل الانطلاق في رحاب أوسع وأن يعملوا تحت جنح الظلام من أجل نشر النور!

فتح محمد طوق التلفزيون من أجل متابعة الأخبار والتطورات .. وظهر الخبر المثير أن النظام يمهد لتنفيذ أحكام الإعدام بكل من علي السنكيس وعباس السميع وسامي مشيمع .. كل القنوات الأخبارية أشارت إلى هذا الخبر؛ وقد تأكد ذلك عندما أجرت إدارة السجن اتصالاً بعوائلهم من أجل الحضور وزيارة أبنائهم في يوم السبت وكان عطلة رسمية؛ عمّ الحزن نفوس الشباب .. كان حزنهم حزناً مقدساً لأنه امترج مع بشرى الشهادة في سبيل الله وهو أعلى وسام يمكن أن يناله الإنسان الرسالي المؤمن!

ساد صمت حزين أجواء الغرفة الصغيرة واتسحب كل إلى أعماق نفسه .. يسترجع ذكرياته مع الشباب..

ظل الشباب ساهراً يترقبون .. إلى أن حط طائر الكرى فوق أجفانهم!

طلع الصبح! وهب محمد طوق مذعوراً على صوت غراب ينعق .. قال في نفسه منزعجاً من هذا الصوت المنكر!

- ويش هالصوت المشؤوم! غراب الشوم

أغمض عينيه المثقلتين نعاساً وإجهاداً ليهب من غفوته مذعوراً على صوت انفتاح الباب!

ظهر وجه صاحب البيت غارقاً في الحزن!

سأله محمد:

- شنو صاير؟!
- عظم الله أجوركم في الشباب!!
- أعدموا الشباب؟!
- اي .. انتشرت الأخبار بأن أعدموهم واتصلوا إلى أهاليهم
- شنو ردة الفعل من الناس؟! صار شيء من المقاومة .. في ردة فعل؟
- أمس كان في عملية للمقاومة في «بني جمرة» بسلاح وانصاب أحد المرتزقة في رأسه
- ويش الأوضاع في الخارج
- للحين مافي شيء

- شوف شنو يصير في الخارج وتعال خبرنا أول بأول!

تفجـر بركان غضب في نفوس الشـباب وكانوا يفكرون بالثأر للشـهداء من هذا النظام القاتل!

كان صاحب البيت ينقل إلى الشباب الأخبار أولاً بأول:

- الناس بدت تطلع في الشارع

كان محمـد طـوق ورفاقه متأكدين أن النظام سـيقوم بإعدام الشـباب انتقاماً لمقتل الضابط الإماراتي والنظام لا يريد أن يفرط بهذا الحليف!

لكن توقيت الإعدام جاء ردّاً على عملية الهروب الكبرى!

فالعمليـة أحدثـت زخماً واسـعاً في نفوس شـباب المقاومة وألهمتهم الجـرأة والاندفـاع في طريق مقارعة هذا النظام المجرم .. حتى الشـباب الذيـن كانـوا بعيدين عـن المقاومة أثـارت العملية المثيـرة روح الحماس في نفوسهم!

أراد النظـام الخليفـي كسـر شـوكة المقاومـة وتحطيـم آمـال الشـباب وتهديد الشعب بأن ثمن هكذا عمليات سيكون باهظاً جداً!

كان التلفزيـون الصغير هو النافـذة الوحيدة لـ«محمد طوق» ورفاقه .. فقد كانوا منعزلين عن العالم وعما يجري في خارج هذه الغرفة الصغيرة التـي تحولـت إلـى كهـف أوى إليـه الذين آمنـوا حتى يجعـل الله لهم من أمرهم رشداً!

وذات ليلة جاء صاحب البيت وكان يحمل كيسـاً فيه عشـاء للشـباب .. قال لـ«محمد»:

- محمـد! تعشـوا وعقـب تعـال ويايـي الغرفـة الـي تحـت .. امبي اتكلم وياك!

- مو مشكلة!

بعد تناول العشاء جاء صاحب البيت وقال لـ«محمد»:

- حياك!

نهـض محمـد وذهـب مـع صاحـب البيـت إلـى الغرفـة فـي الطابـق السفلي..

وقبل أن يفتح باب الغرفة قال صاحب البيت:

- محمد! في تلفون داخل مغطي كاميراته .. ولين دخلت لا تتكلم ولا كلمة .. خذ التلفون سيد مرتضى السندي يباك!

- مو مشكلة!

أخـذ محمـد الجهاز وتحدث مع سـيد مرتضى .. وبعد تبادل التحيات واطمئنانـه علـى الشـباب .. حيّا شـجاعة الشـباب فـي عمليتهـم البطولية وأثنى على قيادة رضا الغسرة ثم قال:

- محمـد! مـا أطـوّل عليـك! جهز روحـك بكـره أنت وواحـد من الي وياك!

- ليش؟!

- بكره بنطلعكم خارج البحرين!

بادر محمد على الفور:

- ورضا الغسرة؟ ويانه؟!
- أنـا مكلـم رضا قبل لا أكلمـك ورضا قال: أنا امبي اطلع بالمجموعة الي ويايي كامل .. فهو الي قال كلم محمد خلوه يطلع!
- رضا موافق؟!
- اي! رضا الي خبرنا
- ما يصير احنا ثلاثة وبس اثنين نطلع؟!
- لا أنت لا بد تخرج وورياك شـخص! والشـخص الي يبقى بعد أيام قليلة راح نسعى نطلعه ويه دفعة رضا الغسرة

وقع محمد طوق في حيرة من أمره .. فالجميع معرضون للقتل!!

والخطر قاب قوسـين أو أدنى من كل الشـباب! وهنا تتجلى أروع صور الإيثار والفداء .. قال سيد مرتضى لمحمد وهو يحاوره:

- أنـت تواجـه حكم إعـدام .. فراح بكون أسـهل إعدامـك وعندهم الحجّة .. فلازم تخرج!

قال محمد في نفسه كيف يخرج ويترك رفاقه معرضين للخطر!!

إنه لا يستطيع فعل ذلك .. لن يتخلى عنهم مهما كانت النتائج!

اتفق محمد مع صاحب البيت أن يتم نقل صادق وعيسى إلى جزيرة سترة تمهيداً لخروجهم عن طريق البحر!

صعد محمد إلى الغرفة الصغيرة .. قال لرفيقيه:

- صـادق! عيسـى! بكـره راح تطلعـون وأنـا راح اطلـع بعدكـم مـع

الدفعة الثانية!

رفض صادق بشدّة:

- أنا ما اطلع من دونك! أنت اطلع وأنا اقعد! أنت اطلع وأنا بحارس الطلعة الجاية!

قال محمد ليقنعه بالخروج:

- أنا بعد ثلاثة أيام بطلع!

- يا أنت تتقدم .. أو نقعد ويه بعض!

وأخيراً اقنع محمد رفيقيه بالخروج أولاً .. فتقرر نقل صادق وعيسى إلى سترة غداً .. وقد اضمر محمد عدم إخبار سيد مرتضى بذلك فالمطلوب هو خروج شخصين فقط!

وأطل صباح اليوم التالي وجاء صاحب البيت .. فتح باب الغرفة وقال:

- شباب جاهزين؟!

قال محمد لرفيقيه:

- يلا قوموا

وقال لصاحب البيت:

- جاهزين الشباب!

قال صاحب البيت:

- لا مو شخصين! السيد كلمنا وقال ثلاثة أشخاص!!

وهكذا انطلق الشباب نحو «سترة» في ذلك الصباح .. في الطريق تساءل محمد عمن سيستقبلهم هناك ويتبنّى عملية خروجهم!

خطر في باله اسم «س.ح» رجل المهمات الصعبة!

وصلت السيارة إلى النقطة المحددة لتقف قرب سيارة مظللة!

- يلا شباب نزلوا!

انتقل الشباب إلى تلك السيارة وهناك رأى محمد «س.ح» وكانت بينهما علاقة صداقة! التزم الشباب الصمت وانطلقت السيارة إلى المكان وهناك عندما وصلوا رحب بهم «س.ح» وحمد الله على سلامتهم..

قال محمد:

- تعرف أن قبل وصولي إن أنت مو غيرك الي راح يستلمنا!

رأى «س.ح» أن الشباب لا يملكون الملابس المناسبة .. طلب منهم الاستراحة ريثما يذهب ويعود بـ«الغداء»:

- قعدوا أنا بروح أجيب غدى وبشتري ليكم ثياب!

وغادر «س.ح» ليعود وهو يحمل الغداء والثياب!

في هذا البيت كانت هناك مجموعة من الشباب تقرر أن تخرج معهم .. وفيهم صديق حبيب لـ«محمد طوق» حتى أنهما استبشرا باللقاء!

كانت ليلة جمعة .. قرأ فيها محمد طوق «دعاء كميل» ودعا الله فيها أن يسهل مهمة خروج الشباب من البحرين .. هذه البلاد المقهورة التي

يحكمها الغرباء!

وارتفع أذان الفجر حيث أدى الشباب آخر صلاة لهم في هذه الجزيرة الأسيرة! أرض سترة الطيبة..

قلبه يحدثه بأنها هذه الصلاة ستكون هي الصلاة الأخيرة سواء وصلوا إلى إيران بسلام أو استشهدوا في عرض البحر بعيداً عن سواحل البحرين!!

حضر سائق الطراد .. قال لهم:

- جاهزين؟!

قال محمد طوق:

- جاهزين بسم الحسين .. توكل على الله

قام «س.ح» بنقل الشباب ومعهم سائق الطراد إلى الساحل حيث نقطة الصفر!

كانت ظلمة الفجر ما تزال تغمر الساحل والصمت يسود الأجواء..

محمد يصغي إلى صوت ارتطام الأمواج بالطراد الذي انطلق إلى عرض البحر!

الشباب بتجهون بقلوبهم الطاهرة إلى الله سبحانه أن تكون رحلتهم آمنة وأن يصلوا الساحل الإيراني بسلام .. كان صادق تقي جالساً إلى يسار محمد طوق .. التفت محمد إليه:

- عدّينا الأمور الصعبة وهذا من الأصعب!

- شلون؟!

- أنـا اشـوف أن هـذي من أصعـب المراحل!! ما نـدري ويش قدامنا واحنا رايحين .. لكن ندعو الله أن تمر الأمور بخير!

كان القارب يشـق عباب البحر ومع بزوغ الشـمس زادت سـرعة الرياح وراحت تثير الأمواج..

كان القارب عبارة عن علبة كبريت تتقاذفها الأمواج في عمق البحر..

الآفاق زرقاء وقد التقت زرقة السماء بزرقة الماء!

والأمـواج ثائـرة متلاطمة .. وفي هذه اللحظات يدرك الإنسـان أنه لا منقذ إلا الله سبحانه وتعالى..

الطـراد يشـق طريقـه وسـط الأمـواج الثائـرة والميـاه تتسـاقط داخل القارب الذي كان يفقد اتجاهه نحو الشرق من شدّة الأمواج الغاضبة!

وعندمـا تصطـدم الموجـة العاتية بالقـارب وتنخفض مقدمتـه باتجاه البحـر .. كان محمد ورفاقه يسـمعون بوضوح صـوت المروحة في الهواء .. وتأتـي الموجـة الأخـرى لتصطـدم وتـرش ميـاه البحر داخـل القارب .. الأمواج المتلاطمة في وسـط الأجواء الزرقاء .. المشـهد كان ثائراً والبحر كان غاضباً والقارب استحال إلى ريشة في مهب العاصفة المزمجرة!!

قال صادق بلهجة فيها قلق وتوجس:

- محمد! تشهّد!
- ليش؟!
- ظاهراً ما بنوصل

طمأنه محمد:

- إن شاء الله بنوصل!

البحر يزداد ثورة والأمواج تزداد جنوناً! وكان الشباب يتمسّك بعضهم ببعض قرب مقدمة القارب .. لذلك لم يتسنّ لهم رؤية الأمواج وهي ترتطم بالطراد!

حانت لمحمد التفاتة إلى جهة اليمين فرأى ما ينخلع له القلب خوفاً ورعباً!! رأى موجة عاتية تتقدم نحو القارب كالجبل الشاهق!!

لقد حانت النهاية وقد اقتربت الساعة وانفلق البحر .. وضع محمد طوق رأسه بين ركبتيه وراح يدعو الله الخالق العظيم:

- أنت المنجي يا الله! هذا البحر لا يمتلك القوة وأنت الوحيد الذي يستطيع أن ينجينا!!

تساءل صادق بخوف:

- محمد ويش تقول؟

- احتمال نوصل! قول إن شاء الله نوصل!

كانت تلك اللحظات من أصعب اللحظات التي مرّ بها محمد طوق في حياته! حتى عملية الهروب من السجن لم تكن بهذه الخطورة!

في تلك اللحظات المصيرية كانت الذكريات تبرق في خاطره .. ذكريات الأهل والأصدقاء .. ذكريات الطفولة وكان يشعر أنه يتجه نحو النهاية..

مضت خمس ساعات والقارب يصارع الأمواج في رحلة خطيرة ومصيرية!!

في تلك اللحظات المصيرية عندما يقف المرء على حافة النهاية .. عندما يشعر باقتراب ساعة الرحيل إلى عالم ما وراء الطبيعة .. تتجلى مكنونات النفس!!

محمد طوق وجد نفسه يتجه إلى كريم أهل البيت عليه السلام .. إلى سبط رسول الله الحسن بن أمير المؤمنين عليه السلام:

- يا إمامي! أنت الملقب بكريم أهل البيت! وأنا طول عمري لم أطلب منك شيء! والآن اطلب منك! فاخرجنا من هذا الوضع الذي نحن فيه!

راح يكرر هذه الكلمات وهو يخاطب فيها سبط رسول الله المجتبى.. كانت أمواج البحر ما انفكت ترش المياه المالحة فوق المهاجرين إلى الشرق! قال صادق:

- محمد! أنت خرجت من البحر من قبل!! مرّ عليك مثل هذا؟!
- اقسم بالله لو كان خروجي من قبل مثل هذا لما ركبت الطراد أصلاً وما ادخل البحر من جديد!!

كانت ثقته بالله وكان يتوسل إلى الله بأهل البيت .. فهم الوسيلة إليه .. بين الفينة والأخرى كان محمد يسأل السائق:

- شنو صار طمنّه؟
- لا تحاتون إن شاء الله بنوصل

كان السـائق خبيراً بالبحر؛ لذلك كان يقود القارب بثقة .. مضت سـبع ساعات وما يزال البحر ثائراً!!

قال محمد للسائق:

- طمنا! ويش الوضع؟!

نظر السائق إلى محمد نظرات لها معنى:

- ادعوا الله ينجينا!

كان السائق يبذل قصارى جهده لقيادة القارب وسط الأمواج الغاضبة التي لا تهدأ، قال:

- الأمر بيد الله!

سأل محمد:

- وصلنا المنطقة الآمنة؟!

- خلاص طفنا البحرين

القـارب يشـق طريقـه نحو الشـرق والأمـواج يتراجـع عنفها واسـتعاد البحر هدوءه النسبي..

وأشـرقت الابتسـامة .. ابتسـامة الأمل على وجوه الشباب .. الأمواج كانت قد هدأ غضبها وقد سكنت صفحة المياه الزرقاء وظهرت في الأفق الأزرق طيور النورس البيضاء .. كان منظرها لوحة رائعة من الأمل المشرق والفرح والسلام!!

قال محمد للسائق:

- في نورس هني .. يعني في جزيرة قريبة؟!

وجاء جواب السائق صادماً:

- ما في جزيرة هني! دي الطيور تكون مع البواخر! احنا للحين في عمق البحر!!!

القارب يواصل طريقه وسط المياه الزرقاء إلى أن لاح ما يشبه سلسلة جبال .. قال محمد يسأل صادق:

- تشوف الي اشوف؟!

- اشوف كأنه جبال!

ابتسم محمد بأمل وفرح:

- وصلنا إلى إيران!

القارب يقترب من لوحة الجبال إلى أن لاح سيف البحر!!

استبشر الشباب؛ لقد نجحت عملية الهروب نحو الحرية .. بقي خروج بقية الشباب..

وصل القارب إلى الساحل الإيراني ووضع الشباب أقدامهم على الساحل الرملي وسجدوا كلهم أجمعون شكراً لله رب العالمين الذي سخّر لهم البحر وأنجاهم من الغرق!

كان للشباب أخوة ينتظرون وصولهم على أحرّ من الجمر، وعندما لاح القارب يقترب من الساحل هرعوا إليه مسرعين .. واستقبل الشباب بحرارة وفرح .. كانوا قلقين جداً بسبب ثورة البحر الهائج:

شلون وصلتون؟ شلون طلعتون في هذا الجو؟!!

الحمدلله رب العالمين هي الي وصلنا

كان الجو بارداً جداً وكان الشباب مبتلّين ويرتجفون من شدة البرد..

نُقل الشباب إلى غرفة واحضروا لهم المدافئ والبطانيات وملابس جديدة وخلعوا ثيابهم المبتلة وتركوهم ليرتاحوا من عناء هذه الرحلة المثيرة المحفوفة بالأخطار..

بدت مدينة قم المقدسة مرفأً يرفل بالسلام وحيّا محمد طوق كريمة أهل البيت عليها السلام السيدة فاطمة المعصومة .. كان في استقبال الشباب السيد مرتضى السندي وبعض رجالات المقاومة..

كان أول سؤال لمحمد طوق في اللقاء:

- رضا! متى بيطلع؟!
- خلال هذي الأيام إن شاء الله .. نسعى في هذي الأيام رضا يخرج .. لكن خلال هذي الفترة .. يجب ألّا يعلم أحد بوصولكم حتى أهاليكم! إلى أن يصل باقي الشباب!

في فجر كل يوم كان محمد طوق يترقب خروج رضا الغسرة القائد الباسل والقلب الشجاع..

كان الشباب ينتظرون بفارغ الصبر وصول رفاق المحنة والدرب والمصير!

الأخوة في قم أحضروا لهم جهاز «لابتوب» لمتابعة الأخبار في مواقع التواصل الاجتماعي من دون أن يتواصلوا مع أي أحد!

وتمرّ الأيام ومحمد يعيش الأمل .. أمل خروج رضا من البحرين وخلاصه من نير النظام الخليفي الغاشم!!

الشباب يواصلون برنامجهم الروحي الذي اعتادوه في أيام السجن .. وكان السيد مرتضى السندي يزورهم ويطمئنهم حول رضا:

- إن شاء الله قريب

في فجر الثلاثاء التاسع من شباط .. نهض الشباب لأداء صلاة الفجر .. صلوا وعادوا إلى فراش النوم! باستثناء «حسن ناصر» الذي كان يتصفح مواقع التواصل على جهاز «اللابتوب» .. كان محمد متمدداً في فراشه عندما ناداه حسن:

- محمد! قوم تعال اقرأ الخبر!

نهض محمد ليطالع الخبر! الداخلية تصدر بياناً يتحدث عن إحباط محاولة هروب الفارين من سجن جو!!!!

تبادل حسن ومحمد النظرات الحائرة .. قال حسن:

- شنو تتوقع؟!

في هذه اللحظات كان محمد قد أجرى محاسباته فقال على الفور:

- رضا استشهد!

- ما في خبر! لا تستعجل!

- رضا ما بسلم نفسه! أنا اعرف رضا! رضا لن يعطيهم بيده إعطاء الذليل! رضا بيقاوم حتى الشهادة!

سكت لحظات ليقول:

- حسن! شوف الأخبار إذا في جديد!

راح حسـن يتابـع الأخبار ويقـرأ بعضها وفي الأثناء علت طرقات على بـاب المنـزل! أسـرع محمد طـوق ليفتح البـاب .. ظهر وجه سـيد مرتضى حزيناً مهموماً قلقاً متوجساً:

- سمعتون الخبر؟!

- اي

- احتمال رضا استشهد

كان السيد مرتضى السندي يعرف رضا الغسرة جيداً أنه من نوع الرجال الذي لا يستسلمون أبداً! كان يعرف تصميمه على الحرية أو الشهادة!

- رضا لن يستطيعوا أن يعتقلوه!

قال محمد:

- أنا اتصور أن رضا استشهد!

- أنا بروح الحين .. ما بدخل! بروح بتابع الأخبار وراح أجيكم!

قال ذلك وغادر..

أيقظ محمد الشباب وأخبرهم بما يجري! كان الصمت المطبق يجثم فوق المكان كغراب جاثم فوق غصن كسير في يوم خريفي حزين!

سـكينة الليـل وقـد غمر الظلام الأشـياء يحيطها بالأسـرار والغموض .. السـاعة تشـير إلـى ما بعـد منتصف الليـل .. كان رضا جالسـاً ومعه أحمد

العـرب .. جـاء الشـهيد «علي السـنكيس» سـلّم علـى رضا وعانقه فشـعر بدفء صدره .. قال علي:

- بتجي وياي؟

- اي

التفت رضا إلى أحمد العرب وسأله:

- بتجي ويانا؟ بتجي نروح وياه؟!

قال أحمد:

- لا! ما بجي أنا

ذهب رضا مع علي خطوات!!

استيقظ رضا الغسرة من نومه في تلك الليلة الشتائية .. كانت الساعة تشـير إلـى الحاديـة والنصـف بعـد منتصف الليـل؛ وكان رضا قـد أوى إلى فراش النوم في الساعة الثانية عشرة!

وهب من نومه بعد ساعة ونصف!

أدرك رضـا الغسـرة أن هـذه الرؤيـا رسـالة من الشـهيد علي السـنكيس .. لذلـك نهـض ودخل الحمام واغتسـل غسـل الشـهادة .. وبعدها اسـبغ الوضوء واستغرق في صلاة الليل!

وراح يتلـو آيـات القـرآن الكريـم .. يرتلهـا ترتيلاً ثم توجـه بقلبه الذي استحال إلى بوصلة العشق الإلهي .. فزار سيد الشهداء وارتفع أذان الفجر .. فنهض للصلاة!

ثـم راح يقـرأ دعـاء العهـد يبايـع من خلاله إمـام زمانه وعصـره الذي طالما انتظر ظهوره:

- اَللّـهُمَّ إِنْ حـالَ بَيْنـي وَبَيْنَهُ الْمَوْتُ الَّذي جَعَلْتَهُ عَلـى عِبادِكَ حَتْماً مَقْضِيّاً فَأَخْرِجْني مِنْ قَبْري مُؤْتَزِراً كَفَني شاهِراً سَيْفي مُجَرِّداً قَناتي مُلَبِّياً دَعْوَةَ الدّاعي فِي الْحاضِرِ وَالْبادي

وقصّ رؤياه على «س.ح» مستبشراً بالشهادة!

غادر رضا ورفاقه إلى نقطة الصفر في سيف «المنايا» .. حيث القارب الذي يقوده أحد رجال المقاومة!

قاد مصطفى القارب ومعه رضا ومحمود وباقي الشباب وانطلق قارب الحريـة إلـى عـرض البحـر .. كان البحر هادئاً والقارب يشـق المياه باتجاه الشرق في فجر الثلاثاء التاسع من شباط 2017م .. وعندما انقشع غبش الفجر إذا بقوارب مرتزقة النظام القاتل تحاصر المهاجرين!

وكان الخيـار الاستسـلام للعـدو أو المقاومـة حتى النفـس الأخير؛ ولم يتردد الشباب المقاوم في الاختيار..

نهض رضا ليعانق الشهادة وهتف وسط الأعداء في عرض البحر:

- يا فاطمة الزهراء! يا فاطمة الزهراء!

وراح يمطـر الأعداء بوابل مـن الرصاص .. وأصابته رصاصة غادرة في صـدره لكنه ظل يقاتل ببسـالة .. وعندمـا أصابته رصاصة في وجهه هوى شهيداً..

أقسمت لا اقتل إلا حرّا

وإن رأيت الموت شيئاً نكرا

وهكـذا هـوى القائـد الباسـل شـهيداً ولو انكشـف الغطاء لـرأى العدو الشـهيد علـي السـنكيس يحضر ويسـلّم على رضا ويعانقـه ويرافقه .. كانا يمشيان فوق مياه البحر باتجاه الأرض التي تشرق منها الشمس .. شمس الحرية والكرامة الإنسانية!

كان محمـد ورفاقـه من شـباب المقاومة يتابعـون الأخبار عندما أعلن عن مؤتمر صحفي لوزارة داخلية النظام القاتل!

كان محمـد يرقـب تفاصيـل الحادث وقد غدا ذهنه مسـرحاً لمشـاهد النهاية الدامية..

بدأ المؤتمر الصحفي الذي بدأ بالبيان الأمني حول الحادث:

- تم قتل المدعو رضا الغسرة!!

عرضت الداخلية «فيديو» حول الحادث الأليم وظهر رضا الغسرة وهو يقاتل ببسالة ويسطر ملحمة بطولية خالدة..

استشهد رضا الغسرة واقفاً شامخاً كالنخيل!

كان يقاتل وحيداً بين عشرات المرتزقة! وتوهج مشهد عاشورائي في صحراء البحر! صحراء المياه المالحة..

وأخيراً هوى رضا الغسرة القائد الباسل صريعاً مضمخاً بلون الشهادة.

أنا لست أدري هل ستكتب قصتي؟!

أم سوف تذورها رحى النسيان

أو أنني سأكون في تاريخنا متآمراً!!
أم هادم الأوثان
كل الذي أدريه أن تجرّعي كأس المذلّة
ليس في إمكاني
فإذا هويت هويت أحمل عزتي..
يغلي دم الأحرار في شرياني..

ملحق الصوّر

من اليمين: المعتقل أحمد العرب - الشهيد رضا الغسرة - المحرر محمد طوق

محمد طوق يحتضن أخيه حين الإفراج عنه

مع الشهيد محمود العرادي

مع الشهيد علي فيصل

مع الشهيد علي فيصل

مع المعتقل أحمد العرب

صدر لدار الوفاء للثقافة والإعلام

سلسلة رجالٌ صدقوا:

1. هكذا عرفوه، الشهيد رضا الغسرة
2. المؤمن الممهد، الشهيد علي المؤمن
3. فخر الشهداء، الشهيد عبدالكريم فخراوي
4. الخارجون من الماء، رواية المحرر من السـجون الخليفية محمد طوق، كمال السيّد (هذا الكتاب)

سلسلة نهج الولاية:

1. العمل المؤسساتي في فكر الإمام الخامنئي
2. الاستغفار والتوبة
3. التحليل السياسي في فكر الإمام الخامنئي
4. العبد الصالح
5. سيد شهداء محور المقاومة، الشهيد القائد قاسم سليماني

سلسلة من داخل السجن:

1. رسول الرحمة، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
2. يسألونك عن عاشوراء، محمد فخراوي

3. الرحيل نحو الأبدية، الساعات الأخيرة للشهيد علي العرب قبل إعدامه، كمال السيّد
4. الإسلام والعلمانية، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
5. تأملات في الفكر السياسي، الشيخ زهير عاشور
6. التغيير في سبيل الله، الشيخ زهير عاشور

سلسلة تاريخ البحرين:

1. شهادة وطن، إفادات قادة الثورة المعتقلين وعذاباتهم
2. آل خليفة الأصول والتاريخ الأسود
3. الإبادة الثقافية في البحرين
4. تيار الوفاء الإسلامي، المنهج الرؤية الطموح

كتب أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين:

1. رسول الرحمة
2. الإسلام والعلمانية
3. الجمري في كلمات أمينه وخليله
4. القدس صرخة حق
5. إضاءات على درب سيد الشهداء عليه السلام
6. قراءة في بيانات ثورة الإمام الحسين عليه السلام

7. الدولة والحكومة
8. الإنسان رؤية قرآنية - الجزء الثاني
9. الإنسان رؤية قرآنية - الجزء الأول
10. في رحاب أهل البيت عليهم السلام
11. الشهادة رحلة العشق الإلهي

كتب أخرى:

1. قافلة الخلود - شهداء البحرين
2. عاشوراء البحرين 2019
3. كتيّب المقاوم العارف، الشهيد المقاوم أحمد الملالي
4. عاشوراء البحرين 2018
5. الإبادة الثقافية في البحرين
6. حصاد البحرين 2017
7. عاشوراء البحرين 2017
8. في رحاب مدرسة الإمام الخميني قدس سره
9. المهدوية في الفكر الولائي
10. الحصاد السياسي 2016
11. ألم وأمل، السيد مرتضى السندي

كتب باللغة الفارسية:

1. تغيير در راه خدا (التغيير في سبيل الله)، الشيخ زهير عاشور
2. بازخوانى خطبه هاى امام حسين (قراءة في بيانات ثورة الإمام الحسين)، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
3. بر آستان اهل بيت (في رحاب أهل البيت)، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
4. رنج و اميد (ألم وأمل)، السيد مرتضى السندي
5. گواه ميهن (شهادة وطن)، إفادات قادة الثورة المعتقلين وعذاباتهم
6. تاريخ سياه آل خليفة (آل خليفة الأصول والتاريخ الأسود)

حدود مئة يوم مضت على وجوده في الكويت ومشاعر الغربة تتفاقم؛ إنها مشاعر يمتزج فيها الحنين من أنين النفس وتحدث حالة من الانفصال بين الروح والجسد؛ الجسد هنا في إيران .. في العراق .. في الكويت وفي أي مكان .. لكن الروح تبقى دائماً وأبداً في البحرين ..